صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس
Propriétaire - Rédacteur
SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
ص. ب ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون ٢٣٢٨٣٢
AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - LIBAN
B.P. 4123 - Tel. 232832
الادارة : شارع سوريا ـ بناية درويش

العدد ١٢
كانون الاول (ديسمبر
السنة الخامسة عشرة
* *
No. 12
Décembre 1967
15 ème année

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس
Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

ندوة «الآداب»

العرب بين العالمية والأصالة

حول المستشرق الفرنسي المعروف البروفسور جاك بيرك ، عقدت مجلة « الآداب » ندوة فكرية في بيروت شارك فيها الاساتذة الدكتور قسطنطين زريق (ق. ز) والدكتور عبد الله عبد الدائم (ع. ع. د) والدكتور علي عثمان (ع. ع.) والدكتور شارل رزق (ش. ر) والدكتور سهيل ادريس (س. ا) ومحمد النقاش (م. ن) وجوزيف مغيزل (ج. م) . وفيما يلي تسجيل لهذه الندوة .

س. ا : بعد نكسة ٥ حزيران الماضي ، ما هي في رأيكم منظورات العمل العربي الجديد ؟

ج. ب : انا مهتم بالبحوث الكيانية اكثر من اهتمامي بالبحوث الحوادثية ، واعتقد أن النواحي الثقافية عامة والتحليلية خاصة من اهم العوامل تاثيرا على التاريخ ، وربما كان هذا موقفا عقلانيا ، ولكني أعتقد ان القضايا الثقافية ليست اضافية أو مما يستغنى عنه في نهج المجتمع ، بل هي أصلية وعريقة . فانا مثلا ارى ان ليس هناك اقطار متخلفة اقتصاديا sous-developpés ، بل هناك اقطار متخلفة تحليليا sous-analysés . ولو تناولنا التخلف الاقتصادي عن طريق البحث الاجتماعي لرأينا ان معظم عوامل التخلف صادرة عن عدم العثور على الثروات الكامنة في المجتمع نفسه ، وهذا موضوع تحليل بالدرجة الاولى . ولو طبقنا هذا المبدأ على الموقف في الشرق الاوسط لوصلنا الى بعض النتائج الايجابية . على ان هناك ملاحظة هامة ، هي أن « الشرق الاوسط » ليس جزيرة ، لان العالم لا يعرف جزائر . ولا ريب في ان القوى الخارجية الاجنبية قد لعبت دورا هاما في تكوين المشكلة وفي تعقيدها . غير ان علينا ان نقف على الاسباب التي تمكننا من الوقوف على المشكلة ومحاولة ايجاد حل لها .

ق. ز : لا شك في ان المبدأ العقلاني الذي يستند اليه الاستاذ بيرك مبدأ جليل جدا . والواقع ان الذي يحيرنا هو ما يلي : هذا الغرب الذي يمثل العقلانية في هذا العصر ، او يدعي انه يمثلها ، كيف ولماذا لا يحلل المشكلة تحليلا عقلانيا ؟ اننا نؤمن انه لو فعل ذلك لتوصل الى نتائج اخرى .

ج. ب : انا لا اقول ان الغرب يمثل العقلانية ، فالحق ان سياسته غير عقلانية . ولو حللنا الموجة التي قامت في اوروبا واميركا عند بدء حرب ٥ حزيران لفوجئنا بقوة هذه الموجة ، ولا سيما في فرنسا . اننا لم نكن نتصور ان الدعاية الصهيونية قد انتشرت هذا الانتشار الواسع وشملت حتى الجبهة اليسارية في فرنسا . لقد رأينا الذين عرفناهم انصارا للتحرير في الجزائر وكوبا وسواهما يميلون الى جانب الصهيونية بلا بحث ولا تدقيق ولا تعمق ، منجرفين بموجة لاعقلانية وانطباعات عاطفية . والواقع ان هناك طائفتين : طائفة ما تزال ترفض التحرير ، وتريد أن تظل على اعتقادها بان الجزائر مثلا فرنسية ، وهؤلاء لا اهمية لهم ، وهم يمثلون الرجعية المحض ، وليس لهم من أثر ، لا سيما وانه كان بينهم لاساميون ، فأصبحوا بعد الازمة مؤيدين للصهيونية ، مثل « كزافيه فالار » الذي كان وزيرا للشؤون اليهودية في حكومة فيشي . اما الطائفة الثانية وهي الاوساط اليسارية ، فموقفها هو الموقف الخطير ، ولا سيما سارتر ، صديق سهيل ادريس .

س. ا : صديقي ما دام صديقا للحق والعدالة . اما بعد ذلك ...

ج. ب : لقد سبق ان قلت لسهيل ادريس ان سارتر عقل كبير ، ولكنه مع الاسف يفتقر الى الذكاء السياسي . وليس من الضروري ان يكون العقل الكبير عقلا سياسيا ، ولكن المشكلة عند سارتر انه يريد ان يكون سياسيا فيما هو يجابه التيارات اليسارية ، ومنها الشيوعية ، بنوع من العقد النفسية . ففي ابان الحرب الجزائرية مثلا لقيت عنده نوعا غريبا من التطرف . كان ينفر من مفاوضات « افيان » ولا يريد سلما في الجزائر ، بينما كان الجزائريون يسعون الى سلم . ومن المؤسف ان سارتر الذي يبني معظم فلسفته على فهم الآخر L, Autre لا يفهم الآخر ، ولا يحس به . هو يقول : « الجحيم هو الاخرون » ، وانا اعتقد ان « الآخرين » هم النعيم . يخيل الي أن سارتر واليساريين

الفرنسيين جعلوا من الجزائريين اشبه بسياسيين يساريين ، بينما كانوا يبحثون عن شخصيتهم الذاتية لا أكثر . وفي قضية الازمة الاخيرة، لم يستطع سارتر ان يتغلب على ما أحيط به من الدعاية والتضليل الصهيوني ، فاعتبر اسرائيل ضحية ، وقلب القضية ، فاعتبر اسرائيل مدعى عليها . والواقع ان الدعاية الصهيونية بلغت ان تقلب الحقيقة التاريخية في اوروبا كلها ، بحيث أصبح الذين كانوا ينتقدون الاستعمار يسمحون به لاسرائيل فيما هم ينفونه عنها طبعا . انهم ينفون ان يكون الوجود الصهيوني استعماريا ، حتى عقليا . مثال ذلك قولهم أن المستعمر هو الذي يدخل الرأسمالية الكبرى في بلد ما ، اما الصهيونيون فيردون بقولهم : ليس لدينا عمال من العرب ، فنحن نشتغل في الارض والمصنع ، ولا نستعمر العرب . وبامكاننا ان نتساءل : أيهما أخطر ؟ ان نجعل المواطن عاملا في مصنع ، ام ان نقتله او ننفيه ؟

س. ا : هناك ، في المفكرين اليساريين ، فئة ثالثة بالطبع ، وموقفها مختلف ...

ج. ب : نعم . ان البديهية التي أشرت اليها كانت نقطة الانطلاق التي أسسنا عليها ، بعض أصدقائي وانا ، حركة فكرية بعدما فوجئنا بقوة الموجة الصهيونية . ففي أوائل حزيران . وجدت نفسي منفردا ، فسعيت للقاء يساري كبير هو دانيال ماير ، رئيس جمعية حقوق الانسان ، وهو رجل احترمه وانتخبه لرئاسة الجمهورية اذا تقدم لها ، فوجدته يكاد يخرج من عقله تجاه موجة التضليل الصهيوني . وكان كثيرون منا يعتقدون ان معظم اليهود الفرنسيين ينفرون من الصهيونية ، ولكن بدافع الاسف انهم يميلون الى اسرائيل ، باستثناء فئتين : فئة تدين بالولاء لجنسيتها الفرنسية ، والفئة الماركسية التي كان بينها مكسيم رودنسون . وكانت تربطني علاقة به وبغيره من المفكرين والوزراء السابقين ، ومنهم اندريه فيليب الاشتراكي المشهور وبيار كوت والوزير بيرون . وقد كونا جماعة أصبح عدد افرادها الآن يزيدون على ثلاثمئة ، وسننشر عما قريب كتابا عن القضية الفلسطينية يضم بحوثا ومقالات نأمل ان تكون موضوع حوار بيننا وبين اصدقائنا العرب .

س. ا : هل تعتقدون يا استاذ بيرك أن هذه الحركة سيكون لها تأثير يجعل اليسار ، الذي كان من المفروض ان يقف الى جانب العرب في هذه القضية ، يحس بتكبيت في الضمير ويحاول ان يغير موقفه ؟

ج. ب : ان للعامل الفكري في فرنسا تأثيرا كبيرا على القضايا السياسية ، كما حدث في شأن الجزائر بالامس ، وفي شأن الفيتنام اليوم . وانا متفائل بالاجمال . وقد حدث ان انتصرنا في كل مناقشة اجريناها بشأن قضية فلسطين . وقد اقترحنا لقاء مع سارتر ، فلم تتح لنا الفرصة . واعتقد ان سارتر هو الآن في وضع تردد وتمزق .

س. ا : الا تعتقد ان هذا الوضع ، وضع التردد والتمزق ، علامة جيدة بالنسبة لمفكر يساري ؟

ج. ب : بلى ، طبعا .

ع. ع : بالنسبة لموازين القوى المختلفة في قضية فلسطين نعرف جميعا ثقل اميركا في مجرى الحوادث . واعتقد ان وظيفة الفكر في اوروبا تختلف عن وظيفة الفكر في تسيير السياسة الاميركية التي هي وسيلة لتحقيق المصلحة وحدها . وهناك تناقض بين المثل والمصلحة ، ولو كانت الفيتنام بلدا شماليا ، من البلاد السكندينافية مثلا ، لما سمح الاميركي لنفسه ان يقتل فيها ويهدم ، كما يفعل الان .

ج. ب : هذا صحيح .

ع. ع : وبهذا المقياس نفسه اقول ان الغربيين يسمحون لانفسهم بان يكونوا ادوات حين يؤازرون الصهيونية التي هي اقرب اليهم صورة.

ج. ب : ولكنهم في الحقيقة ليسوا اقرب .

ع. ع : غير ان الغربي يتصور ان اليهودي اقرب اليه كأنه ابن عمه ، اما العربي فغريب ، وهكذا يسمح لنفسه بان يعتدي على العربي.

ج. ب : ولكن هذه الغربة هي التي تنقذ العرب في نهاية الامر . فانا أرى ان اميركا او اية سياسة غربية لن تستطيع ان تنتصر بقطع علاقاتها مع العالم الثالث اكثر من ثلاث سنوات او اربع ، ولا أحسب ان اميركا تستطيع ان تمضي طويلا في سياستها بشأن اسرائيل او فيتنام ، لان هذه السياسة ستكون اغلى عليها من الثمن المأمول .

م. ن : ولكن مضى على هذه السياسة عشرون عاما !

ج. ب : في العشرين عاما الماضية كانت القضية مبهمة . اما الآن، فقد تغير الوضع .

ع. ع : لقد اضعنا عشرين سنة ونحن نعتقد أن الاميركيين الذين اسسوا الجامعة الاميركية هم الاميركيون الموجودون في واشنطن . وبعد ذلك وجدنا انهم يختلفون عنهم اختلافا جوهريا .

ج. ب : نعم .

ع. ع : ان الذين اتوا في بداية الامر هم الذين اعطونا هذه الصورة عن الاميركيين .

ج. ب : لا بد من العودة الى النقطة الاولى ، وهي ان على العرب ان يبينوا قضيتهم لكي يكتسبوا التعاون الاكثر امكانية من قبل الاوطان الاخرى في العالم الثالث من جهة ، وفي أوروبا واميركا اللاتينية من جهة أخرى . والسؤال هو : ما هي الوسيلة الى ذلك ؟ والجواب هو : البحث العلمي الذي ينبغي الا نقبل الا به .

م. ن : اذا تركنا الزمان للبحث العلمي الطويل ، فلسنا ندري كيف يتطور العالم في المستقبل . فربما دخل في البحث العلمي أشياء ليست في صالحنا ، من مثل الاسلحة النووية . واذا بقيت اسرائيل طويلا ، فلن ينفعنا البحث العلمي ولا سواه .

ج. ب : لا اقصد بالبحث العلمي الاطروحات الجامعية ، بل اقصد الاعمال المبنية على تحليلات علمية محققة منطقيا . فهل قام العرب بشيء من ذلك منذ عشرين عاما ؟

ع. ع : اود أن استفسر : هل المقصود البحث العلمي داخليا في المجتمع العربي لنعرف كيف تحرك هذا المجتمع نحو اهدافه ، ام البحث العلمي الموجه نحو الآخرين ؟

ج. ب : الامران معا .

س. ا : وهل من الضروري ، لكي تنتصر قضية الحق ، أن تكون دائما مدعومة بالبحث العلمي ؟ اذا كانت هناك قوتان : احداهما تملك القوة العسكرية وتملك في الوقت نفسه البحث العلمي ، والاخرى تملك الحق وحده ، فهل من منطق التاريخ وتطوره أن ينتصر من الجانبين من كان يملك القوة وحدها ؟

ج. ب : هل يتوجه سؤالك الى المدى الطويل ام القصير ؟ اذا كان على المدى الطويل ، فالحق والقيم والعلم والمنطق شيء واحد . اما على المدى القصير فلا . فخذ مثلا تاريخ الاستعمار او الامبريالية تجد انه خال من المنطق . الامبريالية سطحيا كانت منطقية ، اما داخليا فلا . وانا أخالف ماكس ويبير وكل العلماء الاجتماعيين الذين يرون ان النمط الغربي الاستعماري الرأسمالي يمثل المنطق الاقوى . فهذا ليس صحيحا حتى بأبسط المقاييس .

ع. ع. د : اوافق كل الموافقة على ان الاساس الثقافي يغلب جميع الاسس ، وهو الذي ينبغي ان نلتمسه في دراسة اية مسألة ، او الاسباب العميقة للمشكلات . وهناك وجهان للمشكلة التي نتدارسها : الاول هو التحليل الثقافي للعوامل المختلفة التي تدفع المجتمع الغربي والمجتمعات الاجنبية الى موقفها من قضيتنا . والوجه الثاني هو تحليل مجتمعنا وثقافتنا لتبيين العلل الحقيقية التي تجعلنا نقع في ما نقع فيه من صعوبات ونكسات. ولا شك في أن الجانبين مترابطان، فنحن حين نفهم العوامل الثقافية في المجتمعات الغربية نصبح اقدر على التعامل معها وعلى اقناعها بوجهة نظرنا اذ ننطلق حينئذ من الاسس الثقافية التي نعتمد عليها ، وبالمقابل حين نفهم انفسنا ونصبح اقدر على تحليل الاسباب العميقة للظواهر التي تقع في المجتمع ، نكون قد تكلمنا لغة جديدة يستطيع الغرب ان يفهمها الى حد كبير . وانا أؤمن تماما بصحة هذا الطريق ، وبصورة خاصة في المدى الطويل ، كما يقول الاستاذ

بيرك . والحق اني مؤمن أصلا بالحلول البعيدة المدى ، لا الحلول العابرة ، واعتقد ان الازمات العابرة مهما تبد عنيفة وملحة فليست شيئا في ميزان البنيان الحقيقي للمجتمعات . ان التقلب في اي مجتمع من المجتمعات هو الى حد كبير تقلب ثقافي ، وان بلدا متخلفا هو بلد متخلف ثقافيا sous-enseigné . ولكن خشية التفسير الواحدي Explication linéaire للموضوع لا بد من الاخذ ببعض التفسيرات الدائرية Circulaires بالنسبة لما يجري في مجتمع من المجتمعات. ولا شك في ان العوامل الثقافية في المجتمع العربي هي المهملة وهي التي ينبغي ان يصب عليها القدر الاكبر من النور . ولكن لا شك كذلك في انها تتفاعل تفاعلا قويا مع عوامل اخرى هي العوامل الاقتصادية المرتبطة بدورها بالعوامل السياسية الدولية والمرتبطة ايضا بالعوامل الاجتماعية . واستطيع ان اقول ان معركة البلاد العربية يمكن ان تكون على جانبين وبسلاحين في آن : طريق العمل الثقافي الدؤوب الطويل الذي يعطي النتائج الاساسية في المستقبل ، وطريق العمل اليومي دون ان نعطي هذا العمل اليومي اية قيمة نهائية وحاسمة ، ويبقى اني اوافق تماما على ان منطلقنا يجب ان يكون تحليل الامور تحليلا جديدا علميا دقيقا .

ج. ب : اسمحوا لي ان اضيف شيئا آخر ، هو ان النكبات في تاريخ الامم شيء عادي . وتاريخ فرنسا مليء بالنكبات . لقد أصبنا بنكبة منذ سبعة وعشرين عاما ، ولكن اين نحن اليوم منها ؟ ان التاريخ الذي يدرس في المدارس لا يصاغ على الانتصارات ، بل على النكبات ، وهو تاريخ الامم كلها . ثم ان هناك ما يسمى بتسارع التاريخ بسبب القوى التكنولوجية المتزايدة التي تكبر وتعظم تحت تأثير القوى المادية . وانا اعتقد انها فرصة تسنح للعرب الآن لمراجعة انفسهم ولتحليل ماضيهم وحاضرهم تحليلا كافيا يساعدهم ، لا على حل قضية فلسطين وحدها ، بل على حل مشكلة تقدمهم لو عرفوا ما يفعلون وارادوا ان يفعلوا . اما اذا لم ينتهز العرب هذه الفرصة ، وربما كانت الاخيرة ، فأخشى ان يخسروا تراثهم كله . وهكذا ترون اني متفائل متشائم معا . الفرصة امامكم ، وعليكم ان تغتنموها .

ش. ر : اسمح لي باستيضاح : ان تسارع التاريخ في رأيك مفهوم ينطبق على تسارع الانماء ، أي التخلف من جهة ، والتطور الاقتصادي السريع من جهة اخرى .

ج. ب : هذا ملحوظ ليس فقط بين الامم الصناعية والاخرى المتخلفة ، بل بين البلاد الصناعية ذاتها . مثلا الفرق بين اميركا وفرنسا اكبر الآن منه قبل عشرين سنة . والفرنسي مثلا يحس بانه لو كان يملك القوى الكافية لاطلق كوكبا ذا طنين او ثلاثة اطنان ، لا كوكبا ذا عشرة كيلو غرامات ، لانه يعتبر نفسه من نفس النمط في التقدم . اما المجتمعات الاخرى ، فلا تختلف عن الاولى بالكميات فحسب ، بل بالفرق النمطي ، كما هو الحال بين انكلترا ومصر مثلا ...

ق. ز : القضية اذن ليست في يد العرب وحدهم ..

ج. ب : لا بد من استغلال الامكانيات التي نملكها . صحيح ان للدول الاجنبية تأثيرا علينا ، ولكن للعرب تأثيرا على بقية الدول ايضا. وانا اعتقد ان للعالم الثالث مستقبلا .

ش. ر : تقول ان المستقبل للعالم الثالث الذي هو بالنسبة للولايات المتحدة والغرب عالم متقلب اجمالا ، فكيف توفق بين هذا وبين ما تؤمن به من هوة متزايدة الاتساع بين الدول الصناعية والدول المتخلفة ؟

ج. ب : انا أومن بالجدلية التاريخية . فالفرق نفسه كان قد وقع بين الطبقة الرأسمالية وطبقة العمال في اوروبا في القرن التاسع عشر .

ش. ر : أيكون ذلك عن طريق ثورة عالمية مثلا ، ام عن طريق منجزات تكنولوجية ؟

ج. ب : ثورات واكتشافات او مضاعفة النمط السائد لمضاعفة الدخل .

ش. ر : ان هذا يساعدنا على فهم اسرائيل : ان تدرك اليهودية العالمية الفرق بينها وبين اسرائيل والصهيونية روحيا .

ج. ب : لقد لعبت اليهودية بيدق العالمية ، اما العرب فلعبوا مع الاسف بيدق العزلة والانزواء . ان العرب هم الآن اكثر انزواء منهم منذ عشرين عاما . ان اليهود ممثلون في كل امة وفي كل طبقة وفي كل مستوى من العمل الفكري . انا اؤمن بالعالمية ، وايماني بالعالمية يجعلني أؤمن بنجاح العالم الثالث ، لاني اعتبره ممثلا للقوة الارضية التي ستنجح وتنتصر على سواها . وايضاحا لهذا ارجوكم ان تقرأوا كتابي La dépossession du monde

س. أ : لنعلق على هذه الفكرة المتعلقة بالعالمية . فيجب ان نلاحظ اولا ان الصهيونية لم تلعب ورقة العالمية على نطاق واسع ، ذلك ان هناك قسما من العالم لم يؤيدها ، هو المعسكر الشرقي بصورة عامة ، وبذلك فقدت نصف العطف العالمي او جزءا كبيرا منه ، ففقدت العالمية . على اننا نريد ان نتساءل عن هذه « العالمية » الباقية ، أي القسم الذي ايد اسرائيل والذي لعبت اسرائيل ورقته : ألم تلعب الصهيونية هذه الورقة لانها مستعدة لان تكون اداة في يد العالمية وفي يد الاستعمار العالمي ، في حين ان للعرب خاصة وللشرقيين بصورة عامة من نضالهم وتاريخهم الطويل ما يجعلهم ينفرون من هذه العالمية ويفضلون الانزواء ، محافظين بذلك على ما يسمونه باستقلالهم ، خوفا من أن يصبحوا في مدى قريب أو بعيد لعبة في يد الاستعمار ، كما هي اليوم اسرائيل التي تقرون ولا شك بانها واقع استعماري ؟

ج. ب : أوافقك على ان العالمية ليست بأسرها الى جانب اليهود. على اني اناقش حكمك بان العالمية تتخذ مظهر الاستعمار . فليس صحيحا ان العالمية تناقض الاصالة Authenticité كما يبدو من كلامك . وانا لا ارى ان العالمية تناقض الاصالة ، وانما اعتقد ان الاصالة تبنى على العالمية والعكس بالعكس . وهذا شيء بديهي من زاوية النظر الجدلية . لنأخذ مثلا : ان التعمق في ذاتك هو الذي يجعلك قريبا من الآخر ، وتقربك للاخر هو الذي يجعلك تتعرف وتتعمق نفسك . وعلى هذا فالاصالة عنصر يتوازن مع العالمية .

ع. ع : اريد ان افسر انزواء العرب ، ان هذا الانزواء قد صدر على اثر اكتشاف الغرب . ونحن نعتقد ان التاريخ نفسه قد ينحرف ، ولكن لا بد له من العودة الى الاصل والاصالة . واسرائيل انحراف للتاريخ . وفلسفة التاريخ في القرآن ان الامم تأتي وتزدهر ولكنها قد تنحرف ، فتنقرض او تعود الى الاصل . من هنا اعتقادنا بان العالمية بالنسبة للعقلية الغربية ليست موزونة .

ج. ب : ولكن التقدم العربي ، في القرون الكبرى ، كان يملك فكرة عميقة جدا عن العالمية .

ع. ع : ان الغرب لم يصل بعد الى مفهوم الانسانية كما فهمها العرب ، بغض النظر عن كل العوارض جنسية كانت ام لغوية ام دولية ام قطرية . ان الانسان هو اولا انسان ، ومن هنا تنبع العالمية . والاصالة تغذي العالمية وتتغذى بها ، ولكن كل حضارة تندمج مع العالمية بعقليتها هي ، اي بأصالتها ، واصالتنا هي التي مكنتنا من ان نكتشف ان الغرب ليس كما يدعي وليس كما يصف نفسه . من هنا كان الانزواء. اما ما الذي يولده هذا الانزواء ، فأمر آخر .

ج. ب : ولكننا لا نبحث الآن عن القيمة المقارنة للتمدن والحضارة.

ع. ع : انا أبحث عن طريقة عملية لقضية معينة . فانا اعتقد مثلا ان اليهود لا يفهمون هذه الحضارة ، وهم مخطئون .

ج. ب : انت على حق . وانا أضيف الى ذلك حجة اخرى ، هي في الحقيقة مفارقة عجيبة . فقد كان المستشرق ماسينيون يقول ان اليهود الحقيقيين الآن هم العرب ، وان الصهيونيين هم الغربيون الوافدون . ان اليهود اليوم يعودون الى العنصرية القبلية ، ولو كنت انا يهوديا لكنت أؤمن بان الصهيونية خطر ، خطر مميت . واذكر هنا بالمناسبة ان حاخاما يهوديا كتب لي بعد قيام حركتنا يؤيد فكرتي ويقول ان تكهناته تقوده الى ان القضية الصهيونية قضية خاسرة ..

س. ا : ولكننا لا نريد ان نطمئن وننام على الحرير بمجرد ان نسمع هذا !..

ج. ب : طبعا ، طبعا . لقد لعب العرب بيدق العالمية في القرون الوسطى ، فتجاور العربي مع الجميع : مع الفارسي والهندي والاوروبي والاندلسي والبيزنطي . ولكن هل بوسعنا اليوم ان نقول ان القضية العربية كانت محتلة في العالم ؟ ان العرب اليوم يتأرجحون بين عالمية تخلو من أصالة وأصالة تخلو من عالمية ، وتكتمل كرجعية ، مع الاسف الشديد .

م. ن : لماذا يتوجب على العرب ان يتحملوا مسؤولية عدم ثقافتهم او عدم عالميتهم بالنسبة لعالم يقول في الامم المتحدة ان الاستعمار قد انتهى وان لكل شعب الحق في العيش وفي تقرير المصير ؟ لماذا يجب على الشعب العربي ان يتحمل هذه العواقب بينما هناك شعب كشعب الكونغو قد حصل على استقلاله على الرغم من ان البلجيكيين يفوقون الكونغوليين حضارة وتقدما وعلما . لو تركنا مع اسرائيل وحدها لقضينا عليها بمفردها ، ولو بالتخريب . اما حين تأتي قوى كبيرة وضخمة لدعم اسرائيل ، فماذا يجب علي ان افعل ؟

ج. ب : تتخذ الوسائل الكفيلة بالتأثير عليها ، وشيئا فشيئا تجعل هذه القوة تنحاز اليك . حتى سؤالك : لماذا ؟ هل تطرحه على صعيد القيم ام على صعيد الوقائع ؟ لو جعلنا المناقشة على صعيد القيم لكان هناك شيء آخر : ان العرب هم الضحية ، وهذا ما لا شك فيه . اما على صعيد الوقائع ، فلا بد من ان نتساءل (وانا اعتبر نفسي منكم) ماذا نفعل ؟

م. ن : على صعيد الوقائع ، كما قال الدكتور سهيل ادريس ، على اعتبار ان هذه عودة للاستعمار الى بلاد غنية بالبترول والامكانيات الاقتصادية .

س. ا : وبعبارة اخرى : ان هذه الفكرة العالمية التي يجعلها الاستاذ بيرك عنصرا رئيسيا مكونا ومقوما لنجاح امة ، انما هي فكرة نحرص على ان نتمتع بها ونأخذها ونكتسبها لحسابنا حين نؤمن بصفائها وبراءتها من النزعات الاستعمارية ، ولكن القوى الخارجية تحرمنا دائما من ان نبلغها .

ج. ب : هذا جواب يتعلق بصعيد القيم . فليست المشكلة المطروحة هي البحث عن الاسباب التي ادت الى ذلك . انني اؤمن بالعالمية كقيمة وكحقيقة تاريخية . فلو أن العالم الاشتراكي نفسه الذي افضله على غيره من الانماط الاجتماعية الاخرى ابتعد عن العالمية ، فهو خاسر . انني عدو التمدن الاميركي ، ومع ذلك فان هذا النوع من العالمية المتبذلة يتمتع بقوى اكثر مما نشاهد في رحاب اخرى من العالم . ان العالمية حتى ولو كانت مزيفة وحقيرة تنتصر على ما ليس هو بعالمية ، اما نتيجة ذلك على مدى طويل او مدى قصير ، فأمر آخر . وانا آسف لان اقول هذا ، ولذلك تجدونني متفائلا متشائما في آن .

ق. ز : في عالم الوقائع اذن لا بديل من القوة .

ج. ب : ليست القضية يا عزيزي الدكتور زريق قضية قوة ، بل هي قضية نموذج سلوكي ، مسلك عالمي ينتهي بان ينتصر على ما ليس عالمية .

ع. ع. د : ولكنه ليس مسلكا اخلاقيا .

ج. ب : اقرك على ذلك ، وليس معنى هذا اننا ينبغي ان نخضع له.

م. ن : أصحيح ان اميركا تملك حظا من العالمية يفوق حظ الاتحاد السوفياتي منها ؟ اين تتجلى عالمية اميركا عندما نأخذ بعين الاعتبار قواها الرأسمالية ومخابراتها ؟

ج. ب : من الغريب ان اكون أنا محامي النمط الاميركي ، هذه مفارقة كبيرة . ولكني طوال حياتي رأيت النمط الاميركي ينتشر في العالم اكثر من الانماط الاخرى . انظر حولك ، وحتى في روسيا نفسها للاسف الشديد .

س. ا : ولكن لنا من سلم القيم التي نتبناها ما يجعلنا لا نؤمن كثيرا بهذه العالمية التي تلتمس لها التبريرات احيانا بالرغم من زيفها

ج. ب : انا اقول انكم تستطيعون ان تحتفظوا باصالتكم . وما اقوله عنكم ينطبق على فرنسا . فلو انزوت فرنسا لخسرت ، ولكنها لو تخلت عن أصالتها لكانت خسارتها افدح . انها البلد الوحيد الذي يدافع الآن عن أصالته في اوروبا الغربية . فالدول الغربية كلها ، من سويسرا الى ايطاليا حتى النروج ، قد استسلمت للنمط الاميركي .

س. ا : وفرنسا نفسها كانت الى سنوات مستسلمة للنمط الاميركي .

ج. ب : انا لا اقصد السياسة الوطنية ، بل النمط الحضاري ، فهذا ما زال على حاله . انه الوحيد في اوروبا الذي يدافع عن نفسه. وهذا ما لا يفهمه الاميركيون .

ع. ع. د : اذا عدنا الى موضوع العالمية بالنسبة للعرب واليهود ، لم نشك في ان الموقف العالمي تجاه اية حضارة انما هو تعبير عن نضجها وتفتحها وسمو قيمها ، بل تكاد تكون سمة الحضارة محاولتها الانطلاق . وقد ارادت الحضارة العربية في الماضي كما ذكر الاستاذ بيرك ان تعبر عن نفسها عالميا ، حتى انها في البداية ، ايام الاسلام ، قد انطلقت من دين . والدين في معناه الاوسع محاولة للانطلاق عالميا الى المدى الاوسع . وهكذا جعلت من حضارتها دينا لجميع الشعوب . واعتقد ان تخلي الحضارة العربية عن عالميتها مرده الى عهود الركود والانحطاط .

ج. ب : رجعت عن عالميتها عندما رجعت عن اصالتها .

ع. ع. د : ان العوامل الخارجية والعوامل الاستعمارية موجودة، ولكن العامل الاهم ان الحضارة التي ركدت لم تعد قادرة على أن تكون عالمية . وهي تحاول الآن أن تغذي وجودها الاصيل عن طريق الانفتاح على التجارب العالمية . ولنحلل العالمية الآن من وجهة نظر اليهود : لقد كانوا مشتتين في انحاء الارض ، وكانوا يعيشون ضمن حضارات عالمية ، فهم عالميون بحكم وجودهم ذاته . وهكذا انطلقوا من وجود عالمي وساهموا في الحضارات العالمية التي وجدوا فيها ، ولكنهم الآن يرتدون من العالمية الى العنصرية الضيقة .

ج. ب : هذا صحيح .

ع. ع. د : ويستخدمون عالميتهم السابقة كقوة في يدهم من اجل تبرير عنصريتهم . فالفرق بين العرب واليهود هو التالي : ان العرب انطلقوا اصلا من وجود عالمي ، ولكنه ركد وخفت ، وهم الآن يتجهون نحو وجود عالمي جديد ، بينما اليهود ينطلقون من واقع عالمي ليستخدموه ضد العالمية ويؤكدوا به وجودهم الاقليمي .

ج. ب : وهذا ما سيفقد اليهودية العالمية ، في نهاية المطاف ، طابعها العالمي .

ع. ع. د : عندما تصل العنصرية اليهودية المتجلية الآن في اسرائيل الى حد المطالبة والادعاء ببعض التراث العربي ، وبان الواقع في القدس او الخليل هي اشياء كانت لها ، فهي تقلب ظهر المجن للعالمية وتقع في أسوأ انواع العنصرية الضيقة .

ج. ب : اعتقد ان الصهيونية ، كما ظهرت في الاحداث الاخيرة ، ستسبب صعوبات للاسرائيليين في معظم البلاد الاوروبية لانهم اظهروا انهم لا يدينون بالولاء لاوطانهم ، وربما نشأ عن ذلك موجة من معاداة السامية .

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

في البحرين

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

دار الاداب تقدم :

من النكسة الى الثورة !

تأليف الدكتور نديم البيطار

أول دراسة علمية تحليلية ايجابية تصدر بعد نكسة ٥ حزيران ، تتناول أسبابها والانحرافات التي أدت اليها وتحلل الواقع العربي المعاصر وتخرج الى رسم الطريق الجديد الذي لا بد من أن تسلكه الاجيال العربية الجديدة : طريق الثورة المؤدية الى النصر .

من فصوله : الانحرافات البعيدة وراء النكسة : الانحراف الفكري ـ الانحراف الايديولوجي ـ الانحراف الذاتي ـ الانحراف الاستراتيجي . وهناك فصول تقدم التمثيل والاستشهاد لكل هذه الانحرافات .

كتاب هام لمؤلف « الفعالية الثورية في النكبة » و « الايديولوجية الانقلابية » ، ينتظره كل مثقف عربي يريد أن يلتمس ، بعد النكسة ، أفقا للامل ودربا للنصر .

يصدر هذا الشهر

ش. ر : وربما كان في ذلك حظ طيب لنا نحن العرب ...

ج. ب : اذا احسنتم استغلاله .

ع. ع. د : ما عساه يكون موقفنا اذا ادعت اسرائيل انها بعد ان انطلقت من العالمية ، تريد الآن ان تبحث عن العالمية والاصالة في وقت واحد ؟

ج. ب : انا اعتقد أن عليكم ان تقنعوا العالم بأن ادخال الصهيونية الى فلسطين هو ظاهرة استعمارية وامبريالية . ويوم تتمكنون من اقناع جزء هام من الرأي العام العالمي ، تفقد اسرائيل كل سند لها . ولكن من سوء الحظ ان الحجج التي قدمت جعلت حتى الإكفاء من المفكرين يرون الامور معكوسة . وقد رأينا في الصحافة الفرنسية صورا لم يكن الفرنسيون يجرؤون ان ينشروها في أثناء حرب الجزائر . أما هذه الصور التي نشرت عن اسرائيل فكانت خالية من كل تحفظ وحشمة .

ش. ر : انها تلك الصحف نفسها التي كانت ضد استقلال الجزائر !

ج. ب : تماما .

ش. ر : حتى مجلة الاكسبرس التي وقفت ضد حرب الجزائر ، نشرت حديثا صورا للجنود الاسرائيليين وهم يرتدون لباسا اشبه بلباس المظليين الفرنسيين ...

ج. م : وتكلمت عنهم بلهجة ثناء ...

ج. ب : الحجة التي اريد الادلاء بها بهذا الصدد هي التالية : ان الاستعمار ظاهرة تاريخية ، وهناك التكنولوجيا التي تحتل مظاهر ايجابية ومظاهر سلبية . وهذه المظاهر السلبية تقوى شيئا فشيئا حتى يحدث هذا الانفجار الذي سيقود الى نهاية الاستعمار . اما بالنسبة للصهيونية ، فليس ثمة أي مظهر ايجابي ، لانه ليس ثمة تربية تكنولوجية ولا تدريب على لغة عالمية الخ.. ليس ثمة شيء على الاطلاق . ان الصهيونية اذن هي « الاستعمار المطلق » . الاستعمار المطلق لانه خال من اي جانب ايجابي .

س. أ : ولكنهم سيقولون انه نموذج جديد من الاستعمار !

ع. ع : ان من يملك القدرة على الوصول للجماهير يحدد تفكير الجماهير . من يملك النيويورك تايمز ومن يملك التلفزيون والاذاعات يملك تفكير الاميركيين . ولست اعرف كيف هي الحال في فرنسا .

ج. ب : لا ، ليست سيئة الى هذا الحد . ولكني مع ذلك فوجئت بقوة الدعاية الصهيونية . والامر الآن يتجاوز القضية الفلسطينية .

ش. ر : انه مشكلة عالمية .

ج. ب : هذا صحيح . ولكن هل سيقبل العالم طويلا هذه الظاهرة ؟

ج. م : انهامن مخلفات روح الاستعمار القديم الذي يتجلى الآن في الصهيونية .

ج. ب : هي بقايا كما تقول ، وهي تزول تدريجيا .. ولكننا نراها الآن تتجدد وتنمو ...

م. ن : سمعت اخيرا احد البلجيكيين يقول ان على بلجيكا ان تسترد افريقيا ، لان هذا هو الحل الوحيد لحل مشكلاتها !

ج. ب : ومثل هذا موضوع الفيتنام . ولكني ما زلت اعتقد ان القضية بالنسبة اليكم هي قضية دفاع ومرافعة وحجج دامغة تأييدا لقضيتكم .

ج. م : على ان هذا لا يمنع من ان نستعد للدفاع عن حقوقنا بالقوة العسكرية .

ج. ب : انني موافق على ذلك .

ش. ر : تقول انها قضية مرافعة ودفاع وحجج . ولكن اذا كان صحيحا اننا لم نحسن تقديم الحجج تأييدا لقضيتنا ، فمن الصحيح ايضا ان الصحافة العالمية ، حتى تلك التي ليست واقعة تحت تأثير الصهيونية ، لم تتصرف وفقا لضميرها . انها لم تكلف نفسها مشقة درس الموضوع عن كثب ، وهذا ما ينبغي أن يعود عليها بشعور العار والخجل .

ج. ب : هذا حق . فقد اصيب الاعلام بآفات كبيرة . آفات خطرة .

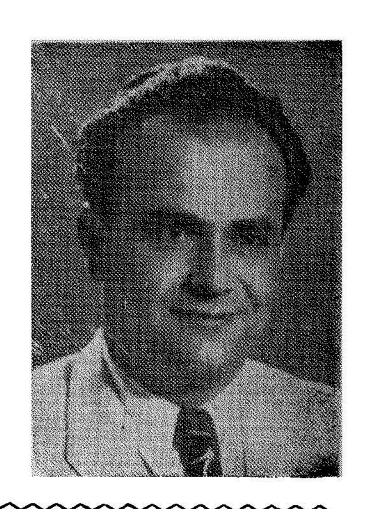
ش. ر : يجب اذن ان ندين الاعلام الغربي ، كما يدان الآن الاعلام العربي .

ج. ب : مع فرق ان هذا لا يكلف الاعلام الغربي شيئا . وليس هذا هو شأن اعلامكم .

م. ن : ان اقفال قناة السويس يكلفنا عشرة ملايين استرلينية في السنة ...

ع. ع :لقد اتضح لي حين كنت في أميركا أننا نعرف عن فييتنام اكثر مما يعرف الشعب الاميركي . انهم يسيرون شعبهم كما يريدون ويخضعونه لعملية « غسل دماغ » ...

ج. م : لقد قامت اسرائيل بعملية غسل دماغ في اوروبا كلها !



رئيف خوري والتراث العربي

بقلم رضوان الشهال

في الشهر الماضي ، غاب وجه رئيف خوري ، فخلف في ميدان الفكر والادب في لبنان فراغا كبيرا يعمق الاحساس به يوما بعد يوم .
و « الآداب » التي كان رئيف خوري أحد اعمدتها الرئيسية تحيي ذكراه بتقديم عدة دراسات عنه في الصفحات التالية ، تتناوله في عدد من وجوه نشاطه الفكري ، واثقة من ان مجال القول فيه لا يمكن ان تملأه صفحات محدودة كهذه الصفحات .

كان يحب حتى الشغف ذاك العالم القديم الحي ، المطوي في خزانات الكتب العتيقة ، والذي يسمونه تاريخ العرب وتراثهم . ما اكثر ما سرح في اقاليمه الواسعة الفنية ، ينتقي من كنوزه الوجوه الكريمة والسيوف والشهامات ، ينفض عنها غبار الزمن ويعطيها للناس الجدد في هذا العصر الجديد . على ان اكثر ولعه كان بتلك المعجزة التي يسمونها الكلمة . وهذا مفهوم . لقد كان اديبا من طراز رفيع حقا .

في الواقع ، كان رئيف خوري واحدا من عشاق الكلمة المخلصين الكبار . ومن الحق ان ابادر الى القول بان الكلمة لم تكن في مفهومه لفظا يتمحنك به قلم او لسان . لم تكن معنى ممحي الهوية في ضباب المطلق المجرد . وما هذا ، على كل حال ، مما يغري بالعشق أصلا او يوحي به .

وانما الكلمة العربية التراثية ، بكل حقيقتها المادية التاريخية ، بكل ثرائها الحياتي الجمالي ، هي التي عشقها رئيف خوري ذاك العشق الحقيقي الخالص الذي من طبعه ، ابدا ، ان يفرض نفسه مبررا لوجود، حافزا الى عمل . واذن فهي الكلمة الحية التي تحمل في الصميم من لحم حروفها ، وكأنما بضرب من السحر ، خلاصة انسان عربي ، خلاصة أمة كريمة قد كان لها ، خلال عصور مزدهرة كثيرة ، ان تحمل راية الحضارة الانسانية تحميها بالسيف الشجاع من عسف البرابرة والظلاميين ، وتغنيها في الوقت نفسه بكل ما كان لعبقريتها الفذة ان تبدعه من الادب والفكر والعلم والفن ، مشحونا بنوازع الحرية والتقدم وبالقيم الخلقية الشهمة .

على ان رئيف خوري لم يكن على غرار من سبقه من الادباء والمفكرين العرب منذ عهد الانبعاث ، ليكتفي من الكلمة العربية بوجهها القديم العريق ، على فرط ما بقي في هذا الوجه من نضارة حياة وبهاء شباب . بل كان يتطلع من صميم ملامحه النضرة الشابة الى ملامح جديدة انضر حياة واسطع شبابا في مستقبل .

هذا بالضبط ما أشار اليه عمر فاخوري حين قال في معرض التقييم لصديقه ورفيق نضاله : « رئيف خوري لا يقف على اطلال الماضي مقدار ما يقف على تصاميم المستقبل » .

وتأكيدا على هذا الاتجاه التقدمي الواضح ، يقول رئيف خوري نفسه ، في فصل من كتابه الممتع (مع العرب في التاريخ والاسطورة) : « ولولا الشوق الى فهم الحاضر والمستقبل لما كان لتفهم الماضي معنى . والنظر الى وراء جزء من النظر الى أمام » .

وما دمنا في معرض الاستشهاد بما يضيء لنا سبيل البحث والتفهم لموقف رئيف خوري من التراث ، اجد من المناسب ان ألفت نظر القاريء الى عبارة بالغة الدلالة ، توج بها الصفحة الاولى من كتابه المذكور آنفا ، حيث قال في معرض الاهداء : « الى الشعب الذي احببته ، وفي احيان كرهته ، كما يكره المرء نفسه ، كرها مشتقا من اعمق الحب » .

لكم أحس ، من هذه العبارة الموجزة الكثيفة ، عبير الصدق يملأ حاسة الشم عندي . فما أصدق حقا هذا الحب الذي يتفق له ، في احيان ، أن يتلبس شعور الكره ـ او السخط بالاحرى وهو المقصود لا ريب ـ تعبيرا عن مقدار ما قد بلغ اليه من عمق ورسوخ جذور . ما أسهل ، على كل حال ، ان نتبين في صميم هذا (الكره المشتق من اعمق الحب) ما ينطوي عليه فعلا من معاناة وجدانية صادقة . بل ما أسهل ان نرد هذه المعاناة نفسها بكل ما احتدم فيها من جدلية نزاع، الى منبعها الحقيقي الوحيد ، وما هو الا الروح الثورية الاصيلة التي كانت تحرك وجدان الاديب الاصيل ، ابن الشعب العربي وتراثه .

وبعد ، فلم يكن القصد من هذه التوطئة الا ان يعرف القاريء من أي نسيج بالغ الاصالة والمتانة قد حيكت تلك الخلفية الوجدانية التي كان يصدر عنها رئيف خوري في ما كان يكتبه ويحاضر به طلابه ومستمعيه حول تاريخ العرب وتراثهم الفكري والادبي . ولابادر الى القول هنا ، فيما يختص بهذه الكتابات والاحاديث أنها لم تكن بمعظمها من نوع الدراسات بالمفهوم الرسمي الجامعي . أقول هذا لمجرد التحقيق الموضوعي . فقد بقي رئيف خوري ، حتى في كتابه التاريخ والابحاث التراثية ، أديبا لا يتخلى قط عن مزاجه الادبي على الرغم مما كان يخالط هذا المزاج من نزوع حازم الى العقلانية العلمية والبحث المنهجي . بقي أديبا يؤثر السياحة والتقاط الكنوز . ولهذا كان اكثر نتاجه في مجال التاريخ والتراث التفاتات مضيئة ولقطات جد ذكية فخواطر بالغة العمق وتصاميم . وهو على كل حال محصول جد ثمين ، غني الكثافة والابعاد ، ومن حقه علينا ان نرفعه امامنا اشارات وعلامات هادية الى طريق يجب ان يشقها من بعده ويعبدها الادباء والباحثون في دنيا التاريخ والتراث. لا ريب عندي ان رئيف خوري قد كان الرائد في هذا المجال .

يبقى ان اعرض لهذا المحصول أتناوله جملة ، اذ لا مجال هنا لاي بحث يستغرق في التفاصيل . وليكن حسبي ان اكشف منه عن ابرز

ملامحه المضيئة وهي تتلخص بموقف جديد من التاريخ والتراث، مسلح برؤية جديدة واسلوب في المعالجة جديد.

ولكي نتبين عنصر الجدة في هذا الموقف الجديد، على نحو كاف من الوضوح، ينبغي ان نقابل بينه وبين الموقف التقليدي القديم الذي كان يتخذه معظم الباحثين من ادباء ومفكرين ومؤرخين. في الحقيقة لم يكن هناك موقف واحد او موحد. بل كانت مواقف عدة متنوعة ومختلفة تحددها هموم حياتية وفكرية مختلفة كذلك، باختلاف الاتجاهات والحاجات العامة والخاصة. ولكن على الرغم من كل هذا الاختلاف وهذا التنوع، يمكن القول بان هذه المواقف جميعا كانت تؤدي، على العموم، الى نتيجة في العمل واحدة، اذ كانت معالجتها للتاريخ والتراث تشبه الى حد كبير عملية تنقيب عن آثار واستقراء لها في حدود أطرها التاريخية فحسب، أي بمعزل عن حاجات عصرنا الاساسية الكبرى. وفي أحسن الحالات كانت الدراسة تلبية لحاجات سطحية يغلب عليها الطابع الذاتي (بنوعيه الفردي والقومي الشوفيني)، كالمعرفة لمجرد المعرفة، او التبجح بماض مجيد تعويضا عن حاضر غير مجيد، أو ما يتصل عادة بالحاجات الفردية المباشرة كالحصول، مثلا، على شهادة دكتوراه في التاريخ او في الادب، وكالطموح، مثلا آخر، الى الظفر بمنبر الاستاذية في جامعة ما، الى غير ذلك من أغراض وهموم مماثلة. ويخيل لي، بل أكاد أعتقد، أن لم أكن مخطئا، ان دراسات المستشرقين الغربيين، وهي خالية بمعظمها مما يتصل بحياتنا العربية المعاصرة من هموم جماعية كبرى وآمال مشتركة ومطامح، قد كان لها اثر بليغ حاسم في توجيه الباحثين العرب الى مثل ما لمسناه عندهم من اغراض سطحية وهموم ذاتية. يقينا اني لا اقصد الى الطمس على جهودهم ولا أنكار ما نتج عنها من فوائد لا تنكر. كل ما أحببت ان اقوله هنا هو ان دراساتهم قد بقيت بعيدة عن ادراك المعنى العميق لتراثنا الفكري والادبي والتاريخي في حياتنا العربية الجديدة، بعيدة عن ادراك وظيفة هذا التراث.

هذا ما أحببت الوصول اليه فعلا: وظيفة التراث! وقد وعاها رئيف خوري أعمق وعي. بل كان هو اول من وعاها بكل وضوح وحزم، في ما وسع اطلاعي. ولا شك ان هذا الوعي قد كان شيئا جديدا في تاريخ حياتنا الثقافية. ومن الحق ان نجد في قوله المأثور: « النظر الى وراء جزء من النظر الى امام » تعبيرا ساطعا عن هذا الوعي الجديد الذي حمله، من بعد، على اتخاذ موقف جديد من التاريخ والتراث، موقف محي بكل ما يعنيه الاحياء من طاقة فعل وتأثير. هكذا صار لتاريخنا وتراثنا، من وجهة نظر هذا الموقف الجديد، معنى حياتي معاصر. فلقد أخرجهما هذا الموقف من مناخ البيئة المتحفية الاثرية الى شارع الحياة الضاج بالاحداث والناس. خلق لهما وظيفة ينبغي ان يؤدياها في حياة الجماهير العربية الواسعة.

لكم ندرك ضخامة هذه الوظيفة الجديدة وما تنطوي عليه من جليل المهمات، حين نذكر ان هذه الجماهير الواسعة التي تعد بعشرات الملايين، وقد شرعت طلائعها، اليوم، تخرج الى نهار الحرية والسيادة الوطنية، قد كانت حتى الامس القريب ما تنفك سجينة ليل هائل جد طويل، حسابه بالقرون لا بالسنين، وقد اضاعت في دياجيره ذاتها، أضاعت روحها وشخصيتها العربية الاصيلة تحت سنابك الطغيان العثماني ودبابات الغرب الاستعماري، فركام الجهل والفقر والمرض الذي كدسته السنابك والدبابات. فهي اليوم اذ تتطلع الى الحرية والسيادة وامتلاك الاوطان والمصير، تجد نفسها، واعية أم غير واعية، بأمس الحاجة الى استعادة ذاتها الضائعة، الى امتلاك روحها وشخصيتها العربية الحقيقية، بكل ما شحنت به خلفيتها الوجدانية العامة من قيم الانسان والحضارة. وانها لمحفوظة في قلب التاريخ في قلب التراث، هذه الشخصية، تنتظر من يكشف عنها، من يلملم انقى عناصر جوهرها التاريخي، ويبدعها من جديد في ضوء ما يتوهج به انسان هذا العصر، الاشتراكي، من قيم ومعرفة ومطامح، ثم ينشرها كالنور والعافية في عيون الجماهير العربية الواسعة ونفوسهم، اذ لا بد لهذه الجماهير، بعد كل حساب، ان تلحق بالعصر الجديد وتبدع الاشتراكية، هي ايضا، على أرضها الفنية الواسعة.

الى مثل هذا البعد المنظور، الموغل في المستقبل يتطلع الموقف الجديد الذي كان رئيف خوري اول من اتخذه من التاريخ والتراث بين ادباء العرب ومفكريهم كافة. ويقيني ان مثل هذا البعد لا بد ان يكون التمع كسهم البرق في عقله العربي الثائر منذ اعوام الثلاثينات من هذا القرن، أعني يوم كان له ان يستقبل انوار الشمس الماركسية - اللينية التي بزغت على الدنيا بالنهار الجديد منذ عام ١٩١٧ وهزمت جحافل الليل القيصري القديم الهرم على سدس الكرة الارضية. فالمادية التاريخية بمنهجها المادي الجدلي هي التي كان لها، في اعمق تحليل، ان توقظ في عقل رئيف خوري ذاك الوعي الكبير الجديد، وان تشحن روحه الثورية، الشعبية الخامة، بطاقات جديدة وبرؤية جديدة الى الحياة والانسان والمجتمع والتاريخ، بالفة الصفاء. هي التي، في نهاية المطاف، كان لها ان تضيء امام عينيه تلك العلاقة الجدلية الحية القائمة ابدا بين كل ما هو قديم وما هو جديد، بين ما كان وما سيكون، بحيث كان له، هو. بالتالي، أن يدرك بعين الموضوعية الصافية ان النظر الى وراء جزء من النظر الى امام. وان هذا الامام هو الغاية ومحط النظر.

وبعد، أتراني بهذا قد نفيت عن رئيف خوري فضلا هو من أهله؟ العكس هو الصحيح. فلا ريب عندي، آي ريب، أن أبرز ميزات أديبنا العربي الكبير، انه كان في طليعة العقول العربية النادرة التي نهلت باكرا من افكار الماركسية - اللينينية، وتمثلتها بوعي وبصيرة واستنارت بأضوائها الكشافة. وفي مجرد هذا الواقع ما يشهد بفضله الكبير على حياتنا الفكرية الجديدة، كما يشهد له بمزايا عقلية ووجدانية كانت جد نادرة في اوساطنا الادبية والفكرية، فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية. في رأس هذه المزايا العزوف التلقائي، اكاد اقول الفطري، عما كان يسود العقول يومئذ من مفاهيم مثالية ومناهج ميتافيزيقية وآلية عقيمة، ليس من طبعها ان تؤدي في آخر المطاف، الى غير نهايات خانقة مسدودة الافاق. وليس هذا، بالطبع، ما كان يتطلع اليه الاديب الشاب، ذو النزعة الواقعية الاصيلة، الثائر بداهة على الجهل والعبودية واوهام الخرافة، المحب لشعبه العربي العريق، والمرتبط به ارتباطا طوعيا، تلقائيا، ناشئا عن حبه العميق له. كان رئيف خوري، الاديب الاجتماعي باختصار، يتطلع يومئذ الى آفاق من حياة العرب، جديدة ومجهولة. من هنا بالضبط كان له ان يتبنى بسهولة وعفوية بالفة، النظرية الماركسية لتطور الكون والمجتمع، وكأنما كان ينتظرها سلفا او كان يحدس، قبل أن يتعرف اليها، بضرورة وجودها في عالم الفكر الانساني.

انتقل الى المسألة التالية المهمة جدا، وهي الرؤية الجديدة الى التاريخ والتراث كما تبدو من خلال كتابات رئيف خوري وأحاديثه. ليس يكفي طبعا أن نصفها بأنها كانت رؤية واعية متسعة الافق بالغة العمق والصفاء، وبأنها لم تكن لتضيع في فوضى التراكم الهائل المشوش الذي يسود تاريخنا وتراثنا. ينبغي القول لماذا كانت كذلك. وما هو من الاسرار على كل حال. يبدو لي، وهو الواقع على كل حال، انها كانت مجهزة ببوصلة هادية - ان جاز مثل هذا التعبير - تتيح لها التقييم الموضوعي الحق للاحداث والرجال وأعمالهم، وأراها تتعين على وجه الدقة، بالنظر دائما الى خط التطور الحضاري الانساني العام الذي يرسمه، في الاساس الاعمق، تطور الاقتصاد والعمل المنتج. ينبغي أن أضيف الى هذا المعيار العلمي الثمين المستخلص من نظرية المادية التاريخية، جهاز المعرفة المتمثل بقوانين الحركة وهي المعروفة باسم المادية الجدلية. ومن طبعها أن تجنب النظر الباحث أخطار الوقوع فيما يسمى بالانتقائية والنظرة الجامدة ذات الجانب الواحد.

- التتمة على الصفحة ٧٣ -

رئيف خوري مفكراً أديباً

بقلم الدكتور ميشال عاصي

منذ ان غاب رئيف عن العين غيبة الابد ، وصورته مفكرا وناقدا وكاتبا مبدعا ... تزداد في النفس تألقا . لكأنما حضوره على البعد هو الشاهد ، في ملحمة الصراع بين الموت والحياة ، على انتصار الانسان في النهاية بسلاح الفن والفكر ، وهو الدليل أيضا على ان رئيفا باق بيننا بقاء أدبه وفكره .

ولعلني ـ وأنا واحد ممن أحبوا رئيفا الانسان والكلمة معا ، ويعيشون بعد رحيله أجواء حضوره الادبي غالية حميمة ملونة بألوان الاغراض التي جال فيها قلمه ـ اكثر ما أكون صدقا مع نفسي ، ووفاء لذكراه ، اذ أعترف بأن أبرز حضور لرئيف خوري هو ، عندي ، في اطار المهنة التي أمارس ، حضور المعلم ، والمفكر الادبي . فلكم نحن ، أبناء هذا الجيل من المعلمين وأهل الفكر الادبي في لبنان خاصة ، مدينون له معلما طليعيا وباحثا نظريا بكثير من مفاهيمنا الراهنة للفن والادب والحياة ، ولكم نحن مدينون لقلمه في هذا المجال الرحب العسير بكثير من شعل الضوء التي تنير سبلنا في كل يوم .

لرئيف آراء نظرية في الادب متفرقة هنا وهناك في مقالاته ، وأحاديثه ، ونقده ، وبعضها مجموع في مؤلفات وأبحاث ، وهي على العموم من السعة والغنى والتجديد بحيث يصح ان تؤخذ أساسا للفكر الادبي الملتزم ، ومنطلقا للابداع الانضوائي في المرحلة الاولى من حياة الانفة وانية في لبنان وسواه من البلدان العربية .

وقبل أن نحاول الغوص على نظراته التفصيلية وهي جديرة بالتتبع والتقييم في هذا الظرف ، وتستحق عناية خاصة ودراسة مسهبة مستقلة ، يحسن بنا الآن ان نلم بالمفهوم العام الذي استند اليه رئيف كقاعدة لعمله الادبي ولرؤياه النظرية الشاملة في الفن والادب .

لقد رفض رئيف بشدة وعنف نظرية « الفن للفن » ، تلك التي ترى الى الصنيع الفني مجرد صياغة تعبيرية لا يتعدى تأثيرها حدود الاحساس الجمالي بالشكل دونما التفات الى جوهره الانساني . وكان من حيث رحابة التجربة والعمق في طليعة من آمنوا بانضوائية الفن ودعوا الى انفتاحه على الحياة والتزام القضايا المصيرية الكبرى على اختلافها في كل عصر .

وايمان رئيف بانضوائية الفن والادب ، ورفضه جميع المفاهيم والاصول المغايرة لها نظرا وتطبيقا يرتكزان عنده الى أصول الفلسفة الماركسية التي سار على هديها في مختلف نشاطاته القلمية ونضاله السياسي والاجتماعي .

وفحوى الانضوائية من وجهة مفهومه الماركسي ظاهر في جميع ما كتب وناقش حول هذا الموضوع لا سيما في المناظرة الشهيرة التي قامت بينه وبين طه حسين في قصر الاونيسكو ببيروت ربيع عام ١٩٥٥ بدعوة من هيئة المحاضرات في كلية المقاصد الاسلامية ، وقد نشرت « الآداب » نصها الكامل يومئذ . وخلاصة ما جاء على لسانه في هذا الصدد : « ان الادب انفتاح على الحياة المتحركة المتجددة أبدا . تتجدد بأن يموت فيها ما هرم ونفسخ وانحل ، وبأن يثبت فيها ما ولد وأقبل على القوة والشباب . فالاديب بالتالي لا ينقل نسخة عن العالم الواقعي ، وليس هو محض وصاف لما يعرض عليه الواقع من شكول ونماذج ، أو محض وصاف للالفاظ ، وانما هو يميز في ما يصف ويصور ، ظواهر الحياة التي تنمو من ظواهرها التي تذبل وتضمحل ، لا يقصد من وراء ذلك الى لذة وترفيه أو عزاء وانتشاء ، أو مباهاة ببيان ، وانما يقصد الى أن يدخل في وعي الجماهير أي هي الظواهر النامية في الحياة حولهم وأي هي الظواهر الصائرة الى ذبول واضمحلال ، بغية ان يوجههم الى تغيير الحياة التغيير الذي تتحمله» وهكذا فان الادب والفن في نظره « فعل خلق فردي ولكن بمادة اجتماعية لا ميتافيزيقية ، مادة تنبع من الحياة الشعبية المتحركة المتجددة لتجعلها أعمق وعيا في تحركها وتجددها » .

فانطلاقا من هذا المفهوم العام تبرز في التفكير الادبي عند رئيف أهمية ارتباط الادب بالجماهير الشعبية من حيث ان الادب يستقي من حياتها ويختار مواضيع عمله وعناصره ، ومن حيث ان الجماهير هي التي تتجسد فيها الافكار والصور والموحيات فتتحول هذه ، بفضل تجسدها في الجماهير ، من طاقات فنية جمالية « لا تؤثر اثرا بنفسها » ، كما يقول ، الى طاقات فعلية بها تتحرك الحياة عندئذ ويتطور التاريخ .

ومن هنا ، انطلاقا من هذا المفهوم أيضا ، كان يرى ان الاديب أو الفنان حتى يضطلع بمسؤولية عمله ، ويعي أبعاده ومنطلقاته عبر حركة الحياة في مدها النامي وجزرها المتقهقر يجب أن يكون ذا نظرة واعية على كثير من الاتساع والشمول الى الكون والمجتمع ، « ان يكون بارادة واعية منه فيلسوفا ، ولا سيما اجتماعيا » ، على حد تعبيره ، « يصدر عن فلسفة ، يدرك بها ان الحياة متحركة متجددة ... ويدرك اتجاه الحياة في حركتها وتجددها ، ويدرك ان ينبوع القوة في هذه الحركة والتجدد انما هو الشعب » .

وعلى هذا الاساس من النظرة الشاملة الى الفن والحياة يتضح لنا ايضا ان الفن في نظره ليس انعكاسا للحياة فقط ، ولا هو عامل موجه لها فحسب ، بل هو الاثنان معا في حركة جدلية مطردة من كلا الجانبين .

هذه الجدلية المطردة بين الفن والحياة تستتبع حتما من جانب الفن العظيم اهتماما عظيما بالقضايا الاساسية في كل عصر . وبعدما حدد منطلق الفن وغايته ودوره في الحياة أخذا وعطاء عمد الى تحديد قضايا الحياة في عصرنا الحاضر فاذا هي : « قضايا الاستقلال الوطني ، والحرية الديمقراطية ، والعدالة الاجتماعية ، والسلم بين الشعوب » ، وهي أبرز ما يجب على الفن أن يستلهمها ، وأن يسهم بالتالي في انماء حركتها الصاعدة والعمل من اجل القضاء على ما هو صائر منها الى الزوال والاضمحلال .

ولعل هذه اللوحة الموجزة عن النظرة الاساسية للفن والادب عند رئيف خوري لا تكتمل خطوطها البارزة ان لم نورد خلاصة رأيه في جمالية الشكل والتعبير . فكثيرا ما تهيأ لاخصام الانضوائية أن يتهموا أصحابها باغفال العنصر الفني في الاداء ، وهو عماد نظرة أهل « الفن للفن » ومنطلقها وغايتها الاولى والاخيرة عندهم . والحق ان رئيفا قد أعار هذه المسألة جانبا كبيرا من الاهتمام ، ووقف منها الموقف الصريح الحاسم اذ شدد على « ان الادب ليس هو شكله فقط » كما انه ليس مضمونه فحسب « بل شكله ومضمونه متحدين متوافقين » . ولم يكن له بد من أن يقف هذا الموقف ، فهو من ناحية ابن الجدلية الماركسية ، وهو من ناحية أخرى وريث الجمالية العربية واهتمامها المأثور بالشكل ، وهو الى ذلك الاديب المبدع ، والفنان

.... ←

رئيف خوري : كاتباً سياسياً واجتماعياً

بقلم الدكتور ميشال سليمان

صاحب الكلمة المدرسة ، رئيف خوري ، كلما انطرحت على بساط البحث مشكلة سياسية ، أو معضلة اجتماعية ، مما يتعلق بلبنان والعرب والعالم أجمع ، طلع اسمه كأنصع ما يكون الالق النافذ في مطاوي الدياجير ، متسربلا بالحكمة ، رافلا بأبراد الادراك النير والرأي البصير .

ولا بدع ، فرئيف خوري ، الاديب الموسوعي ، أفنى عمره القصير في معترك الحياة الصخاب ، خائضا غمار الملمات الاجتماعية . ولم يطف على السطح ، ولم يداج ، ولم يوارب ، ولم تفعل فيه سوءة الانتهازية ، شأن الكثرة الكاثرة ممن يتعاطون السياسة على أنها لعبة تلعب ، ومطية الى أغراض قد تتعدى الآنية الى موعد قابل مع الحياة مما يسمونه بالتكتيك .

فالاديب الحر ، والمفكر الانساني الثائر الرائد ، الذي هو رئيف خوري ، نزه نفسه منذ البدء عن الدرج في مهامه العفوية ، ومتاهات الغيبية ، ومفاوز الارتجال . ونفض عن كاهل فكره ما يؤدي به ، في مواقف وأحايين ، شأن الكثيرين ، الى وجوب التفكير بعقل غيره ، أو استيراد الحلول الجاهزة ، لكيلا يجشم نفسه مشقة الكدح المجد ، في سبيل الوصول الى فك الارصاد ، واستخلاص المنهج المبتغى والواجب الاتباع ، من خلال تناقضات الواقع ، عبر عملية التوفيق بينها وبين ما يرتجيه .

ومن هذه الزاوية بالـذات ، كان رئيف خوري بحق حامل هم اجتماعي كبير ، في كل ما دبجته يراعته من بحوث وخطب وقصائد وكتب ، تنتظم جميعا هم الانسان في أن يسعد ويعيش ، ويملك زمام مصيره بكلتا يديه ... همه في أن يعبر عن خلجات قلبه بحرية تامة ، وان أغضب قوله السلطان ، أصيلا كان أم دخيلا ... همه أن يتمرد ويثور ، ساعة يجد أن التمرد والثورة شرطان من شروط بقائه ، واستمرار بقائه ، وان عقدت الهيئة الاجتماعية التي ينضوي اليها ، حبل حياته بسيف حرمانه ونطع جبروتها .

ومن جراء هذه المسؤولية التي ألزم بها نفسه ، كانت تلك المواقف الارادية التي وقفها رئيف خوري من الانسان ، ومن قضاياه الوجودية ، مدافعا عن القيم ، عن خزانها الاعظم : الشعب ، تحدوه الارادة الايجابية للحياة المتحركة المتطورة ، المتقدمة ، برغم جميع الذين يعيشون على هوامشها ، ويخلقون الفرف من وجوب التمتع بجمالاتها وخيراتها .

ولهذا ، عمد رئيف خوري في مواقفه السياسية والاجتماعية الى عدم تجريد الانسان من علاقاته ، زمانا ومكانا ، والى عدم تجريد التاريخ ، بالتالي ، من مقوماته ، ونكران قوانينه ، لكي لا يشوه أفكار الناس وأعمالهم . ثم أجهد فكـره لكي يثبت ان للحياة قوانينها الاجتماعية العامة ايضا ، تلك التي تقلبت فارتقفت بها من طور الى أطوار ، حتى بدت كأنها تطور تدريجي لقيمة وحرية الانسان ، كارتقاء نحو نظام اجتماعي يجعل منه كائنا منسجما مع انسانيته . كما انه ، بالتالي ، عمل لكي يثبت أيضا ان هذه القوانين ، لا يمكن أن تفعل فعلها الواعي بغير انصبابها في المجرى الذي يحفره لها الناس . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير في قصته القصيرة « القرية » ، تلك التي روى فيها قصة جماعة تتعاون لتدحرج الصخور ، وتشق الطرق ليعبر العابرون الى حيث تقودهم أساليب ارتزاقهم اليومية المعطاء .

ومن خلال هذا الادراك العميق للعلاقات الاجتماعية ، والنابع من تجربة ذاتية ، ومن الرغبة في وجوب جعلها تولد هيئة عامة مسؤولة ، يصبح فيها التطور الحر لكل فرد شرطا لحرية تطور المجموع ، كان علم السياسة ، أو « سياسة الاجتماع » على حد تعبير رئيف خوري ، وقد شاءها ادراكا ، وفكرا ، ونهجا ، مستندة جميعا الى واقع ، وغير منفصلة عن العمل والنشاط الاجتماعي العام . فهو يقول في دراسة له بعنوان « بين سياسة الواقع ، وسياسة المبدأ » : « ان كل سياسة لا تستند الى فهم الواقع واعارته الاهتمام الضروري ، هي سياسة قاصرة أو خائبة . لكننا قلنا : فهم الواقع ، ولم نقل الواقع فقط . وفهم الواقع معناه بالدرجة الاولى أن نفهم هذا الواقع ليس أزليا ولا أبديا ، ولكنه خاضع للتحول والتغير . فمن فهم الواقع مثلا أن ناخذ بعين الاعتبار أن الاستعمار موجود . لكن من فهم الواقع أيضا أن ندرك

المبصر الذي أدرك بوعي كلي « ان الفن انما هو بالنتيجة صور وأفكار تؤدى في رونق وجمال » وان الطاقة الملهمة في الفن ليست كامنة في المحتوى وحده ، ولا في الشكل وحده ، بل في كليهما معا . ولقد أوصى في « الدراسة الادبية » (ص ١٤) « بتوفية كل عنصر حقه من العناية مع الملاءمة بينهما » .

هذا ولرئيف في مجال الفكر الادبي اراء تفصيلية قيمة يضيق بنا المقام عن اثباتها ، تطرق فيها باسهاب الى البحث في عناصر المبنى ومادته وقوالبهـا وطرق الاداء ، وفي الانواع الادبية والمواضيع والاساليب ، وفي التاريخ الادبي والدراسة والنقد ، وفي الجمالية أحيانا . لم يفته فيها جميعا التماسك والانسجام مع فكرة عامة ، ومع نظرته الاساسيـة الى الفن والادب ، وهي غنية دائما بضروب من الاستشراف والاجتهاد في مسائل كثيرة يحوجنا فيها النظر وتعوزنا الاصول والمفاهيم . ومن هنا كان رئيف يطل علينا في جميع مراحل حياته مفكرا أدبيا من طراز حديث خاص ، ملأ جزءا كبيرا من فـراغ لا يزال الفكر النظري في الادب والفن يعاني منـه حتى اليوم لربط ما انقطع بين تراثنا الاكاديمي الجمالي وبين الحياة الفنية الابداعية المتطورة . ولقد لعب رئيف ههنا في هذا الميدان دورا بارزا جدا اذ جهد في استخلاص النظريات الجديدة وصوغها مفاهيم يستلحق بها الفكر الادبي عندنا ما فاته من مواكبة مد الحياة الادبية والفنية في لبنان وفي مختلف البلدان العربية والعالم .

ولئن فات رئيفا أن يبني في الجمالية العربية بناء شاهقا ، وهو أمر مستحيل في مرحلة نفتقر فيها الى أولى المعطيات المبدئية والمادية لهذا اللون من التفكير الفلسفي الشامل ، فلم يفته أن يكون طليعة من جاهدوا بدأب ، وجرأة ، ووعي ، في سبيل تنقية الفكر الادبي من المفاهيم الجامدة ، واغنائه بالاصول النظرية ليماشي ركب حياتنا الفنية ويفاعلها اخذا وعطاء فتعلو فوقهـا الشوامخ ، ولرئيف في كليهما ، في النظر الادبي وفي الابداع ، أعلى المشارف وأبهى السمات واطيب الذكر .

ميشال عاصي

رئيف خوري والقصة

بقلم الدكتور احسان عباس

تمثل الاعوام الخمسة بين ١٩٤٦ - ١٩٥٠ فورة النشاط القصصي وحدته وحدود أبعاده لدى رئيف ، ففيها أصدر على التوالي كتبه الاربعة « مجوسي في الجنة » و « صحون ملونة » و « ديك الجن » و « الحب أقوى » . ويستطيع دارس تلك الحقبة بعد الحرب الثانية أن يربط بين هذه الصورة والظروف الاجتماعية التي حفزت اليها ، أما في هذا المقام فيكفي أن يقال انها كانت صورة للبحث الدائب عن غذاء أدبي ، ولهذا نفسه ولقصر المدة التي استغرقها ذلك النشاط فقد تحددت طبيعة المحاولة وخطوطها العريضة .

ويبدو أن السؤال الهام الذي طرحه رئيف على نفسه - حين طمح بعينيه الى المجال القصصي - هو : من أين يستمد القاص مادته؟ ولم يطل به التفكير فقد أجاب على ذلك السؤال عمليا في مجموعة « مجوسي في الجنة » حين اختار سبعة مواقف مما قرأه في التراث العربي وصاغها من جديد ، ومنحها جواً قصصيا وسردا ممتعا . ثم أجاب على ذلك السؤال نفسه في مقدمة « صحون ملونة » حين قال : « يقع الناظر في ثنايا حقول الادب العربي القديم على حصاد موفور من القصص المحكية والوقائع المروية ... أما من حيث الغرض والغاية فبعض هذه القصص والوقائع انما أريدت به التحلية والفكاهة ، وبعضها الاخر انما قصدت به العبرة وتغذية الفطنة ... ومن هنا كانت - وما زالت - تحدثني نفسي وأنا أقرأ هذه القصص والوقائع انها تنطوي على احتمالات فنية طيبة ، وانها أشبه بحجارة المقلع ، تصلح مادة لبناء فني يجمع بين الجمال والمنفعة » .

اهتدى رئيف - اذن - الى المصدر ، أو المقلع الذي يستمد منه المادة الاولية ، فكانت خطته هي وضع خمر عتيقة في آنية جديدة ، أو بعث وقدة الجدة في عروق طال خمودها - كانت الثقافة لا تجربة الحياة العملية المعاصرة هي سبيله الى مزاولة القصص . ولست أسأل هنا أيهما أصعب من الناحية الفنية وأيهما أجدر ببذل الجهد وأيهما أبلغ قيمة ، اذ مهما تكن الاجوبة على هذه الاسئلة فانها يجب ألا تنسينا ان موقف رئيف يدل على ايمان بالتراث العربي وعلى صلاحية جوانب منه للحياة المتجددة ، وعلى نزوع رئيف الى وصل الحاضر بالماضي

ويتضح من مقدمته التي اقتبسنا بعض عباراتها ان القصص التي لفتت انتباهه كانت ترمي الى احدى غايتين : اما التحلية والفكاهة واما العبرة وتغذية الفطنة ، وفي ظني انه في كتابيه الاولين لم يحاول أن يخرج بتلك القصص عن احدى هاتين الغايتين ، وان العشمة بين نوعين من تلك الحكايات ظلت واضحة . غير انه استطاع في القصص التي تستمد منها العبـرة أن يعرض أفكارا معاصرة - ولو بطريق ايحائي - وساعده على ذلك ميله الطبيعي وقيام تلك القصص نفسها على نزعة انسانية عامة . أما القصص ذات الغاية الفكاهية فلم يستطع أن يضمنها شيئا زائدا على الاضحاك . وعلى الجملة يمكن أن يقال ان رئيفا لم يحاول عامداً - في هذا الدور المبكر - أن يعرض قضايا أو أفكارا معاصرة فكانت محاولاته الاولى تغييرا للشكل وتعميقا للغايتين الاخلاقية والفكاهية عن طريق ذلك التغيير نفسه . وفي هذا أيضا يتفاوت جانبا المحاولة ، فان الجـد الغائي يسيطر على رئيف فيضعف عنده عنصر السخرية ، كما أن الالتزام بروح تلك الاقاصيص وواقعها - حسبما أوردها القدماء - قد أضعف لديه عنصر النقد الداخلي .

لقد فرض ذلك « المقلع » على رئيف ازدواجا في الغاية - كما قدمت - ، ومنذ البداية أوقعه أيضا في حيرة ازاء الشكل الصالح للعرض : هل يقدم مادته على نحو سردي قريب الشبه من القصة القصيرة أو يضعه في شكل حواري ؟ ان كل من قرأ نماذج من الحكايات التي تزخر بها الكتب العربية يلفته كثرة ما فيها من حوار . وذلك هو ما أغرى (رئيف) بأن يؤثر شكل المشهد المسرحي في ابراز اثني عشر موقفا ضمنها مجموعة « صحون ملونة » وكانت بواكير هذه المحاولة قد ظهرت في مجموعة « مجوسي في الجنة » التي غلب على حكاياتها السرد القصصي . ولم يقصد رئيف الى كتابة مسرحيته بالمعنى الفني ، وانما كانت غايته اظهار مشاهد حوارية ذات طابع « ممسرح » يسهل اخراجها في البيئات المدرسية لقلة ما تقتضيه من أعباء ، وهي وسيلة تثقيفية ناجعة لانها تقرب الجو التاريخي الى الطلاب وترغبهم في الادب القديم ، وتمكنهم من احكام النطق الصحيح بلغتهم حين يقرأون أو يمثلون .

لست أقول ان الغاية المدرسية تقلل من درجة المتعة التي يجدها أي قارىء لتلك المشاهد الحوارية ، فالحق أن رئيف قد استطاع أن يكسبها من خلال الحوار والتوجيهات المسرحية وبعض المفارقات الضاحكة ، حيوية كافية ، كما استطاع في مشهدين هما : « صحون ملونة » و « التابوت يشهد » أن يبرز اهتماما خاصا بشخصية المرأة ، وهو عنصر هام كان يوجهه في اختياره لبعض الحكايات دون بعضها الاخر . ففي المشهد الاول أظهر صورة المرأة العفيفة الوفية المخلصة التي تحتقر جميع المغريات من أجل ان تظل نقية وفية لزوجها ، وصور في المشهد الثاني المرأة التي يلهمها ذكاؤها الطبيعي طريقة تتخطى بها الاشراك والحبائل المنصوبة لاقتناصها ، وفي كلتا القصتين يتلمس رئيف ما هو أبعد من الدلالات الظاهرة والموضوع العام حتى ليمكننا أن نقول انه في هاتين القصتين (أو المشهدين) أخذ يومىء الى بعض القضايا والمشكلات المعاصرة . ذلك ان شاهنزان بطلة القصة الاولى انما هي زوجة رجل بستاني ، فهي وزوجها من الطبقة الفقيرة الكادحة ، ويسيطر على حياتهما حب نقي متبادل ، فأخلاقيتها في رفض الملك نفسه وما يقدمه من هدايا مغرية هي أخلاقية تلك الطبقة في حفاظها وترفعها . وفي القصة الثانية لم يكن رئيف يهدف الى ابراز ذكاء « جميلة » بقدر ما كان يرمي الى فضح الفساد المستشري في طبقات الموظفين الكبار ، فجميلة التي يموت زوجها لا تستطيع أن تصل الى حقها الطبيعي لدى الحاجب والقاضي الا اذا دفعت ثمنا جارحا لاحساسها وخلقها ، كذلك حققت هذه القصة لرئيف أن يتهكم بالمظهر النسكي الخادع ، وهو موضـوع كان يلح دائما على خاطره فيرتاح اذا هو تذكر أمثولة : « القبرة والفخ » - تلك الامثولة التي ختم بها مشهد « التابوت يشهد » كما أفردها بمنظر حواري مستقل .

ولقد استمد رئيف قصة « التابوت يشهد » من كتاب « المحاسن والاضداد » المنسوب للجاحظ ، فالمقارنة بين التحوير الذي أجراه والقصة الاصيلة يطلعنا على جهده الذاتي وطريقته ونظرته الفنية . وخلاصة القصة القديمة ان امرأة مات زوجها بعد أن أودع ألف دينار أمانة عند صديق له ناسك - دون أن يطلع زوجته - وطلب الى الناسك أن يدفع ذلك المال اليها ، ويشتد الفقر بالزوجة فترسل خاتمها للبيع مع خادم لها ، فيلتقي الناسك بالخادم ويخبرها ان للزوجة ألف دينار في ذمته ، وان عليها أن تحضر الى بيته لتسلم المبلغ ، ويصرفها عن بيع الخاتم . فاذا حضرت المرأة في اليوم التالي افتتن الناسك بجمالها

وأبى أن يسلمها المال الا اذا استجابت لرغبته ، فتشكوه للشرطي والحاجب والقاضي على التوالي ، وفي كل مره يكون جمالها مصدر عنائها وعدم انصافها ، وعندئذ تظهر الرغبة في لقاء كل واحد من هؤلاء الرجال الاربعة في بيتها ، وتضرب لهم مواعيد متقاربة ، في يوم واحد ، ثم تصنع تابوتا من ثلاث طبقات . وتستقبل الطامعين واحدا اثر اخر ، وكلما دق الباب واحد خبأت من كان يجالسها في احدى طبقات التابوت ، حتى اذا حضر الناسك رابعا ، سمعه الثلاثة المسجونون وهو يقر بأن الامانة في حوزته ومقدارها ألف دينار ، فترفع الامر للامير ، مستشهدة بالتابوت ـ وبذلك تحصل على حقها .

تناول رئيف هذه القصة فخلق فيها شخصية كانت ذات اثر بعيد في تطوير المشهد هي شخصية أم فضل خادم جميلة ، وجعل جميلة تقص عليها ما حدث لها مع الناسك ، ومنحها القدرة على التعليق الى جانب قدرتها على الحركة في خدمة سيدتها وتنفيذ مطالبها ، وحذف من القصة شخصية الشرطي اكتفاء بمشهدين في رحاب ولاة الامر بدلا من ثلاثة ، ثم أدخل في القصة شخصية النجار ، المحترف البسيط الذي يصنع موقفه مفارقة عميقة لمواقف موظفي الدولة ، فهو ابن الطبقة الكادحة ـ مخلص وفي ، يحب جميلة في صمت ويريدها زوجة له ، ويصنع لها التابوت الذي وصفته له دون أن يدرك مدى خطتها . كذلك أثار رئيف في القصة زوايا فكاهية مستمدة من حوار الحمالين وهم ينقلون التابوت الى البيت ، وقدم تفصيلات مسرحية لدى حضور كل من الحاجب والقاضي والناسك الى بيت جميلة ، ورفع من درجة المفاجأة حين جعل الامير يغضب على جميلة ويتهمها بالسوء لان مخبر السر أبلغه ان الحاجب والقاضي عندها . وكل هذه العناصر وغيرها أخرجت القصة القديمة عن اطارها الساذج المقتضب وطبيعتها المبسطة ومنحتها لونا فنيا جميلا مليئا بالتنويع والتشويق . غير أن رئيف أفسد الخاتمة ، فقد انتهى المشهد نهاية طبيعية بقول الامير : « اذن ننصرف . قم أيها الحاجب وأنت أيها القاضي ، وانت أيها الناسك فلنا حساب » . ولكن رئيف أصر على أن يقدم للنظارة عبرة ختامية ـ دون داع لذلك ـ فجعل جميلة تستوقف الامير لتقص عليه قصة « القبرة والفخ » . وفي ظني ان رئيف كانت تعييه كلمة الختام والشعور بالارتياح للنهاية الطبيعية ، وهذا ما سنجده في قصتيه « ديك الجن » و « الحب أقوى » .

فاذا استثنينا هذه القصة وقصة « صحون ملونة » وجدنا المشاهد المسرحية الاخرى عنده لا تتعدى تطوير حيلة ساذجة أو نكتة أو عبث بريء ، مما يمثل عنصر التسلية . هل نقول ان مصادر رئيف لم تسعفه على غير ذلك ؟ لعله لهذا السبب ـ وأسباب اخرى ـ انصرف عن الشكل الحواري مؤقتا ، بل انصرف عن شكل القصة القصيرة الذي آثره في البداية وتوجه نحو القصة الطويلة ، كأنما كان يجرب قلمه في الاشكال الادبية المختلفة .

ومع اتجاهه الى القصة الطويلة لم يفارق « المقلع » القديم وانما استمد منه قصتيه : « ديك الجن » (شباط ١٩٤٨) و « الحب أقوى » (٨ كانون الثاني ١٩٥٠) وكان هذا التحول الى القصة الطويلة محفوفا بالخطر : أولا لان (رئيف) لم يسر في تجاربه الاولى الى درجة الاتقان وثانيا لان مواد البناء الجديد كثيرة وطبيعة المبنى مختلفة ، فالحبكة التي تنتظم شكلا طويلا ـ كالقصة الطويلة والمسرحية ـ عسيرة شاقة لانها اذا اختلت في موضع ما أثر اختلالها ذاك في البناء كله ، وقد تعود رئيف فيما مضى أن يستغل حبكة صغيرة في بعض المشاهد المسرحية أو أن يتجاوز حبكة القصة القصيرة ذات الشكل المعجز بدقته الى الشكل السردي الحكائي ، فاذا به فجأة يواجه القصة الطويلة ، ويواجه من القصة الطويلة قصة حياة انسان ، وتحويل حياة فرد الى قصة فيه مشقة أخرى لان القصة قد تتحول بين يدي كاتبها الى كتاب في السيرة ، ولذلك كان اختيار رئيف لقصته « ديك الجن » عجيبا ، وقد يخف العجب قليلا اذا ذكرنا انه كان اسهاما من رئيف في سلسلة « أشهر العشاق » التي كانت تنشرها دار المكشوف يومئذ ، ومع ذلك فان هذا لا يمنعنا من أن نقول انه كان اختيارا غير موفق ، فقد لحظنا من قبل عند رئيف ميلا الى الجد في الغاية واعلاء الجانب الاخلاقي وكسب النصر للفضيلة ، وشخصية ديك الجن تطعن كل ذلك في الصميم ، ولا بد لمن يكتب عنه من أن يتورط في اعتذارات كثيرة : فيعتذر عن تبطله وانهماكه في الخمر وعن شعوبيته وعن شذوذه . ومن كان مثل رئيف لا يحب أن يغير ما يعتقده تاريخا ، فان اعتذاره عن تلك النقائص وغيرها سيظل يفضح البون الفاصل بينه وبين بطل قصته ، ولهذا تجد رئيف حائرا في أمره لانه يحس بالتناقض بين هذا البطل وبين ما يريده هو في الحياة ، حتى لقد ختم قصته بالتساؤل عن حقيقة الشذوذ ومداه لدى ديك الجن ، ولم يستطع أن يسقط ذلك من قصته جملة ، وفي تضاعيف قصته أعلن براءته من بطلها حين جعله يقول : « ان الطرق كلها تقود الى غير غاية » .

اذن ماذا كان ديك الجن يمثل لديه ؟ حاول رئيف أن يجعل منه مفكرا حرا ثائرا عزيز النفس لا يتبذل شعره على أعتاب الامراء والملوك ، وكلتا الحقيقتين مرتا في القصة كالخبر العابر ، لان شخصية ديك الجن لم تتطور في القصة ، ولان مذكراته ـ وهي سبيل حسن لاظهار ذلك التطور ـ قد وقفت عند الخطرات الموجزة . اذن فان ديك الجن لا يمثل في الحقيقة الا قصة حب عنيف انتهت بقتل المحبوبة وبالندم ، وكل ما عدا ذلك فهو اضافات أخلت بالقصة الاصلية بدلا من أن تسددها . والعقدة في ذلك الحب هي الغيرة العمياء ـ قصة أخرى كقصة عطيل كان من الممكن أن يعالجها رئيف في مسرحيته ، بدلا من أن يتحدث عن تاريخ انسان ـ ولكنه كان يتهيب الشكل المسرحي المعقد ، ولعله كان يشعر في قرارة نفسه ان العقدة ستفضح جهده أمام عطيل ، ولهذا استسلم الى الحواشي وأفاض في الوصف

شعر

من منشورات دار الاداب

		ف . ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٢٥٠
● وجدتها	لفدوى طوفان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	« «	٣٠٠
● اعطنا حبا	« «	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

الخارجي لكي يفرش تحت أقدام قصته فراشا رومنطيقيا مستمدا من الطبيعة والمكان ، وأعيته الخاتمة مرة أخرى وكان في مقدوره ان يستغني عن سرد أشعار ديك الجن ويقف عند ذروة المأساة والشاعر جالس يشرب من كأس قد مزج خزفها برفات ضحيته . وهكذا كانت الامانة لبعض الشذرات التاريخية سببا في اخفاق القصة .

وكأنما أحس رئيف ان « ديك الجن » قصة عشق عنيف يجد المرء فيها تسليته لازجاء الفراغ ، دون أن تكون متعتها ناجمة عن اتقان فني ، فاتجه بحدة وحيوية جديدة في قصة « الحب أقوى » الى الحادثة ، واختار من قصص العرب قصة حب نشأت في ديار بني عذرة بين سعاد ونصر ، وصور كيف حاول الوالي الاموي على المدينة (واسمه ابن أم الحكم) أن يطلقها من زوجها ليتخذها لنفسه زوجة ، فيشكوه زوجها الى الخليفة معاوية ، حيث يجد الانصاف اللائق بمكانة الخليفة وروح العدالة . وقد اتقن رئيف في هذه القصة خلق الجو الصالح لحركة الاشخاص ، وعاد من جديد الى غائيته ليثبت فضل الاخلاص وجمال الصداقة والكرم ولينتقد فساد رجال الحكم ، وسوى في قصته بين قدرة الرجل والمرأة على الصبر والوفاء والحب والتضحية ، الا انه من خلال هذا الحرص على ابراز تلك العناصر نسي حقيقتين هامتين : أولاهما انه أمعن في تصوير الخسةوالوصولية والدناءة في شخص أم سعاد وتجاوز في كل ذلك الحد الواقعي الذي قد تمثله أم ، وصورها وقد مات ضميرها وضاعت بصيرتها فلا ترى الا بريق الذهب . والحقيقة الثانية انه ألقى ظلالا من الشك علىعدالة الخليفة حين لم يرفعه كثيرا عن مستوى الوالي المنافق ابن أم الحكم ، وجعل عدله ضربا من حب السمعة وبذلك أساء الى قصته أكثر مما أساء الى معاوية . والخطأ هنا هو اللجوء الى التعميم بحيث ينتقل المرء من ايمانه بأن الفساد موجود في رجال الدولة الى الايمان بأن كل من تلبس بسبب من الدولة فهو فاسد . ومما زاد في اخفاقالقصة - من هذه الناحية - ان القاص اختار للمفارقة ايراد قصة « أرينب بنت اسحق » وهي قصة تصيب شخصية معاوية وأساليبه فيالصميم، وتنتقص من روعة النهاية التي يتوقعها المرء لقصة يعتمد حلها على الشهامة والعدالة والذكاء . ومرة ثالثة وقف رئيف عاجزا عن اختيار الخاتمة الملائمة ، ورغم ذلك فان قصة « الحب أقوى » - بين قصصه التاريخية - اكثرها دلالة على روحه ومقدرته القصصية وأحفلها بالعناصر اللازمة للقصة الطويلة .

أترى رئيف استنفد غايته من القصص الطويلة أو ان القصة التاريخية الطويلة فقدت لألاءها بعد النكبة وبعد التحولات الاخرى التي جاءت في أعقابها وأهمها ثورة يوليو ١٩٥٢ ؟ لقد كف رئيف - فيما يبدو - عن كتابة القصة الطويلة ، ونسي ديك الجن سادرا في مباذله ولاغائيته ، وأصاخ الى صوت الحاضر : الطريق والغاية شيئان متلازمان ، وبدلا من أن يتلمس المشكلات المعاصرة في ثنايا القديم تلمسا وايماء ، تناول بعض تلك المشكلات مباشرة ودون مواربة ، فتحدث عن تعمير الارض في حوارية بعنوان : « أحيا وطنا من أحيا أرضا » (الاداب - تموز ١٩٥٣) وتحدث عن التلازم بين الغاية والطريق في قصة بهذا العنوان (الاداب - شباط ١٩٥٤) واذا كانت الحوارية لا تزال تتعلق بشيء من أهداب الماضي فان قصة « الغاية والطريق » حديثة بمضمونها وشكلها ، فهي أول قصة قصيرة - بالمعنى الفني - حاولها رئيف فيما أعلم ، اذ ليس فيما كتبه من قبل ما يستحق اسمالاقصوصة الفنية الا « مجوسي في الجنة » في بعض سماتها لا فيها جميعا .

وتقص « الغاية والطريق » قصة (فائق) الذي اشتغل محاسبا في شركة بترول بثلاثين ليرة في الشهر ، وهنالك تعرف اليه واحد من زملائه ممن يعدون أنفسهم « مصلحي البشرية » وزين له السرقة من مال الشركة لان الشركة نفسها تسرق ، واقتنع فائق بمنطق زميله وكانت النتيجة طرده من العمل واستسلامه الى الخمر ، حتى تعرف اليه (مسعود) ذات يوم وقال له في ما قال : « أننا نحن اذا سرقنا الشركة عودنا أنفسنا اللصوصية ، وبذلك بتنا لا نصلح لبناء نظام لا سرقة فيه ، قائم على العدالة والحرية والسعادة والسلم للجميع... انك لا تستطيع أن تشيد بيتا نظيفا بمواد قذرة » . وهكذا أثبت مسعود ان الوصول الى الغاية السليمة لا بد من أن يتم عن طريق سليمة أيضا . تلك هي فلسفة رئيف - فيما أعتقد - أوجزها في هذه الاقصوصة ، ولذلك جاءت تتويجا صريحا لما كان يومىء اليه من قبل في محاولاته القصصية ، وقد حقق رئيف فيها النقد الجريء لمن يدعون الاصلاح بالوسائل الملتوية ، ولكن عيب هذه القصة امتدادها بوضوح واسترسال يفقدها كثيرا من اللفتات الموحية والمفاجآت المشوقة ، ويفضح غايتها بمعزل عن تأثيرها الفني . كان رئيف يضيق ذرعا بالحيل الفنية لاعتقاده ان نبل الغاية هو الذي يفتح القلوب المغلقة ويستميل الاسماع النائية . أتراه كان محقا في ذلك ؟

لم أقرأ لرئيف قصته بعد « الغاية والطريق » الا حوارية قصيرة نشرها بمجلة « الاداب » (كانون الثاني ١٩٥٧) بعنوان « نشيد يتعاظم » وعندي ان هذا المشهد القصير أحفل من كل ما كتبه في المجال القصصي بروح الشاعرية الخفاقة والتفاؤل المستعذب ، متخذا موضوعه التضحية من أجل تحرير الاخرين . ولا أستكثر ذلك على نشيد كتب بعد انقشاع العدوان الغاشم الذي تعرضت له مصر سنة ١٩٥٦ .

ذلك هو ما عرفته من نتاج رئيف في هذا الميدان ، احببت أن أتحدث عنه في ذكراه ، بصدق كصدقه ، واخلاص للكلمة كاخلاصه ، موقنا ان الكلمة الحق كالدمعة الوفية في تأبين الصديق .

احسان عباس

صدر حديثا

دراسات في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب

رئيف خوري ناقداً

بقلم حسين مروّة

أراني أتردد .. لكأن شيئاً كالغل يكبح أناملي .. أكاد لا أصدق أن رئيف خوري نفسه هو الذي أكتب عنه الآن كما يكتبون عادة عن جندي قائد محارب نقل مكانه في التاريخ من ساح المعركة الى دنيا السكون الابدي .. كيف نصدق وهو الذي نعرف صوته ما يزال ، حتى اللحظة ، ينطلق انطلاقته في الساح ، من هنا وهناك ، ملء المدى : حياة وعافية؟

ملء المدى صوته لا يزال .. اني يقيناً أسمعه الآن .. أسمعه في ذلك الحفل ، وعلى هذا المنبر ، وخلل تلك الصحائف ، وبين هؤلاء الصحب وأولئك .. أسمعه دافقاً متفجراً بالغضب الشريف .. (وتلك صفة للغضب أطلقها رئيف ذاته ، منذ ثلاثين عاماً تماماً ، وهو يتحدث عن الكاتب الالماني الكبير توماس مان حين أعلن ((غضبه الشريف)) على النظام النازي في بلاده يومئذ .) .. ثم اسمعه مترفقاً مترقرقاً صافياً يشع بالامل في فكر مطمئن ، وفي طمأنينة مفكرة .

***

أأكتب عن رئيف خوري : ناقداً ؟

فهل انتهت مواسم رئيف الناقد والكاتب والشاعر والمفكر ، حتى نفرغ لهذه الغلال الوفيرة التي جادت بها مواسمه فنخضعها ((لاعمال)) المسح والتصنيف والتقويم ؟ ..

يقيناً أنها لم تكن قد انتهت حين عاجلها هذا الامر الفاجع الفاجع .. بل ، يقيناً انها كانت في ابان امتلائها بالثمار الناضجة ، وبالمواعيد الكبار بعد هذه الثمار .

ولكنه الواقع .. فقد انقطع عنا ، على رغمنا ، ما كنا نرتقب ـ بعد ، والى زمن طويل ـ من عطاء رئيف .. فهل علينا ، منذ اليوم ، غير أن نقبل على عطائه الثري الذي أفاضته أيامه الماضية ومواسمه طوال أكثر من ثلث قرن من هذا القرن العشرين ؟

علينا ، منذ اليوم ، أن نعود الى ثماره التي أعطى وكأننا منها في قطاف جديد ، فتكون هي ذات عطاء جديد . وهي ستجدد عطاءها ، دون شك ، كلما عدنا اليها نجدد معها مواسم القطاف .

***

.. وكيف أكتب عن رئيف خوري : ناقداً ؟

فهل يصح في مذهب رئيف نفسه ، في تفكيره ، في نظريته النقدية ذاتها ، أن نفصل بينه ناقداً وبينه كاتباً وشاعراً ومفكراً ؟ . هل يرتضي هو هذا التجزيء في شخصيته وقد كان مذهبه الجمالي وطريقته النقدية ، ومنهجه في التفكير قائمة كلها على فكرة الوحدة في التنوع ، حتى في حال أن تكون جهات التنوع متناقضة ؟ .

شخصية رئيف متنوعة الجهات بقدر التنوع الفني في مواهبه وفي ثقافته ، ولكن السمة المميزة لهذا التنوع أنه يشيع الاتساق والانسجام بين مختلف جهاته ومواهبه وألوان ثقافته ، فاذا هي جميعاً وحدة متماسكة حتى ليعسر عليك ، وأنت تنظر في هذا العمل أو ذاك من أعماله الادبية ، أن تجد فيه رئيفاً الناقد مثلاً ولا تجد فيه رئيفاً الكاتب والشاعر والمفكر والباحث معاً . ومن العسير كذلك ، وأنت تنظر في عمل له لا يتصل من قريب أو بعيد بموضوع النقد الادبي ، أن لا تلتقي ـ مع ذلك ـ رئيفاً الناقد ذاته في هذه الملاحظة أو تلك الفكرة أو ذلك الاسلوب في التحليل والتركيب والاستشفاف من وراء الظواهر .

هذا التنوع الفني في شخصية رئيف ، وهذه الوحدة المتماسكة بجهاته كلها على اتساق وانسجام ، هما حقيقتان لا شك فيهما . من هنا يصعب التفكيك بين جهاته ، أو تجزيء شخصيته . ولكن الجانب النقدي عنده يصح ، في رأيي ، أن يكون هو الملتقى أو المصب أو مركز الوحدة لكل جانب وجهة من شخصيته : انساناً وكاتباً وشاعراً ومفكراً وباحثاً ومناضلاً .

***

اصالة الاحساس النقدي ورهافته ونفاذه عند رئيف خوري ، بلغ أن تكون الهادية له دائماً ، في كل موضوع وفي كل مسألة يعالجها ، الى أدق الخواطر والى أعمق الافكار في أخفى أماكنها :

يحكي لنا هو أنه حين كان يتجول في متحف الاسلحة الروسية في ((الكرملين)) أثناء زيارته موسكو عام ١٩٤٧ استوقفه تمثال رخامي أبيض لشخص نابليون ، فوقف عنده متأملاً ..

نقرأ تأملاته هنا وهو يقص خبر هذا التمثال ، فاذا هــو يمزج التاريخ بالملاحظة النقدية مزجاً تحس فيه التاريخ نفسه نقداً ، أو تحس النقد ذاته تاريخاً ، وفي كليهما تحس الموقف الانساني ينبض في ذاتك شعوراً وانفعالاً بقدر ما يتحول فكرة وعبرة ..

يتحدث الينا رئيف كيف أوغل نابليون في روسيا ((فزرع في ثلجها جثث رجاله وزرع هذا التمثال)) .. وكيف جاء بهذا التمثال من فرنسا ((يريد نصبه غب النصر في المدينة التي هي قلب روسيا وفخرها .. وكيف اضطر الفاتح المنكسر الى الانسحاب ((يحمل معه التمثال العزيز)) .. وكيف ((آثر عند بورودينو ، حيث دارت المعركة الحاسمة ، أن يكتفي بحمل نفسه ناجياً بها ويترك التمثال)) .. ثم يخرج بنا رئيف من حكاية الخبر على هذا النحو النافذ اللماح النفاذ ، الى حكاية النهاية بصورتها الدرامية مشحونة بهنيهة كومي ـ تراجيدية أخيرة مذهلة :

((.. وقد التقطه الروس ـ يقصد التمثال ـ فيما التقطوه من غنائم المعركة . وعرفوا ماذا كانت رغبة الفاتح العظيم .. فلم يضنوا عليه بنصب تمثاله على أرضهم .. لكنهم جعلوه في هذا القصر الفخم ، في هذه القاعة الرحبة ، على أرض من بلاط صقيل تحت سقف نفيس بين جدران أنيقة ، وقاية لجلالة الامبراطور من البرد !)) .. (١) .

***

.. وفي النقد الادبي بالخصوص ((تتمركز)) ملكاته النقدية مستقطبة معها جملة احساسه المستطلع الكاشف . ولكن ، ما ((هوية)) رئيف خوري الناقد الادبي : أهو ممن يلتزمون ((القواعد)) في استكشاف القيم الفنية ، أم هو من المنطلقين لا يشدهم نظام في الجماليات معين أو محدد اطلاقاً ، وانما هو يعتمد في النقد محض انفعالاته الذاتية بالعمل الادبي ؟ .. واذا كان من الفريق الاول فبأية ((قواعد)) في النظرية النقدية يلتزم ويمارس ؟ .. ثم ما القيم الفنية ، ما مقاييسها في رأيه وممارسته ؟ ..

لم يكتب رئيف في النظرية الجمالية الا قليلاً جد قليل . وانما المرجع الاوثق ، في تحديد ((هوية)) الناقد منه ، أعماله النقدية ذاتها ، ممارسته الفعلية لعملية النقد الادبي .. غير أن ما كتبه في النظرية الجمالية مباشرة يلقي ضوءاً لا على طريقته ومنهجه في النقد وحسب ، بل كذلك ـ وبالدرجة الاولى ـ على طريقته ومنهجه في التفكير ، وفي العمل الادبي ، وفي اختيار المواقف حيال مسائل الكــون والحياة

(١) مجلة ((الطريق)) ـ كانون الثاني ١٩٤٨

والمجتمع والانسان . وهذه بعينها احدى ظاهرات الوحدة (التي أشرنا اليها من قبل) بين شخصيته كلها .

ففي محاضرة ألقاها في جمعية العلاقات الثقافية بين لبنان والاتحاد السوفياتي (٢ آذار ١٩٦٥) يصرح ، منذ البدء ، أنه رومانطيقي النزعة، ولكنه يسارع فورا الى الاستدراك بأنه مع ذلك يحب « الانطلاق من القواعد والرجوع الى القواعد » .. ثم يؤكد هذه الرغبة في التزامه القواعد بايضاح بارع وصارم :

« .. فان أكره الاشياء الي شيئان : أولا ـ أن أكون كالسفينة التي اختل مقودها ، بعيدا عن الميناء ، في عرض بحر عاصف ، فهي تضطرب وتتقاذفها الامواج ، لا تسير في طريق معين ولا تهتدي بمنارة في البحر أو في الشاطىء .. ثانيا ـ أن أصل الى حيث أريد الوصول بأيما طريق من الطرق » .

ثم هو يستخلص من كراهيته لذينك الشيئين حدود مكانه بين أهل النظريات او النزعات الادبية والنقدية ، فيقول : « .. لذلك كنت مدرسيا في جانب رومانطيقي » .

و « المدرسية » هنا تعني التزامه « قواعد » معينة .. فما هي تلك القواعد التي يحب رئيف « الانطلاق منها والرجوع اليها » ؟

هو يجيبنا عن ذلك منذ يأخذ سبيله الى تعيين مفهومه بالادب ، فاذا به يرى أن الادب « هو ما أعطى الناس والاشياء معنى بالنسبة الى الانسان مع فنية الاداء » . ثم يرى أن « هذا المعنى بالنسبة الى الانسان ، مع فنية الاداء ، هو بالضبط موضع الاحاسيس الجمالية ولبها » .

فهناك ، اذن ، عنصران أولان يحددان مفهوم رئيف خوري بالادب، أو نظريته الجمالية ، هما : أولا ـ المعنى الانساني . وثانيا ـ فنية الاداء .

ويقصد بالمعنى الانساني أن يكون المعنى الذي يعطيه الادب للناس والاشياء قادرا على ايقاظ إحساس لذيذ ، أو أحاسيس لذيذة ، في الانسان .. واللذة هنا ـ كما يريدها رئيف ـ هي الهزة الانسانية العميقة التي يثيرها الادب في الانسان حين يتحدث الادب عن « الجميل والفائق والمشجي أو المضحك » ..

ولكن ، ما الجمال ، وما الجميل في نظرية الادب والفن ؟ .

يرجع رئيف هنا الى الشاعر الانكليزي الذي غنى :

« الجمال : الحق ، والحق : الجمال .

« هذا كل ما تعرفه على الارض

« وكل ما تنبغي لك معرفته ! »

ويستخلص رئيف من هذا « أن للجمال وجهين متصلين أوثق اتصال : فوجه يتألف من الظاهرات والمقومات الحسية للجمال، ووجه يتعلق بمقومات الجمال الخلقية » . ولكنه لا يكتفي باستخلاص ذلك ، بل هو يأخذ بهذه النتيجة ويلتزمها ، فليس الجمال الفني عنده ما يقف عند اثارة الاحساس بالظاهرات والمقومات الحسية للجمال ، بل ما يقترن مع ذلك بالوجه الآخر ، أي الوجه الذي « يتعلق بمقومات الجمال الخلقية » .

من هنا ينكر رئيف على أكثر ما يأتي به أدبنا العربي اليوم ، في لبنان وفي سائر البلاد العربية ، من اثارات في القارىء لا تثير سوى الشعور « بلا شيئية الانسان » .. ذلك بأن رئيفا يرى في بطل هذا الادب أنه بطل « ضائع مائع يتزيا أحيانا في زي رافض ، ولكنه رفض ينتهي الى لا شيئية القيم كلها ، فيتردى في أقبح صور الاستسلام الخانع ، يلوك حديث الموت . على أنه قد يتزيا بزي ملتزم . وهنا لا يلوك حديث الموت وانما يسمع أمثولة حفظها ، فيردك الى المستسلم الخانع » .

فالنظرية الجمالية عند رئيف خوري تضع الوجه الخلقي للجمال في مرتبة العنصر المقوم لفنية الادب .. وهذا « الوجه الخلقي » هو بالضبط ما قصده أولا « بالمعنى » الذي يعطيه الادب للناس والاشياء « بالنسبة الى الانسان » .

ومن هذا الاعتبار بعينه ينطلق بتساؤله في نهاية المطاف : « أين أدبنا الذي لا يقفي القيم وانما يخلق القيم ؟ .. أين أدبنا الذي يؤكد مجد الانسان ويعفينا من هذه اللاشيئية والمدارات المقفلة والطرق المسدودة والنار والرماد والوجود والسراب وما الى ذلك من فراغ »(٢).

***

.. ولكن رئيف خوري الناقد لا تكفي معرفته بوجهه النظري هذا، فلا بد أن نتعرف وجهه الآخر ، الاكثر أصالة ، والاروع اضاءة . أعني وجهه العملي في نقده ، في اكتشافاته لعناصر الجمال الفني وهو يمارس النقد غوصا الى ما وراء « الظاهرات والمقومات الحسية للجمال » .

لعله مارس النقد هكذا منذ بدأ طريقه في هذه الرحلة الادبية الفكرية التي انقطعت فجأة منذ أسابيع على غير انتظار .. فقد كتب النقد منذ صار كاتبا وشاعرا ومفكرا ، وقد آفام بين جهاته هذه كلها تلك الوحدة التي قلت ، من قبل ، أنها لا تدع لنا سبيلا الى فصل جانب منه عن جانب . وأقصد بذلك أن أقول ان منهجه الفكري وفلسفته في الحياة ونظريته الجمالية تتطابق دائما وتتلاحم ، بتواجد واصالة ، في كل ما كتب : نقدا ، ومقالة ، وقصة ، ومسرحية ، وشعرا ، ودراسة أدبية أو تاريخية .

قرأت له هذه الايام فصولا في النقد الادبي تنبسط على مدى من الزمن يرجع الى عام ١٩٣٧ ويمتد صعدا الى عام ١٩٦٦ ، فاذا بظاهرة التلاحم هذه بين منهجه وفلسفته ونظريته الجمالية تزداد على الزمن تأصلا وتبلورا وتألقا . فان القيم الانسانية والقيم الفكرية والقيم الجمالية تنبع عنده من منبع واحد ، ولذلك هي تؤلف نسيجا واحدا بديع التناسق والتماسك .

المعنى الانساني في الادب ، كما عرفناه في نظريته ، هو أول ما يبحث عنه رئيف حين ينقد العمل الادبي ، ولكنه لا يتسامح البتة بأمر الاداء الفني .

كتب رئيف (٣) عن قصص توفيق يوسف عواد في «قميص الصوف» عهد صدوره ، فاختار منه أول قصة وآخر قصة ، وهما : « قميص الصوف » و « ميثاق الموت » ، لاجتذابهما اياه بقوة . أما الاولى فمن حيث « انضباطها » في « طبيعية » لا شعر بشيء من الشذوذ أو التكلف في ناحية من نواحيها .. « هي طبيعية في جوها ، طبيعية في لغتها ، طبيعية في تحللها النفسي لتلك الارملة الجبلية المنكودة » .

ويستغل هنا هذه الملاحظة ليخرج بالامر من نطاق التخصيص الى التعميم ، فيرى أن القصة العربية ـ ويستدرك فيقول : المحاولات العربية القصيصية الحديثة ـ كلها « تنضح بعدم الطبيعية ، سواء أكان ذلك في اللغة التي تجريها على ألسنة شخصياتها أو في العواطف التي تجعل صدورهم تضطرب بها » .

ثم يستغل الملاحظة ثانية ليبدي رأيا نقديا يتصل بشخصيات دستويوفسكي اذ يعلل رضاه عن هذا « الانضباط » في عرض شخصية « قميص الصوف » عرضا طبيعيا بقوله : « .. لاني لست أرضى لك أن تجعل كل شخصياتك من أهل الشذوذ. أقول : لك ، لانك لست كدوستويوفسكي مثلا مصابا بألوان الشذوذ لتكون مؤهلا لتصوير أهل الشذوذ ولظهور ذلك طبيعيا منك » .

ليس يرضي رئيف ، اذن ، في القصة الفنية أن تخرج شخصياتها عن الاطر الطبيعية التي تحيا ضمنها الشخصيات الواقعية نفسها في مضطربها البشري السوي ، وليس يرى في الكاتب الذي يخرج بشخصياته عن هذه الاطر الا انه مصاب بألوان الشذوذ ، وان ذلك وحده يؤهله لتصوير أهل الشذوذ ليظهر ذلك طبيعيا منه .

ومثل هذه الملاحظة النقدية يبديها رئيف بشأن القصة الثانية

(٢) مجلة « الطريق » ـ شباط ١٩٦٥

(٣) مجلة « المكشوف » ـ العدد ١٠٦ ـ تموز ١٩٣٧

التي أعجب بها من « قميص الصوف » . فهو يدهش لما في مأساتها من روعة ، ويرى أن توفيق عواد لم يشرد فيها عن الواقع ولم يخالف الطبيعة حين جعل بطلها شاذا غريب الشذوذ بالاضافة الى ارتجاج شديد في أعصابه . ذلك لان هذا البطل تأثر بأهوال الحرب الحديثة التي « لا تبقي على توازن في الادمغة ولا هدوء في الاعصاب » .

فهو ، اذن ، هنا يلتزم « الطبعية » من حيث كونها مجافاة للتكلف والافتعال ليس غير .. على اننا نستخلص عنصرا نقديا آخر من كلامه على هذه القصة . فهو ـ أي رئيف ـ يبدي اعجابه بكون الكاتب ترك فيها المجال للقارىء أن يفسر بعض الاشياء بنفسه . فان « القصصي الذي يقول كل شيء للقارىء هو فقير الفن » .. فرئيف ، اذن ، لا يرتضي « المباشرة » والتقريرية في الفن ، بل هو يدعو الى الموقف الفني الذي يوحي ويلمح لكي « يستطيع أن يجابه قارئه بموقف نفسي ، ويثير خياله للاغراق في شتى التفاسير » .

***

ولكن ، هل نفهم من هذا الكلام الاخير أن رئيفا كان يدعو الى الغموض في الفن ، أو كان ـ بالاقل ـ يأخذ بنزعة الغموض ؟

بعد نحو عشرين عاما منذ كتب هذا الكلام نراه يتصدى لهذه المسألة وكأنه يضيف الى نظريته النقدية من جديد ما يدفعها الى التكامل . وقد كان كذلك بالفعل . فان النسيج النقدي الذي نتتبعه هنا ، في هذه السطور ، لم ينسجه رئيف مرة واحدة او في مرحلة واحدة من رحلته الادبية الخصيبة . بل كان يتكامل حقيقة مع الزمن في تطور يمضي به صعدا الى النضج الفني الشهي .

أقول : انه تصدى ـ بعد ذلك ـ لهذه المسألة ، مسألة الوضوح والغموض في الادب . تصدى لها ، بصورة جلية ، في فصلين اثنين من فصوله الادبية ذات الطابع النقدي ، أحدهما : الفصل الذي ألقاه في المناظرة الشهيرة بينه وبين الدكتور طه حسين بشأن ان « الادب : هل يكتب للكافة أم للخاصة ؟ » .

يقول رئيف في هذا الفصل : « ... ان السهولة والسلاسة والوضوح التي تأتلق معها الالفاظ ائتلاقا وتشرق المعاني على النفس

قريبا :

الشوارع العارية

واحدة من اروع الروايات الايطالية المعاصرة

تأليف

فاسكو براتوليني

ترجمة ادوار الخراط

منشورات دار الاداب

اشراقا ، لا تتنافى مع الانشاء العالي والفن الرفيع ، بل تواكبه في أكثر الاحيان كما تشهد روائع الآثار الادبية » (٤) .

ويقول في الفصل الثاني ، الذي جاء متأخرا سنتين عن الفصل السابق ، انه ما رأى نفسه مقبلا على الكلام في موضوع الادب الا ذكر قولا لابي عثمان الجاحظ : « ان مدار الامر والغاية التي يجري عليها القائل والسامع انما هي الفهم والافهام » .

ويعقب رئيف على كلام الجاحظ هذا بقوله : « السامع همه أن يفهم ، والقائل همه أن يفهم . ولا بد في هذا كله من الوضوح في ذلك الضرب من اللفظ الذي يسري اليه الغموض لا من كونه مهجورا عويصا، وانما يسري اليه الغموض من كونه مطلقا لا يمثل معنى مقيدا ، بل يثير معاني تختلف باختلاف ما في الاذهان من سابق تصورات » (٥) .

نستخلص من هذا الكلام وسابقه موقفين متكاملين لرئيف في مسألة الوضوح والغموض في الادب .. اما أولا ، فانه يرى أن رفعة الفن لا تقتضي الغموض ، بل قد تقتضي السهولة والسلاسة والوضوح ليزداد الفن رفعة وروعة بائتلاف الالفاظ وباشراق المعاني على النفس اشراقا. أي أن الوضوح ، في هذه الحال ، يصبح عاملا فاعلا في تحقيق الغاية الجمالية للفن ، وهي احداث البهجة النفسية واشراقها .

وأما ثانيا ، فان مسألة الوضوح عند رئيف مسألة منهجية . لانه يعني بالوضوح ، في الكلام الثاني ، دقة الالفاظ في تحديد الدلالة والمضمون وتحديد الموقف الذي تعبر عنه أو تدعو اليه . والغموض هنا بالمقابلة يعني الاطلاق والتعمية وفقدان المنهج والتباس الحق بالباطل.

***

.. ولا بد أن نعود ، الآن ، الى الموقف النقدي الذي تركنا فيه رئيفا مع توفيق يوسف عواد في قصتيه « قميص الصوف » و « ميثاق الموت » . هناك نجده ، بعد أن يعرض ملاحظاته النقدية التي سبقت الاشارة اليها ، يقف وقفة انتباه لامر جديد ، فاذا هو ينثني الى نقطة المركز من خطه النقدي العام الذي رسمه لنفسه رفق منهجه الفكري وفلسفته في الحياة ، وأقام عليه أهم عناصر النظرية الجمالية التي يأخذ بها .. ونقطة المركز هذه هي « المعنى الانساني » الذي جعله مع فنية الاداء « موضع الاحاسيس الجمالية ولبها » . ذلك بأنه ما ان فرغ من ملاحظاته النقدية السابقة حتى انعطف على توفيق عواد ليأخذ عليه مأخذين هما من جوهر ذلك « المعنى الانساني » .

أولهما : ان توفيق عواد استقى قصته « ميثاق الموت » من غير حياة بلاده وشعبه ، بل « من حياة أوروبا الاستعمارية مدبرة المجازر الحربية للشعوب ، وأم المدنية الهمجية التي لبست في بعض الاماكن لباس الفاشستية : أفظع الهمجيات ، وهي تنذر كل ساعة بخنق نفسها بالدم وجر الدنيا معها الى البالوعة الحمراء العميقة القرار كأرعب مجنون » .

وثانيهما : أن أدب توفيق عواد « لا تزال تعوزه رؤيا مستقبل جميل مجيد تضمحل منه المآسي ، ولا يزال يعوزه تخطيط الطريق لتحقيق هذه الرؤيا » .

عند هذه الملاحظة ينبري رئيف لوضع قضية الرؤيا في الادب موضع التخطيط بالفعل ، فينقلها من دائرة الخاص الى العام مستندا الى نقطة المركز ذاتها في خطه النقدي ، حين يقول : « ... فان الادب الذي يصور وقائع الحياة وشبكة مآسيها ، ثم لا يصور المخرج ، لجدير به ان يكون ادبا خطرا مؤذيا سائقا الى القنوط والاستهتار وخواء النفس . والادب الذي لا يشع بامل في المستقبل لا يزال موضوع شفقة كالانسان الذي يعيش في ماضيه أو في ساعته لا تطمح عيناه الى الآفاق أمامه » (٦) .

ـ التتمة على الصفحة ٧١ ـ

(٤) مجلة « الآداب » ـ أيار (مايو) ١٩٥٥

(٥) مجلة « الآداب » ـ أيار (مايو) ١٩٥٧

(٦) مجلة « المكشوف » ـ العدد ١٠٦ ـ تموز ١٩٣٧

الثدي والرحم

الثدي قال لي نعم
لكن صرخة الرحم
تقول لا وتختتم
عواءها وتستحم في السراب
لا تلمس الابواب
فان دورة الزمن
قد اخطأت طريقها
وأصبحت عيون مَن نحب رقعة من الظلام
وها هو الزمن
في لحظة الجنون
يزاوج الضحك
بالزفرة التي يشبها النحيب
يواجه الرياح بالجدار
الحب بالكراهيه
البحر بالوداع
البرق بالصواعق المباغته
وها هو اللقاء تم في الفراق
الهجر بادىء مع العناق
حبيبتي
توجهي الى الاله
أن ترجع العيون للوجوه
أن تنبت الازهار في الرحم
أن تثبت القناطر التي تقام فوق أعمق الانهار
كي يعبر الاعصار
ولا يدمر الجسور
ان يبدأ النهار
حراثة الغابات والمدن
ان يغمد الزمن
سيوفه التي تمتد في البروق
لتذبح البشر
حبيبتي
الثدي قال لي نعم
لكن صرخة الرحم
تقول لا ...

القاهرة — محمد ابراهيم أبو سنه

حقيقة « إسرائيل » ومصيرها

بقلم عبد اللطيف شراره

الظاهرة السياسية ، كالظاهرة الطبيعية ، توقظ فكر الانسان على البحث ، ثم لا تتركه يهدأ الا بعد ان يطمئن ، على نحو من الانحاء ، الى صحة « فهمه » ، وادراكه للاسباب والنتائج . وهذا الاطمئنان انما يتمثل ، اكثر مما يتمثل ، في اتخاذ موقف عملي من الظاهرة الموقظة ، او التجربة الجديدة . والانسان يظل في وضع قلق ما دام يفكر ولا يعمل ، ويجتر الاحاسيس ولا يخلص الى وجهة نشاط تستقر عليها جهوده ، فاذا انتقل من تفكيره الى « قرار » ، ومضى في تنفيذه ، كان حريا به ان يشعر بالراحة ، ويخلد الى السكينة ، ولكن في جو نفسي مفعم بالنشاط منحصر في اداء العمل الذي قر عليه الرأي او الفكر .

اما نتائج الاعمال ، فانها من طبيعة الافكار القائمة وراء العمل ، وهذا معناه انه لا يكفي ان يعمل الانسان كيفما اتفق ليتحرر من القلق ، وينجو من تعاسة الروح ، وظلام القلب ، بل ينبغي له ان يلاحظ ، في بدء من نشاطه وعمله ، ما اذا كانت افكاره صحيحة ، اي لا يمازجها وهم ولا يندس فيها خيال مريض ، ولا تبعث عليها انانية رعناء ، او مصلحة غير مشروحة . والرعونة في الانانية ، كافتقاد عنصر الشرعية في المصلحة ، انما تكون في ان لا يواجه الانسان الاساءة الى غيره دون علم هذا ، او في غفلة منه ، او استضعافا له وازدراء لشأنه ، من بداية الامر ، ولا يجهد من ثمة في اتقائها ، وبتجنب الوقوع فيها ، ومقاومة كل نزعة في نفسه تحدوه على المقامرة مهما كان الربح مغريا ، لان كل ربح يتحقق بما يخسره الاخرون ، ينتهي لا محالة ، الى اضعاف الروح الانساني لدى الرابح ، وادخال المرض على تفكيره ، أي على رؤيته للعالم وفهمه اياه ، ومتى بلغ هذه المرحلة من الضعف وسوء الفهم ، تعرض للارتطام بماضيه ، وكثرت عثراته في تلقي الاحداث والرد عليها ، وطفق ينحل ، وينحل ، الى ان يعود به ربحه الى الاصل فيه ، وهو « المصادفة » المحض ، ويقضي عليه اخيرا ، وعلى جهوده كلها ، تتمة للمصادفة التي ربح فيها ... ولذلك ، نجد المقامرة مرذولة لدى الشعوب الراقية ، لا المتقدمة ، محرمة في الشرائع العادلة ، منهيا عنها من قبل جميع المفكرين والاخلاقيين في كل بيئة انسانية ، صحيحة البنية .

ولقد كانت « اسرائيل » كدولة ، احدى الظواهر السياسية الغريبة في هذا القرن ، ولم تجد بعد تفسيرها الصحيح ، ولا عرف الناس حتى في « أسرائيل » نفسها حقيقتها ، والرأي في مصيرها يتوقف ، الى حد بعيد ، على ادراك حقيقتها .

والغرابة فيها كظاهرة سياسية ، هي التي تحمل على درسها ، وتلفت اذهان المفكرين اليها ، اذ لم يسبق لدولة في العالم كله ، قديما وحديثا ، ان كان « وجودها » موضع اخذ ورد ، وبحث وجدال ، ومن ثمة مثار نزاع واصطراع ، كما هي حال « اسرائيل » ، مما يؤكد ان وجودها غير طبيعي ، وان تحققه ، على النحو الذي تحقق به ، انما كان وليد مصادفات عابرة ، وان السياسة التي افضت اليه ، لم « تتبع خطى القانون » كما جرت العادة ، وانما كانت ضربا من المقامرة .

— ١ —

هناك لحظات ، في حياة كل أنسان ، ومن ثمة في حياة كل مؤسسة انسانية — والدولة مؤسسة انسانية — يطبق بها الخطر عليه ، ويتعرض فيها للشعور بالفناء ، ثم لا ينقذه منها سوى ماضيه . وقد يكون اظهر مثل اسطوري عليها ، تلك اللحظات التي دخل بها الاسد على اندو كليس وشعر بها هذا ان منيته دنت ، وان لا مهرب له بعد من القدر ، مهما فعل ، واذا بالاسد يتعرف الى أنسان ، في شخص اندروكليس ، كان قد سبق ان احسن اليه ، ونزع الشوكة من قدمه ، فيحجم عن الاساءة ، ويتحول من سبع ضار الى حمامة وادعة .

ذلك هو الماضي المنقذ . والانسان يحيا ، كما عبر فاليري ، اقل مدة ممكنة في حاضره ، وحياته الحقيقية تدور ، اكثر ما تدور ، في الماضي والمستقبل ، وهذان من مخترعات الروح الانساني ، بينما الحيوان « يعيش » اكثر ما يعيش في حاضره : يضطرب اذا جاع ، ويهدأ حين يشبع ، ولا يظهر من سلوكه انه يفكر فيما غبر ، او يحسب حساب ما يأتي . الحاضر هو مجال السياسة التي يتبعها الحيوان تجاه نفسه ، وتجاه غيره . والمستقبل هو مجال السياسة الانسانية السليمة ، وهذه السياسة انما تفيد من الماضي لتوجه نفسها في الحاضر ، نحو مستقبل تقيم الدليل على افضليته .

وهناك أيضا ماض مهلك ، بمعنى ان تاريخ الانسان كتاريخ الدولة ، انما يجري في تيار خاص ، ولا بد له ان يصب آخر الامر ، في لحظات تورد صاحبه موارد الخزي والدمار ، او تضفر له أكاليل الغار ، وترفع اسمه عاليا بما يترك من آثار .

وليس من الصعب في عصرنا هذا الذي لا سبيل معه بعد الى اخفاء الحقائق والخلط بين الصحيح والمزيف ، ان يدرك العارفون مصب التيار التاريخي الذي تجري فيه سيرة فرد او دولة ، اية كانت التغيرات التي تطرأ على العقليات ، والاتجاهات ، والحركات الاجتماعية والسياسية ، بل الصعب اصبح ان يتسلل الظلام الى العقول ، وتطمس الوقائع ، ويضيع التاريخ .

ذلك بان الذين يحاولون شيئا من ذلك — التضليل ، والطمس ، والتضييع — انما ينساقون في تيار مهلك ، مدمر ، وان بدا لهم انه يعود عليهم بفوائد يرونها جزيلة ، ويمكنهم من انتصارات تلوح لهم باهرة . هؤلاء يخلطون بين القشور واللباب ، ولا يميزون بين الموقت والدائم ، ويضلون وهم يحسبون انهم يضللون الآخرين .

ثم ان لكل دولة أساسا يبنى عليه تاريخها ، وعنه تنبثق سيرتها ، ويكون في الاعم الاغلب ، طبيعي القواعد ، أخلاقي الاتجاه ، قانوني المسلك ، حائزا رضا الجيران والمواطنين على السواء ، متماسك البناء من النواحي الانسانية لا الحيوانية ، معبرا في قراراته ، وبحكم الرضا الذي يحرزه من جيرانه وذويه ، عن التطلعات الانسانية الشاملة التي نجد بذورها لدى كل شعب ، وكل امة . وهذه التطلعات هي ما يلخصه مفهوم العدالة . وقديما ادرك الناس قبلنا ان « العدل اساس » في دوام الدولة ، وازدهار حياتها ، وتنامي فعالياتها .

بقي ان مفهوم العدل اختلف ، وما زال يختلف ، بين دولة ودولة ، وحزب وحزب ، وحتى بين حضارة وحضارة . وليس لجمهورية افلاطون من طرافة فكرية لا تبلى ، سوى انها درست هذه الناحية ، اي اختلاف مفهوم العدالة ، واضاءت كثيرا من ظلمات الوجدان البشري حولها ، وان لم توفق الى حل المشكلات الناجمة عنها ، لان افلاطون الغى حرية الفرد ازاء الدولة ، وقلده من بعد هيغل في ذلك ، وكانت

من آثار هذا وذاك تلك الانظمة الاستبدادية الغربية ، الخالصة في غربيتها ، وعنها نشأت ، في اطار الحياة الدولية مؤخرا ، فكرة « اسرائيل » كدولة .

هناك اذن في الاساس من التفكير في ايجاد « اسرائيل » ، خطأ بالغ ، وضلال ما انفك يعمل عمله في تخريب الاسرائيليين ، وانحراف عقولهم ، وبلبلة اذهانهم ، وانحلال نفوسهم ، منذ اخذوا في نقل افكارهم التوراتية ـ التلمودية من حيز الخيال ، الى الواقع الآني المتخلخل .

وجوهر ذلك الضلال انهم ارادوا احياء افكار وعواطف ومعان ، نشأت عن مجتمع قديم ، بدائي العقلية ، مضطرب النفسية ، ضيق النظرة ، محدود الافق . والزمن لا ينقسم ، ولا ينحاز الى فئة ، او جماعة ، او مذهب ، او فلسفة . ومحاولة احياء قسم منه ـ ولنفرض هذا القسم عهد « الملوك » التوراتي ـ تدل على « صبيانية » في العقل ، وسوء فهم ، وانحطاط في الادراك ، لانها ، عدا عن كونها « رجعة » لا جدوى فيها ، ولا أمل بتحققها ، تفصل بين عهود التاريخ فصلا مصطنعا ، مخالفا لقوانين الطبيعة نفسها ، فاذا فرضنا على الطريقة المتبعة في الفرضيات الرياضية ان عهد « الملوك » رجع الى فلسطين ، اوجب علينا منطق الزمن أن يرجع الى مصر عهد الفراعنة الذين قاوموا الاستبداد اليهودي ، والى بابل عهد بختنصر ومن تلاه ، والى اميركا جهل الناس بوجودها ، والى اوروبا عهود الظلام والتوحش التي كانت تعيش فيها ايام داود وسليمان !.. ثم ان « اسرائيل » لن تبلغ في رجعتها هذه تلك الايام ، قبل أن تعرج في مسيرتها الرجعية على عهود هادريان اولا ، وطيطش وراءه ، أي عهود فنائها والقضاء عليها ، وبالتالي ، لن تتمكن من تحقيق احلامها بتاتا ، لان دمارها متقدم في الزمن على عمرانها ، بحسب ما تتخيل ، ورجعتها الى نقطة محددة من التاريخ ، يستلزم رجعة جيرانها الى النقطة نفسها ، نظرا لهذه العلاقة الوثيقة بين المكان والزمان التي جعلت اثنتين يحسب خطأ ، ان الزمان والفضاء شيء واحد .

هذا الاساس الصبياني الخاطىء في البناء الفكري لدى كل صهيوني ، هو الذي يجعل من « اسرائيل » دولة اصطناعية من جهة ، متخلخلة القواعد من جهة أخرى ، وهو هو الذي يجعلها ريشة في مهب الاحداث الدولية ، وتقلب الاحوال السياسية ، فلا تستقر ، كدولة ، على حال من القلق .

ـ ٢ ـ

لننظر الآن الى البناء ، بناء « اسرائيل » ، وكيف قام ، بعد أن وضح الخلل الخطير في اساسها . واول ما يظهر للمؤرخ المنصف ، وبوضوح ساطع ، ارتباط قيامها ، وهي لما تزل فكرة او مشروعا ، بالمطامع الاستعمارية ، والمصالح الاستراتيجية ، والمنافسات على الاسواق والطرق التجارية والارباح والمغانم اللامشروعة ، ومماشاة اليهود لتلك المطامع والمصالح ، واستغلالهم لهذه المنافسات .

وها أنا انقل الفقرة التالية من « دائرة المعارف البريطانية » في مادة « صهيونية » ، لما فيها من اشراق الدليل على صحة ما نبين « لقد وجد في انكلترا كتاب سياسيون يطالبون باعادة انشاء دولة يهودية ، تحت الحماية البريطانية ، كوسيلة الى تامين الطريق البرية الى الهند (هيلفزوروث ، اليهود في فلسطين ، ١٨٥٢) . ولم يكن اللورد بالمرستون غير متأثر بهذه الفكرة ، واللورد بيكونسفيلد واللورد سالزبوري ساندا لورانس اوليفانت في مفاوضاته مع الحكومة العثمانية، على تحصيل امتياز كان من شأنه ان يمهد الطريق لدولة يهودية تتمتع بالحكم الذاتي في الارض المقدسة » .

وجاء في كتاب تيودور هرتسل « الدولة اليهودية » ، وهو الانجيل السياسي الذي يطبقه الصهاينة بحذافيره ، العبارة الآتية : « .. وهناك (في فلسطين) سننشىء من انفسنا سورا يحمي اوروبا ضد آسيا ، ونكون الحرس الامامي للحضارة ضد الهمجية . » . وذلك هو معنى تأييدهم لكل فكرة او حركة استعمارية يقوم بها أي غربي في بلدان آسيا وأفريقيا . وهو هو معنى مقاومتهم لكل فكرة او حركة وطنية وانسانية، يمكن ان تقوم في كل من اوروبا واميركا .

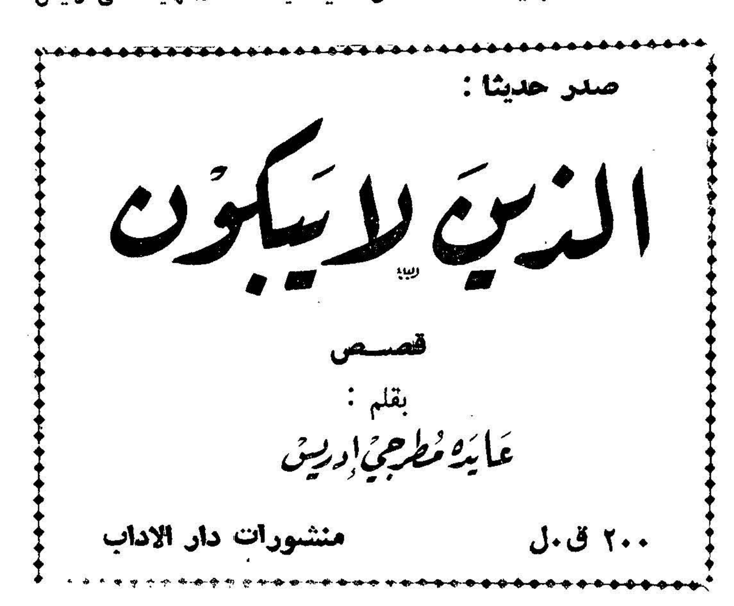
وقبل ان تندلع الحرب العالمية الاولى بقليل ، ذهب السر هربرت صموئيل يقنع وزارة الخارجية البريطانية بتبني الفكرة الصهيونية ، فكان اهم مبرر قدمه بين يدي فكرته ان قرب الدولة اليهودية من مصر « سيؤدي خدمة جلى لانكلترا ، وهي خدمة ذات اهمية كبرى للامبراطورية البريطانية . » . وحين تمت الغلبة للحلفاء الغربيين في تلك الحرب ، ووضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني ، ارسلت حكومة صاحب الجلالة يومذاك السر هربرت صموئيل صاحب هذا الكلام ، اول مندوب سام الى فلسطين ، لترى كيف يؤدي ، شعب الله المختار » الخدمات الجلى للامبراطورية !

وعندما اخذ نجم بريطانيا يميل الى الافول خلال الحرب العالمية الثانية ، وفي اعقابها ، توجه الصهاينة بثقلهم الاقتصادي والعلمي والثقافي كله ، نحو الولايات المتحدة الاميركية ، ونشروا في مجتمعاتها ـ وهي القابلة بحكم تكوينها الديموغرافي لما نشروه فيها ـ كل هذه النزعات ، والانحرافات ، والامراض الفكرية والاجتماعية والنفسية ، اذ اعتبرت اميركا نفسها ، على ايديهم ، « غربية » وانشقت عن الشرق انشقاقا تاما الى درجة بلغت معها حد القتال ، وفرض الرأي بالقوة ، واتهام الشرقيين بـ « الهمجية » ، وهي التي ولجت التاريخ حديثا بحيث يمكن القول : انها لا تزال طفلة بالنسبة للعراق ومصر ، او بالنسبة للهند والصين ، وليس لها من ميزة حضرية سوى تقدم تكنولوجي لم تشارك في أصوله وقواعده الاولى ، وان اشتركت في قطف ثماره . وليس من شك يرقى الى هذه الحقيقة ، وهي ان نفوذ اليهود في المجتمع الاميركي هو القائم وراء مصائبه العنصرية ، وازماته الاجتماعية ، وكثير من مشكلاته السياسية ، ولا سيما على الصعيد الدولي ، تماما كما كانت الحال في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى .

لقد سمع الناس رجلا مثل ترومان يتظلم بصوت عال من الضغط الصهيوني عليه ، كما روى الفرد ليلنتال ـ وهو يهودي اميركي ـ في « هكذا يضيع الشرق الاوسط » :

« ان الضغط الصهيوني على البيت الابيض لم يفتر في الايام التي تلت التصويت على التقسيم في الامم المتحدة ، فقد طلب الي افراد وجماعات بلهجة انفعال وخصام ، ان اوقف العرب ، وان امنع البريطانيين من مساعدة العرب ، وان ابعث بالجنود الاميركيين ، وان افعل هذا وذاك وغير ذلك ... »

وهنا ، ينبغي لنا ان نتساءل : كيف يضغط الصهاينة على رئيس



الولايات المتحدة ؟ وما هي وسائلهم الى مراس هذا الضغط ؟

الجواب انهم « يضغطون » بثلاث وسائل : الاولى هي اصواتهم كمواطنين اميركيين في الانتخابات ، والثانية الاموال التي ينفقون في سبل « سياسية » ، والثالثة الدعايات التي يبثون عن طريق منظماتهم في الداخل والخارج .

وان مجرد استخدام هذه الوسائل من اجل غايات سياسية يدل على مدى تعريضهم البلاد للاخطار ، وضعف ولائهم لها ، وسوء توجيههم اياها ، والاميركان يحسبون في الوقت نفسه ان اليهود « يخدمون » مصالحهم ، ويقاومون اعداءهم ، وبهذا يصبح اعداء اليهود ، من غير ان يشعر الاميركان ، اعداء الاميركان . وذلك كله يجري تحت ستار من المبادىء ، والكلمات الفارغة من معانيها الحقيقية ، مثل الديمقراطية ، واللاسامية ، والحرية ، والانسانية ، والدفاع عن العالم الحر ، وما اشبه ...

وواقع الحال ان هذا الارتباط بين اميركا والصهيونية لا يختلف ابدا عن ارتباط الصهيونية من قبل بالاوساط الاستعمارية في دول اوروبا خلال النصف الثاني من القرن الماضي ، والنصف الاول من هذا القرن .

— ٣ —

ذلك الخلل في اساس اسرائيل ، وهذا الارتباط بالنزعة الاستعمارية في قيام بنائها ، جعلاها بلا « داخل » ، وضيعا عليها كل فرصة لتركيز حدودها ، ان في أذهان مواطنيها ، وان في نظر اصدقائها واعدائها من الخارج .

بيد ان هذه الفرصة في حياة الدول — اعني فرصة تركيز الحدود — انما ترد من التاريخ ، وهي على التحقيق ، معنى كاللحظة المنقذة في حياة الفرد التي بسطنا امرها في مستهل هذا البحث . وليس في تاريخ « اسرائيل » ما يصح ان ينقذها على مدى قصير ، بله المدى الطويل ، لان قيامها كما رأينا ، لم ينبع من داخلها ، وانما كان لارتباطها بمصالح خارجية ، عرضية ، لا يصح اعتبارها ، بحال من الاحوال ، دائمة وبالتالي ، حقيقة او جوهرية .

وهنا نوافق سارتر في تقريراته حول خلو الطائفة اليهودية من الصفة الوطنية المحسوسة ، ولا نوافقه على فراغها من كل محتوى ديني . وهو نفسه يقرر ان « اليهود الملحدين الذين تحدثت اليهم يعترفون ان حوارهم حول وجود الله يدور مع الديانة المسيحية ، والدين الذي يهاجمونه ويريدون الخلاص منه انما هو الدين المسيحي . وما كانوا في لحظة من اللحظات ملحدين ضد التلمود . والكاهن بالنسبة اليهم هو الخوري ، وليس الحاخام . » (1)

هذا معناه — ومن بيان سارتر نفسه — انه حتى اليهودي الملحد ، ينطوي على ايمان سلبي يتجه نحو الخارج ، أي ضد المسيحي في اوروبا واميركا ، وضد البوذي والمسلم في آسيا وافريقيا . وليس لديه ما هو ايجابي تجاه غيره ، وهذا هو السر في انه يحيا بلا داخل ، وظهر التعبير عن ذلك ، في اطار الوجود السياسي ، ان قامت « اسرائيل » من غير حدود واضحة ، معروفة منها ومن الآخرين ... وستظل تائهة كما قامت .

ومذ كان الداخل والخارج متلازمين في حياة الدولة ، شأنهما في حياة الفرد ، فان الملاحظ من سيرة « اسرائيل » انتقاضها المستمر على المبادىء ، وتحللها من القوانين الدولية ، واضطرابها وتخبطها في المواقف التي تحتاج الى ثبات على الرأي ، وتشدد في التطبيق ، وذلك لانها لا تصدر في مواقفها الا عن رغبة في ايذاء الآخرين ، واجتذاب النفع او الربح لنفسها .

اكتفي من ذلك بمثل واحد ، وهو ان زعماء الصهاينة الاولين كانوا يلحون على « تدويل » القضية اليهودية ، وجعلها عالية ، وكان اول مؤتمر صهيوني — وهو الذي عقد في مدينة بال السويسرية عام ١٨٩٧ — صريحا في بيان ذلك ، فقد جاء في مقرراته العلنية ان « القضية اليهودية ذات طابع دولي ، ولذا يجب ان تحل دوليا » .

هذا في مستهل التجمع اليهودي ، ولكن الامر اخذ يتحول شيئا فشيئا ، مع استيلاء اليهود على ما هو حق لغيرهم — سيرا مع تعاليم التلمود — الى ان اصبحوا اليوم على طرف النقيض مما كانت عليه قضيتهم في ايام هرتسل وبلفور : انهم يريدون الان ان يحصروها بينهم وبين كل دولة عربية على حدة ، ويحاربون الامم المتحدة بكل ما تمثل من مواثيق وتعهدات وقوانين . ولو انهم اخفقوا في الاستيلاء على ما استولوا عليه ، لظلت قضيتهم ، في نظرهم ، دولية « تبت بها محافل الامم المتحضرة » !

هذه التناقضات — وما اكثرها في سيرة « اسرائيل » ! — انما نشأت عن فراغ في داخل كل اسرائيلي ، وليس لها سبب آخر .

اما اذا كان داخل « اسرائيل » محشواً بتعاليم التلمود ، وبروتوكولات حكماء صهيون ، والخطط السرية ، والمؤامرات ، والمواطآت ، مما لا تسمح لنفسها ان تبوح به ، ويفرض عليها المنطق الانساني أن تنكره وتتنكر له ، فهذا يؤكد من جديد ، انها تحمل عناصر هلاكها في داخلها ، وأنها هي التي تدمر نفسها بنفسها ، ولا فرق من حيث المصير بين داخل هو الفراغ ، وداخل ينطوي على عناصر الاصطدام والفراغ ، بحكم ذلك التلازم بين الداخل والخارج .

— ٤ —

... وكان ان أحست « اسرائيل » منذ نشأت بهول هذا الفراغ في داخلها ، وكان زعماؤها وأصحاب فكرة انشائها من موزس هس ، الى تيودور هرتسل ، الى حاييم ويزمن ، الى البرت اينشتين ، الى موشه دايان ، يدركون نقاط الضعف والقلق في كيانها ، فراحوا يعملون على ملء الفراغ الداخلي بـ « الدعايات » و « الاكاذيب » في جانب ، و « اغتنام الفرص » التي تقدمها أوضاع المنطقة العربية لهم ، من النواحي الاقتصادية أولا ، والاجتماعية ، والسياسية ، والعسكرية اخيراً ، لاظهار انفسهم بمظهر التقدم ، والتمدن ، والقوة ، والنصر . والتاريخ لا يعرف حركة أولت الدعاية من الاهتمام والبذل ، ما اولتها منهما الصهيونية ، حتى ان الاسرائيلي نفسه أصبح على جهل مطبق بحقيقة أمره ، منقطعا عن الواقع الذي يدور حوله ، غريبا كل الغربة عما يجري في العالم الراهن من تطلعات ، أميا على نحو مفجع مدمر ، من الناحية الاخلاقية والروحية . وتلك هي بالضبط حال ذوي القمصان الملونة من اتباع هتلر وموسوليني في فترة ما بين الحربين ، اذ سيقت المانيا وايطاليا الى العبودية ، والهوان ، فالهزيمة الماحقة ، وابناء كل من هاتين الدولتين كانوا يحيون في ابراج مشيدة من الاوهام ، والغوايات ، والضلالات ، ويصرون حتى وهم ينهزمون ، على أن النصر الاخير من نصيبهم !

ولا أدل على صحة هذا الواقع من الاساليب التي يتبعها زعماء « اسرائيل » في اجتذاب اليهود الى فلسطين ، وحمل الدول في اوروبا الشرقية خاصة (روسيا ، بولونيا ، رومانيا ، هنغاريا ، الخ ..) على « تهجير » اليهود ، واغرائهم بترك اوطانهم ، ليخدموا دولة « يتصورونها » تصورا ، ولا يعرفون عن حقيقتها شيئا ، ولا يحاولون ان يدرسوا تاريخها ، وسيرتها ، وما يمكن أن يكون مستقبلها ... انهم يكذبون ، بلا ريب ، على اليهود انفسهم في تلك الديار ، كما انهم يلجاون في معاملة اهل فلسطين من العرب ، وحتى من اليهود الشرقيين ، الى ابشع الوسائل ، وأحطها ، وأحفلها بالاجرام ، ليكرهوهم على ترك ديارهم ، وممتلكاتهم ، فلا اليهودي القادم حديثا يشعر انه مواطن ، ولا العربي المقيم منذ اجيال واجيال يشعر بالامان مع الدولة الجديدة التي اقيمت رغما عنه فوق ارضه ، ولا رجال الدولة داخل « اسرائيل » يواجهون الواقع الا من زاوية الخارج ، أي من زاوية المعونات الاقتصادية

---

(1) انظر
Jean Paul Sarter, reflexions sur la question juive, P. 80

والعسكرية والدعائية التي تمكنهم من الاستمرار في انتهاج السياسة التي سيقوا – تاريخيا – الى انتهاجها .

هكذا ... نعم هكذا ، فقد الانسان داخل « اسرائيل » حريته ، وتحول الى عبد من عبيد الماضي ، الى لعبة في يد القدر ، يستحيل عليه أن يفكر معها بوضوح ، او يدرك ما يمكن ، او يحتمل ان يحدث له . اصبح مضطرا الى تقبل الوجود فيها من غير اعمال روية ، أو اتخاذ موقف ، مجبرا على « تصديق » ما يقال له عن العرب ، عن الروس ، عن الانكليز والفرنسيين ... وهو لا يملك بطبيعة هذه العبودية أن يناقش الاميركان ، او يملي عليهم رأيا الا من زاوية واحدة ، هي حاجته الى معونتهم ، واضطراره الى تأييدهم في كل ما يقولون ويعملون . وهذا الموقف الاخير ، انما تمليه ضرورات تاريخية محض ، لان اليهودي الحديث ، والمعاصر خاصة انتقل في منازعاته وخصوماته من الروس الى البولونيين ، ثم الى الالمان ، ومن هؤلاء الى العرب . ومن الواضح انه أخذ يختصم مع الفرنسيين ، ثم مع الانكليز ، وستشهد الاعوام القليلة القادمة خلافا عميقا بين « اسرائيل » وبريطانيا ، لان الصداقة بين هاتين الدولتين لم تنشأ عن احترام متبادل ، ولا عن تعاطف ثقافي وتاريخي ، بل كانت نتيجة توافق في المصالح على نحو من التآمر والتواطؤ ضد الشعوب في كل من آسيا وافريقيا ، وحتى في أميركا نفسها .

وهذه ثغرة فراغ في حياة « اسرائيل » ، لا تملك ان تملأها دعاية ، ولا يبلغ فيها التضليل هدفا مثمرا .

– ٥ –

تلك هي حقيقة « اسرائيل » ، فما هي اهدافها ؟

الظاهر انها تريد ان تجني سكرا من حنظل ! واوضح مثل على ارادتها تلك « الظاهرة » ، لان هناك ، بلا ريب ، ارادة باطنة – اوضح مثل انها تحارب العرب ، وتنكر على الفلسطينيين كل حق في بلادهم ، وتبث الدعايات السيئة المسمومة ضد كل ما هو عربي ، ومن هو عربي ، في أقاصي الارض وأدانيها ، لم تعلن انها تريد « المفاوضة » والصلح ، والاعتراف بها ، كان في اعمالها كلها من الفها الى يائها ، عملا واحدا يحمل على اعطائها شيئا من هذه النتيجة التي ترقبها ، او تتظاهر بترقبها !

وواقع الحال ان « اسرائيل » في هذا الموقف تنبيء عن جهل مخز بحقائق الامور ، وعجز فاضح في العقلية التي تسير حكامها ، سواء كانت صادقة او كاذبة ، مخلصة او مرائية ، اذ لا يبعد انْ يكون دعاتها قد صدقوا ما يذيعون ، واخذوا بالاضاليل التي يبنون ، فخيل اليهم ، وقد عموا عن رؤية الحقائق ، ان في الامكان قتل امريء ومفاوضته في آن واحد ، او اهانته وحمله من بعد على اكرام من اهانه ، او تعذيبه وجره الى اسعاد من عذبه . انهم يزرعون الاشواك ويريدون من العرب ان يقدموا لهم طاقات الزهر ، ينهالون عليهم سياط بلاء ثم يناشدونهم ان يصدقوهم اذ يتحدثون عن الصلح والسلام !

تلك هي المشكلة . وليس في مفكري العصر من طرحها على حقيقتها، واستند الى الواقع في طرحها .

ها هو جان – بول سارتر ينطلق نحو طرحها من قاعدة فلسفية خالصة ، محاولا ان يحلها ، بعد ذلك ، على اساس من الفلسفة التي يدعو اليها : « اللاسامي يأخذ على اليهودي ان « يكون » يهوديا . والديمقراطي يمكن أن يأخذ عليه عفويا ، أن « يعتبر نفسه يهوديا . ويبدو اليهودي بين خصمه ومحاميه في وضع جد سيء . انه ليس له ، فيما يظهر ، أن يعمل شيئا الا أن يختار نوع الحساء الذي يؤكل فيها. يحسن بنا اذن ان نلقي بدورنا السؤال : هل اليهودي يوجد ؟ واذا كان موجودا ، من هو ؟ هل هو يهودي أولا ، ام انسان اولا ؟ أيكمن حل المشكلة في ابادة جميع الاسرائيليين أم في تمثلهم على نحو كلي شامل ؟ أم أنه لا يمكن تبين طريقة أخرى في طرح المشكلة ، وطريقة اخرى في حلها ؟ » (١)

أن سارتر لا يميز في مواجهة الوجود – وذلك هو عيب فلسفته الاكبر – بين الوجود في الزمان ، والوجود في المكان ، ثم لا يرى بوضوح ان للوجود نفسه في المكان ، صفات محض انسانية ، وان تقرر لديه أن وجود وحدات من الجيش الهتلري على ارض فرنسا بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٥ ، غير شرعي ! وعذره انه وضع كتابه « تأملات في المسألة اليهودية » عام ١٩٣٨ . ولكن ما عذره اليوم في تبرير الوجود الاسرائيلي على ارض سيناء ، وقطاع غزة ، ومرتفعات الجولان ، والضفة الغربية للاردن ؟

الحقيقة أن « اللاسامي » في الوطن العربي اليوم هو الاسرائيلي. فهذا « الاسرائيلي » هو الذي يأخذ على العربي أن « يكون عربيا » ، وهو الذي ينكر على الفلسطيني أن « يعتبر نفسه » عربيا ، وهو الذي يريد ان يحل المشكلة بابادة جميع العرب ، ويحاول أن يرسل عرب فلسطين الى كندا ليتم هناك تمثيلهم على نحو كلي شامل !

والحقيقة أيضا أن مشكلة الاسرائيلي تكمن في طمعه بحقوق الآخرين ، واعتدائه على هذه الحقوق ، ووجود من يناصره على اطماعه واعتداءاته قديما وحديثا .

أما أنه انسان اولا ، أم يهودي أولا ، فالمسألة تطرح على صعيد السياسة دون ان نغير جوهرها هكذا : هل اليهودي في روسيا مثلا مواطن روسي اولا ، أم يهودي اولا ؟

لقد أجاب رجل مثل بيريا عن هذا السؤال انه يهودي أولا ، ولذلك حاول « ان ينسف الدولة السوفياتية » كما جاء في صيغة الاتهام الرسمي . ودريفوس في فرنسا كان قد اجاب قبل بيريا الجواب نفسه. وما يقال في بيريا ودريفوس ، يقال في كل مواطن ينصرف ولاؤه الى غير وطنه ، وشعبه ، وأمته .

وسارتر ينسى ان لكلمة « انسان » محتوى أخلاقيا ، واجتماعيا ، وسياسيا ولا سيما في هذا العصر . فالمجرم انسان شكلا ، والخائن

(١) المصدر السابق ، ص : ٦٩

صدر حديثا



مجموعة قصص

بقلم

اديب نحوي

الكتاب القصصي الثالث ، بعد « حتى يبقى العشب اخضر » و « جومبي » ، لقصاص اصيل هو نسيج وحده في كتاب القصة العربية المعاصرة ، بفنه الحي ونزعته الانسانية وروحه الالتزامية الصادقة

منشورات دار الاداب ٢٥٠ ق.ل

انسان شكلا ، ولا يصح ولا يجوز أن يكون الوجود الشكلي قاعدة في تركيز العلاقات ، وتوزيع الحقوق والواجبات ، لان المصير هو الحكم الاخير ، والقاضي الطبيعي في مثل هذه الشؤون ، ولا أصدق أن سارتر يرضى بأن يكون مصير الخائن والمجرم كمصير الوطني المخلص !

— ٦ —

ها قد وصلنا الى الجانب العملي من هذا البحث ، وهو أن لا حل للمسألة اليهودية من الخارج ، خارج الذات التي تعاني المشكلة . وكل تدخل فيها يزيدها تعقيدا ، ويعود على المتدخلين بأفدح الإضرار ، أن لم تكن في الحال ، ففي الاستقبال ، ولا فرق بين أن يكون ذلك التدخل في مفهوم القائم به لمصلحة اليهود ، أو لمصلحة المبادىء العامة المتعارف عليها كالعدالة ، والديمقراطية ، والانسانية ، لان لليهود « مفاهيم خاصة » لهذه المبادىء ، وقد رأيت كيف نادوا أول الامر ب « دولية » قضيتهم ، ثم ارتدوا ضدها ، وأصبحوا يتهربون من المواثيق والقوانين الدولية .

ذلك يفيد أن افضل حل يمكن اعتماده بصورة رياضية مطلقة ، هو ان يترك اليهود — و « اسرائيل » على رأسهم — لمصائرهم التي تحددها حقيقتهم من جهة واعمالهم من جهة أخرى .

ان موقف العرب تجاه المسألة اليهودية أقوى ، رغم كل الظواهر ، من المواقف التي اتخذتها وتتخذها الامم الاخرى ، فليس في تاريخ أي بلد عربي ، انه « اضطهد » اليهود لانهم يهود ، وليس من نزعة العربي ، على العموم ، ان يستعدي الناس على من يعاديه ، كما هو شأن اليهودي تجاه العرب في البلدان الغربية .

هناك خطر واحد يجب على العرب ان يتفادوه ، ويستمروا في مقاومته ، هو هذه « النظرة » الجديدة اليهم ، من خلال المنظار الذي وضعه اليهود على عيون الناس هنا ، وفي كل مكان ، ولا سيما في الآونة الاخيرة ، اذ تصور اليهود انهم انتصروا ثلاث مرات ، ونسوا انهم كانوا ، ولا يزالون ، «أداة» في أيدي الذين أدوا لهم « الخدمات »، ومكنوهم من « النقطة » التي يزعمون انهم انتصروا فيها .

وانما يكون تفادي هذا الخطر ، وتدارك آثاره ، في السلبية المطلقة تجاه كل ما هو اسرائيلي ، ومن هو اسرائيلي ، والايجابية المطلقة تجاه كل دولة عربية ومصلحة عربية ، وقوة عربية ، على ان يضع العرب في اعتبارهم الدائم ان ملاذهم الاخير في تعاونهم ، وتساندهم ، وتدارك عوامل الشقاق في صفوفهم ، بحيث يعملون دون انقطاع ، على « درس » الحالات التي تسيء الى مجموعتهم ، وتشوه تاريخهم ، وتجرح كرامتهم، ويجندون قواهم بعد ذلك ، لمحو تلك الحالات ، وتبديلها ، في صمت وهدوء من غير تعرض بالسوء ، حتى للذين اساءوا اليهم ، وكان اليهود السبب في تلك الاساءة .

ان ما يطلب الى العرب ، في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخهم ، ان يقوموا بالخطوات الوئيدة الثابتة لايصال « اسرائيل » الى مصيرها المحتوم ، ان يعينوا القدر الاسرائيلي على الوقوع ، دون ان يتحملوا فيه أدنى تبعة ، فان من عادة اليهود أن يرفعوا التبعة عن كواهلهم ، ليلقوها على عاتق غيرهم ، وينسوا ما قدمت ايديهم من مساوىء وشرور ، كما أن من عادتهم أن « يحدثوا » ضجيجا تستك له اسماع البشر .

ذلك هو سحرهم ، فليكن همنا ان ينقلب السحر على الساحر ، وتصبح دعاياتهم ضد العرب مع العرب ، اذ تأتي الوقائع وتبين أكاذيبهم، والعرب صامتون ، و « اسرائيل » ، بعد كل حساب ، كغيرها من الدول الباغية ، لا يمكن ان تجني سكرا من الحنظل ، ولن تحصد الا ما زرعت .

هذا هو مصيرها ، فلندعها تمضي نحوه ... ولها الهزيمة والخزي والخسران .

عبد اللطيف شرارة

صدر حديثا :

الرواية الرائعة التي كتبها الروائي العربي الاول

الاستاذ نجيب محفوظ

والتي طال انتظار القراء العرب لها
في كل مكان

أولاد حارتنا

* أجرأ وأخطر ما كتب مؤلف الثلاثية الشهيرة
* الرواية التي أثارت ضجة كبيرة لدى نشرها في جريدة « الاهرام » منذ سنوات فلم يتح لها أن تصدر في كتاب ...
* تنشرها « دار الاداب » اليوم في اخراج أنيق وطباعة فاخرة

الثمن ٧٥٠ ق. ل.

الزحام

ولدت ذات مرة
ولم أكن أحب أن أعود
أمسكت جدران الرحم
لكنهم داروا علي ،
أخرجوني من جدار الخاصره
وعندما فاجأني الضوء .. بكيت ،
عذبتني الذاكره

***

سرنا في درب واحد
ورغيف في يد كل مسافر
سرنا في القيظ ،
تيبست الاحزان
ورفضنا أن نأكل هذا الخبز
طاردنا الجوع على الرمضاء ،
فذهلنا وركضنا خلف سرابه
نشف الريق ولم نيأس
فمشينا يوما
وركضنا يوما
وترنحنا ..
وتلوينا أيام
والرمل يعبىء أحذية الجمع الهائم
وعلى الاوجه ، تحت الشمس ،
تصببت الاحزان
فخلعنا ألبسة الماضي ..
ولبسنا الرمضاء
ومشينا دون حذاء فوق الرمل المشوي
الموتى ملأوا أجساد الاحياء
ومن الاضلاع يشب الحزن
(حزن عفن كروائح أفواه الموتى)
ونكز على الخبز اليابس
لكن تتساقط في الرمل الاسنان
يا رمل بماذا يحيا الانسان ؟

***

كنا على الشطآن واقفين ..
يابسين
وكان يجري صوبنا الموت البطيء والفرح
كموجة تهيم نحو شاطىء ما زال ينتظره
لكنها ، وقبل أن تلمسه ،
تشهق ثم تنكسر
الحزن كالرماد .. كالرماح ..
كالرمال الناعمه
ينهر حبة .. فطعنة .. فحبة من الضلوع
وكالرياح يلهب الرمال فارس الدموع
وحين نهفو صوب قطرة المطر
تصر في أجسامنا المفاصل اليابسة المهترئه
مثل جفون صدئه .
« كنا قوافل مسافره
عبر ضباب اليأس صوب قبرنا الموعود
لكننا همنا نعفس المشيعين صوب الاخره
قبل فرار الدود
ودون أن ندري حملنا الذاكره »

***

أوقف عاملة التفريخ
فوجوه الاطفال انسكبت كالغيم
فاجأها جوع التاريخ
الحزن المتغلغل في الاضلاع نما كجنين
لقحنا منه بدء التكوين
والامل الرابض فوق مآقينا عنين

***

لما عبرت كربلاء
سمعت من يبكي المسيح
وحينما شبعت مرة عن الطعام والبكاء
أرعبني تنهد الحطيئة الطريد في فمي
وحينما طاردت في المدينة النساء
حملت جوع يوسف الصديق في دمي »
لانهم داروا علي
أخرجوني من جدار الخاصره
وعندما فاجأني الضوء .. بكيت ،
عذبتني الذاكره

دمشق

ممدوح عدوان

جامعو الجثث

قصة بقلم محمد خضير

احدثت الحفرة جانب احد أبواب السور من الخارج ، وكانت أول ثلاث جثث نقلها متطوعو نقل الجثث للحفرة ملقاة لصق السور ،قرب الحفرة . وفي مكان احدى الجثث التقط احد الرجال ميدالية برونزية أراها لزميليه في داخل الحفرة . قال أحدهم :

ـ ميدالية كرة القدم .

كانت الجثث الثلاث مصفوفة ، ووجوهها للسماء وكأن الاعين النصف مفتوحة فيها ترقب الدخان الكثيف الذي يجتاز السور ، ولم تكن ملوثة بالدماء كأنها لم تقتل ، غير أن بقعا داكنة ضيقة موزعة في عدة أجزاء منها تشير الى ان الموت نفذ من هناك . قال جامع الجثث أعلى الحفرة :

ـ ليتهم ماتوا كلهم هكذا . وليتهم سيموتون هكذا .

ـ انهم يحرقون شيئا .

ـ اوراق وثياب .

وسحب أحد جامعي الجثث في الحفرة طرف صورة من جيب سروال جثة ، وكانت صورة لفتاة وبعد أن عرضها على رفيقيه أدخلها أحد جيوب قميصه الابيض :

ـ سيتعرف عليها أحد .

ـ اني أعرف الجثة . ابن الحاجة وهيبة . نجح للثانوية هذا العام . والصورة لابنة الاسكافي حمدان . الاثنان في الثانوية .

ـ هاجرت الحاجة أمس لعمان مع عائلة حمدان . رأيتهم أمس في شاحنة يهودية .

قال الرجل في أعلى الحفرة :

ـ سدوا الاعين . بقوا ينظرون خمسة أيام طويلة دون نوم .

وأطبق الرجلان في الحفرة الاعين المفتوحة ، ثم ساعدهما الاخر على الخروج . وسمعوا طلقات نارية :

ـ ما زال هناك قتل .

أخرج أحدهم منديله وكمم فمه ، وفعل الاخران كذلك . كان منديل الرجل الاول أحمر يتعلق به مخاط يابس ، وكان المنديلان الاخران قريبين من الزرقة والخضرة الداكنة :

ـ ذلك كي لا نتذكرهم طويلا . وستعرف الدوريات مهمتنا فنحن ننظف المدينة .

ـ عشر سنوات لا تكفي لتنظيفها .

ـ لو نعصب عيوننا لا أفواهنا .

ـ الامر سواء .

كانوا يغطون رؤوسهم بكوفيات بيضاء وعقل رفيعة سوداء ، ولقد عقدوا المناديل فوق الكوفافي . ساروا بمحاذاة السور وكانت ظلالهم تنسحب على بصمات أكف مدماة غطت ندوب حجارة السور التي كأنها حفرت بأظفار حديدية . ومن قوس البوابة المحاط بثلاثة أقمار حجرية، تدلى سلكان مقطوعان . ومر جامعو الجثث بجنود اسرائيليين يثبتون السونكيات في بنادقهم ويختفون في عتمة ثنية البوابة ، ثم خرجوا للضوء ثانية وبرزت رؤوسهم من بين رؤوس مدببة ، كانت ظلالا لرؤوس حجرية مدببة تتقارب في أعلى سور البوابة كأوثان كنعانية . وداخل السور هنا كان الدخان المشوب برائحة الاوراق والثياب يأتي من اليمين . وخلال الدخان تلوح الحافات المستقيمة المتوازية للاسطح، تنفتح تحتها الاقواس المتراكبة ، وعموديا عليها ترتفع بتفاوت الابراج والقباب وأعمدة الراديو وأعمدة المظلات والصلبان والنوافيس . وتحت الشمس المقلوبة الوجه ـ لان ضوءها لم يكن يشمل كل الارجاء ولانه كان متدليا في الاثير كثنيات ثوب ناصع البياض دقيق النسيج ممزق الحواف ـ كانت قبة الصخرة تتكور بخلسة خلال فتحات الاسطح ، كنهد العذراء .

كانوا قد قطعوا ساحة مقفرة بعد البوابة وارتقوا درجات الى حارة قصيرة مفتوحة هدمت نوافذها ـ ولم يخلف الموت لحد الان اية جثة ـ ثم انتهوا الى مفرق أزقة مسقوفة . قال جامع الجثث المكمم بالمنديل الاحمر للاخرين :

ـ لنتفرق . ولنجمع الجثث القريبة اولا ونحملها للحفرة.فتشوا هذه الحارة . بعضهم جر جثث معارفه الى ما خلف الابواب .

ثم تركهما واتجه لحارة مسقوفة مسوية . اختفى ثوب الشمس واصبحت حوافه الدقيقة النسيج تدلي خيوطها من فتحات السقف العادية ، ومن فتحة كبيرة أحدثتها قنبلة محرقة في حجارة السقف المعقودة . وتحت الفتحة الكبيرة تميل عربة ذات مقبض مفرد على كوم انقاض ، يقسمها الضوء الهابط من الفتحة لنصفين ، كما يقسم جسما ممدداً داخلها ، ميتا ، محترق الاطراف والوجه . سحب جامع الجثث العربة ففارت عجلة منها في كوم الانقاض وسحبت معها الاحجار والزجاج وقطع الشمع من مظلات الدكاكين ومزقا من اوراق الصحف . كانت العجلة مائلة . وشاهد جامع الجثث رأسا هرما أغبر برز من دكان قريب . وقال الرأس الاغبر :

ـ هاك سلكا لتصلح العجلة .

قال جامع الجثث :

ـ حسبت دكانك خاويا .

ـ لم يتركوا شيئا ليباع .

ـ لم تفتح اذن ؟

ـ لا عمل لدي . ولا بيت . هذا السبب .

كانت الدكاكين المجاورة والمقابلة خاوية ، وبعضها موارب المصاريع دون اقفال . وفي فسحة بين بابي دكانين متجاورين ، تحطم فانوس انفصل عن مقبضه المزخرف المثبت للجدار الحجري وتدلى للاسفل بسلك دقيق جدا ، دائرا حول نفسه ببطء شديد . وانهمك جامع الجثث في اصلاح عجلة العربة ، وتوقف جنديان اسرائيليان عند الدكان واغتصبا من صاحبه علبة ثقاب بعد نقاش عصبي قصير ، ثم انتزع احدهما الفانوس المعلق برأس بندقيته ، ولم يبديا اهتماما بجامع الجثث وهما يجتازانه ويبتعدان . قال صاحب الدكان :

ـ هكذا ستجري الامور .

قال جامع الجثث :

ـ ابحث عن عمل آخر . لم لا تنضم الينا ؟

ـ فكرت في ذلك . ولكني اعرف القتلى جميعهم . وهم يمرون كل الاوقات في طريقهم للمقهى ! الغريب عنهم هو الذي يستطيع دفنهم . هذا هو السبب .

وسحب جامع الجثث العربة مارا بالدكان ، قال صاحبه :

ـ هربت بهيمتها وبقي صاحبها المحترق غافيا فيها . بقيت يومين

أرقبه ثم كففت . كان قد جاء من رام الله قبل الحرب بيومين لكنه لم يعثر على أقاربه ذلك الصباح .

وفي نهاية الحارة المسقوفة خرج جامع الجثث من القوس للضوء ـ ضوء يوم المعراج ، وابتدأت حارة اخرى مفتوحة . ومن هنا ، كان يرى ذلك الضوء يهبط للحارة السابقة من فتحات السقف بحزم منحرفة تكون مع بعضها صلبانا متداخلة تخترق ضباب الموت الذي خلفته القنابل وتنفرز في أعيرة الرمل التي جلبتها سراويل الجنود وأحذيتهم . كما انقطع هنا في الضوء فحيح الارواح التي بقيت تحمي الجثث الملقاة هناك ، ولعلها ستغادر سريعا ذلك النفق ، حاملة معها الصلبان الضوئية الى حيث لا يعلم أحد . كانت الحارة المفتوحة اسفلتية ، أكثر اتساعا ، تنحصر بين قوسين ، تحوي مقهى وأنابيب عديدة للمجاري ونوافذ متقاربة ومتقابلة تبرز عن الجدران الضيقة ، وكل الابواب فيها مغلقة ، ولا شيء فيها يدل على أن الحياة التي غادرتها ستملأها عن قرب ، واذا ما عادت فانها ستبقى مرة وقاسية ، غريبة .

كان باب المقهى محطم الزجاج ، مقشر الصبغ ، أحدثت رصاصات عدة ثقوب فيه . وعلى الدرجات القليلة للمقهى استلقت جثة شابة . ولان الجثة كانت تستقر على درجة والرأس يستقر بين اليدين الممدودين على درجة أعلى ، فان الظهر الذي تمزق عنه القميص كان يكشف بوضوح عن النجمة السداسية التي رسمت على اللحم الابيض بطرف سونكي حاد ، وقد تخثر الدم بأضلاعها وغدت داكنة . رصف جامع الجثث الجثة الجديدة لسابقتها في العربة . وتلا المقهى قوس يؤدي بسلم مسقوف الى قوس اخر . وفي قمة القوس الاول تتجاور نافذتان مرتفعتان مهدمتان تطلان على الحارة ، يميل بينهما صليب خشبي مقصوف . ومن احدى النافذتين تتدلى يد رخوة للخارج ، انتشرت حولها الحفر أحدثها الرصاص في الجدار . وهز جامع الجثث بابا قريبا فوجده مقفلا من الداخل . غير أن أنبوبا للمجاري كان يرتفع جانب الباب لصق الجدار ، ينتهي أسفله بمسيل مياه غير جافة تسربت بين حجارة الارض . وتجاوبت خطوات سريعة باضطراب من داخل سلالم القوسين . ثم بانت ثلة أشباح متراصة تهبط سلم القوس الثاني ، وضحت في سلم القوس الاول بثيابها المسربلة ورؤوسها الملفوفة بقطع القماش المشجرة ـ كانت جماعة عجائز يهوديات تتبعهن دورية اسرائيلية . وأطلت عجوز تحمل صرة تحت أبطها في باطن العربة وأخذت تنشج ، تلا ذلك صرخات عبرية متبادلة بين العجوز والجنود ، بينما أبعدت الخطوات السريعة نقرب الحجارة في خبب يهودي . ترك جامع الجثث الباب ، حيث انتبه لجثة على احدى درجات السلم داخل طاق القوس الأول . كانت جثة نقية أخرى كان سكتة قلبية أودت بها . كل بلاطة في جدار طاق القوس تستقل في وضعيتها وبروزها ومساحتها عن البلاطة الاخرى . وتبعثرت على البلاطات ذات المساحات الهندسية المستطيلة ، فوق الجثة ، كتابات الطباشير والبوية والرسوم الحيوانية وخارطة رديئة لفلسطين رسمت بالفحم . وما أن استقرت الجثة على كتف الرجل المكمم حتى اصطدمت عيناه بكوة في الجدار المقابل ، يطل خلفها وجه صغير . كانت الكوة والباب ذا انبوب المجاري والنافذتان المهدمتان لبيت واحد . قال جامع الجثث :

ـ ما تفعلين هنا يا صغيرة ؟

وغاب الوجه عن الكوة ، وهبط جامع الجثث الدرجات . وبعد أن مدد الجثة في العربة ، وجد أن الباب مفتوح ، فتبع الصغيرة صاعدا سلما مظلما . كانت الصغيرة ترتدي تنورة حمراء تتقاطع حمالتاها على فانيلة مثقبة . وقادت البنت رجل الجثث لبهو النافذتين المطلتين على الحارة . كانت الجثة جالسة ويدها خارج النافذة . حول الجثة كان كل شيء قد مسه الاحتراق .. دفاتر وحذاء وثياب مبعثرة وأغلفة طلقات وصورة سقطت من مسمارها ونثار اشياء مجهولة. كانت الغرفة وسخة ، وتحتوي كذلك على أريكة مقلوبة بدون فراش. جلست الصغيرة على قدم الاريكة المقلوبة . قال جامع الجثث :

ـ لم تتركين يده للخارج ؟

ـ أخاف مسه . هذا أخي .

ـ أيوجد اخر في البيت ؟

ـ لا . ذهبنا لاقاربنا في باب الخليل . وأقدم كل صباح لابقى جانبه ولا أقدر أن أمسه . كنت أنتظر من ينقله . كان يدرس للامتحان. أين ستنقله ؟

ـ سندفنه يا بنيتي . اذهبي لاهلك الان .

ـ بقي يضرب الرصاص صباحا وبعد الظهر . ثم قذفوه بقنبلة . وصعدوا فأخذوا بندقيته وطردونا وأخلوا البيت كله .

ومن النافذتين المرتفعتين كان جامع الجثث يرى تقوسات أخرى وسطوحا نظيفة واسعة تتدرج تحت الابراج . وأبعد من تلك السقوف التاريخية المقصوفة للكنائس والدور الحجرية والاديرة التي تنفتح بينها الممرات والحارات والساحات ، خارج السور الواطىء الذي تختفي أجزاء منه ، في ذلك العراء النقي ، هناك ، تتوالى أشجار الزيتون السوداء الساكنة تماما على حافات التلال والهضبات المتدرجة في الارتفاع ، محاذية للطريق المبلطة . بينما الاف الطرق الاخرى غير المميزة تنساب بين المرتفعات وتنتهي عند السور . كان للارض العارية في البعيد ، هناك ، لون البشرات الميتة . والهواء ساكن . كما ان الاصوات غير الانسانية للسيارات في الشارع المجاور والطلقات المتقطعة تستمر في تقطيع نسيج الحياة العتيق وتتلفه ـ لا عصافير أو طيور مهاجرة ، لا صراخ طفل أو أغنية . لم يكن يسمع صوت مذياع قط . كلا ، ولا يرى حبل غسيل . ولكن جامع الجثث سمع وقع أحذية على حجارة الحارة كان لجنديين اسرائيليين يتبعهما ثلاثة صبيان عن بعد .

حمل جامع الجثث جثة الشاب وهبط بها ، تتبعه الصغيرة ، ثم رصفها في العربة . جر العربة من مقبضها الذي كانت نهايته تشير لاسفل ظهره .

نفذ جامع الجثث بالعربة الى أحد شوارع المدينة المداوخة ، وخلفه كانت البنت الصغيرة تمشي الى جانب العربة . كان يتفادى سقوط عجلتي العربة في حفر اسفلت الشارع وأنقاض الآجر والخشب المتناثرة ، كما كان على جامع الجثث أن يتغاضى عن النظر للجنود على الارصفة يقفون بجمود وكأن رؤوسهم المظلمة تفهم ان مكبرات الصوت كانت تذيع من أجل شطبهم وان الناس يتبدلون باستمرار وانهم يتنفسون غازات سامة . ومرت شاحنة اسرائيلية كانت تلتقط المهاجرين ، لوثت عجلاتها وكتاباتها العبرية في مؤخرتها بالطين والاتربة.

تبادلت البنت كلمات حادة مع الاولاد . كانت تقول :

ـ هذا الرجل ليس أبي . ولكن أخي هنا في العربة .

وأخبرها ولد صغير :

ـ اطلبي شيئا يا بنت من الجنود وسيعطونك . انهم يوزعون الحلوى .

وقالت الصغيرة :

ـ لن أطلب .

ثم ركضت خلف العربة . وقال لها جامع الجثث :

ـ اذهبي يا بنيتي . اذهبي الان وخبري أهلك اني سادفنه وكفي عن متابعتي كالجروة .

ولكنه لم يبد عليه انه راغب في صرفها .

كانت الشمس تتفتت كلما تقدمت الظهيرة ، وكأنها تحتجب خلف أبخرة حديد منصهر . ومرت شاحنتان تقلان مهاجرين جددا . ثم عاد ذلك السكون القلق الذي يحيط عادة دمى متحركة تقدم أعمالها البهلوانية . وانبثق فجأة صوت ميكروفون كان يقترب من خلف العربة. واجتازت العربة سيارة عسكرية بطيئة تحمل ميكروفونا يتفاءل ـ باسم الحاكم الجديد ـ ان الهدوء والسلام سيعودان ليحلا في مدينة القديسين ، وان الاعمال الارهابية غير الحكيمة ستحول هذه المدينة

المقدسة الى بحيرة دم . كان الصوت الخشن الذي يتكلم العربية يحاول نطق : اننا نريد السلام . ومن الممكن تصور الشخص المحتجب في سيارة الميكروفون كأحد الحيوانات التي كانت تنطق في العصور السحيقة ، وهو يقول : أليس محتملا أن يقوم المسيح في هذه المدينة وحينئذ سيجد اليهود والمسيحيين والمسلمين يعيشون سوية على هذه الارض القديمة . ثم دخلت سيارة احدى الحارات . وفي باب تلك الحارة كومت كتل حجارة تستقر فوقها خوذتان وقطع معدنية صغيرة أخرى .

وحين قاربت العربة كوم الحجارة ، اندفع خارجا من الزقاق رجل يركض سرعان ما انهار وسط الشارع ، مستقرا بوضع الركوع ، ثم همد ، بعد أن أصابته رصاصات جنديين اسرائيليين كانا قد خرجا من الزقاق وأدركاه . وركله أحدهما بحذائه فانقلب متكورا ــ شابا دون سلاح . وأمر الجندي الاخر جامع الجثث كي يرفع الجثة للعربة . وأفسح رجل الجثث مكانا للجثة الجديدة ، ثم رفعها ورصفها في المكان الخالي ، غير ان أحد الجنديين ، يتكلم العربية ، قال :

ــ لم فسحت له مكانا ؟ انك تعتني به .

قال جامع الجثث :

ــ ذلك لا يهم بعد أن مات .

قال الجندي :

ــ ولكنه يهمني .

ــ أخفض جامع الجثث منديله الاحمر عن فمه ، وقال :

ــ أنا أعرف كيف أضعه . هذا عملي ولقد انتهى عملكم بقتله .

ثم أعاد المنديل لفمه ، لكن الجندي خفضه عن فم جامع الجثث ، فبقي المنديل حول الرقبة ، وأمره أن يجر العربة .

* * *

الحفرة الان تضم جثثا عديدة ، تراكم بعضها فوق بعض ، وفي السماء كانت جثة الفراغ المحلقة ، ذات الاستطالات الشمسية ، تمتد دون حدود واضحة هناك فوق المدينة الساخنة ، وهنا خلف السور . وعلى بعد من الحفرة يقف جامعا الجثث الاولان وقد أزاحا منديليهما ، واقر أحدهما :

ــ الرائحة لا تهم .

وقرعت أجراس خلف السور ثم صمتت . وارتفع اذان الظهيرة ثم انقطع في منتصفه . وجلس أحد رجلي الجثث مستندا لجدار السور دون أن تمس عجيزته الارض . وقال الاخر :

ــ شاهدت اخرين ينقلون الموتى .

ــ في كل مكان كانت هناك جثث .

ــ وأين الاخر ؟

ــ لا بد انه ذهب بعيدا عن البوابة .

وظهر في بوابة السور جندي اسرائيلي أوما للرجلين ، فاتجها نحوه . وفي داخل البوابة شاهدا جنديا اخر يقف عند عربة ملأى بالجثث . ولصق عجلة العربة استلقى رجل ، لم يمت بعد ، يحيط رقبته بمنديل أحمر ، وينفصل عقاله عن رأسه . قال جامع الجثث المحتضر لزميله الجاثي فوقه :

ــ ضعوني في الحفرة فوقهم .

وحمل جامعا الجثث الرجل والقياه فوق جثث العربة على بطنه . وعلى ظهره ظهرت عدة طعنات سونكي نافذة . تبع الجنديان العربة التي سحبها جامعا الجثث كل من جهة ، وكان مقبضها يمس الحجارة ويحدث صوتا في انسحابه .

استند الجنديان لحائط السور ، بينما أفرغ رجلا الجثث العربة ، واختلطت الجثث ببعضها في الحفرة . أمر جندي :

ــ ردا التراب .

وحين انتهى رجلا الجثث من مساواة الحفرة بالارض ، انسحب الجنديان ، وغابا في قوس البوابة . قال أحد الرجلين :

ــ لقد فقدت قلبي . لا أستطيع أن أحزن أو أبكي .

قال الاخر :

ــ ليتهم سيموتون كلهم هكذا .

وكانت تراقب عملية الدفن بنت صغيرة لم يعرها أحد اهتماما . وافترق جامعا الجثث في جهتين مضادتين ، دون موعد اخر . وسمعت الطفلة أحدهما يخبر الاخر :

ــ نحن لا نعرف بعضنا وهذا أفضل .

وبقيت جثة الفراغ العظيمة تمتد فوق المدينة والعراء ، باستطالاتها الشمسية ، ولا يبدو ان بالامكان دفنها أو ازالتها ، وانها ستعاود الظهور في كل صباح جديد أبدا .

وجلست الطفلة فوق تراب الحفرة ، ترقب أشجار الزيتون البعيدة ، التي تلوح لها في وهج الشمس كأجساد منحوتة سوداء تنبثق من باطن الارض المرتفعة وتعرج نحو السماء .

محمد خضير

يسر دار الاداب ان تقدم

ادونيس

في ديوانه الجديد

المسرح والمرايا

ديوان كبير لشاعر كبير

يصدر قريبا

الظل والقاع

سحابة مسافره
حطت على الثلوج ثقلها ، عظامها المبعثره
لا تمطر الغيوم في الشتاء
غير الطيور الفضة المهاجرة !
الله حين ترتدي أكفانها البيضاء
وتلتوي أعناقها على التلال المقفره
سحقا لها بوابة السماء !
من أين لي ؟ تنوشني أحزاني المخضوضره
وذلك القطار ينبح الذرى ، وينهب الفضاء ؟

***

حقيبتي يا صاحبي فقيرة المتاع
ردائي القديم رتقت خيوطه أصابع الضياع

***

تيبست على الزجاج
رمال هذا الثلج ، شقت دربها الرجراج
في حلقي الصبار والزجاج !
بالله لا تقل من أين
يا أبي : فالعين تسخو بالجراح .. العين
اللفظ كالحجار ، والصبار كالذراع
ان كان بعد ساعة او ساعتين
عواصف النسيان تذرو ظلنا في القاع ! »

***

فلنحكم الرتاج
يثيرني المذياع ، صوته المغناج

***

« سمعت يا أبي صداح قبره
يوما يهيم في دجون مقبره ! »

***

« رأيت أعمى يوقد الضياء
في عتمة البيت الترابي الطلاء
لكنه لما يره !
وأين تنزح الطيور في الشتاء ؟
كأنها في الدفء لن تعود
تلوك ذكرى أمسها المعفره »

***

قد أقلعت زعانف السحابه
وأمطرت في القلب زخة الكآبه

***

يا أيها الباب الحديد
أغلق علينا سجنك الجليد

موسكو

جيلي عبد الرحمن

على هامش ترجمة كتاب

«ماركسية القرن العشرين»

بقلم نزيه الحكيم

« ان الجزائري ذا الثقافة الاسلامية يستطيع ان يصل الى الاشتراكية العلمية بدءا من منطلقات اخرى غير سبل هيجل او ريكاردو او سان سيمون . فلقد كانت له هو الآخر اشتراكيته الطوباوية ممثلة في حركة القرامطة ، وكان له ميراثه العقلاني والجدلي ممثلا في ابن رشد ، وكان لديه مبشر بالمادية التاريخيه فيشخص ابن خلدون. وهو على هذا التراث يستطيع ان يقيم اشتراكيتــه العلمية » .

هذا النص المقتطف من الكتاب الذي بين يـديك ليس تلخيصا لفكرته ولا هو اهم ما فيه . ولكنه فينظري يستحق هذا الابراز لاكثر من سبب .

واول هذه الاسباب ان المؤلف ـ باختياره من بين شعوب العالم الثالث هذا المثال العربي ، واعلانه انه بتراثه الثقافي الخاص مؤهل للوصول الى « اشتراكية علمية » عربيه ، فلا تتهم بالهرطقة وان لم تكن «ماركسية لينينية» ـ يأتي بالجواب الحاسم حلا للجدل اللفظي الذي احتدم طويلا بين مثقفينا التقدميين ، (ولاغراض سياسية في الواقع لا عقائدية ولا علمية) حول الاشتراكية التي تأخذ بها بعض اقطارنا وهل تكون « اشتراكية عربيـــة » أم « طريقا عربيا الى الاشتراكية » . ان مجرد القول العلمي بأن النظام الاجتماعي والسياسي لبلد ما مرهون بالظروف الموضوعيه الراهنه والموروثة (دون ان يقال انه حصيلـة لها) يستتبع ان تكون هناك اشتراكيات مختلفة ، تكون « علمية » حقا بقدر ما تنسجم في تغايرها مـع تغـاير ظروفها البيئية . ولذلك يصح القـــول ـ مثـلا ـ ان « اللينينية ـ الستالينية » لم تطبق في روسيا العقيـدة الماركسية بقدر ما دمغت هذه العقيدة فيها بميسم التراث القيصري . ومثل هذا القول ينطبق على بلدان وانظمة أخرى كثيرة ...

ويتصل بهذا سبب اخر ، هو ان المؤلف ـ وان كان طبيعيا ومؤسفا معا انه في بحثه الفلسفي هذا عـــن الماركسية لم يعرض لمسائل القومية والامة ـ قـد طرح بمثاله هذا قضية القومية العربية وعنصر تراث القيم الاسلامية فيها طرحا غير مباشر ، وكأنه امر مسلم بـه من وجهة النظر الماركسية . ولعل من الاصح ان نقول : تكسب الماركسية كسبا كبيرا اذا هي بلغت مـن النضج والانفتاح درجة التسليم به والاغتناء بميراثه ، بعـد ان ظلت دهرا طويلا ـ باسم « عالمية البروليتاريا » التي لم تتحقق ـ تقيم حاجزا ضعيفا بينها وبين الواقع القومي، و ـ باسم العلم ـ تقيم حاجزا صفيقا بينها وبين الشعور الديني وانعكاساته الحضارية .

وهذا يقودنا الى السبب الثالث ـ والرئيسي في مجال بحثنا هنا ـ وهو ان ما في النص الذي اوردته مـــن استعداد لقبول اشتراكية « علمية » غير ماركسية، صادر عن واحد من ابرز فلاسفة الماركسية اليوم ، يعطي القارىء العربي صورة عن مدى جدية التطور الذي يمر به الفكر الماركسي في هذه الحقبة ، ولا سيما في البلدان المتقدمة التي لم تنتصر فيها الاشتراكية بعد ، حيث لا تحول دونه دواعي الاحتفاظ بالسلطة ... وهذا التطور هو الكسب الضخم حقا ، والذي يحق لنا ان نأمل مزيدا من ضخامته. وهو ايضا كسب عربي ، او يمكن ان يكون كذلك ، لاننا اذا وعيناه ـ ونحن ، في بداية مسعانا الجديد للخـروج من القاع ، مدعوون للانتفاع بتجارب الاخرين، وافكارهم قبل صياغة حياتنا الجديدة ـ فلن نجد انفسنا (بعـد تحررنا من العقلية العشائرية والطائفية والسحريـــة والسلطوية التي قادتنا الى كوارث عديدة لا تنحصر كلهـا في « النكسة ») مكرهين على الاختيار الوحيد بين نار الاستغلال الرأسمالي باسم حرية الفرد وبيـن صقيـع الطغيان الفئوي باسم مصلحة الجماعة . بل ستكـون مسؤولية المثقفين العرب بالذات ـ في هذه المرحلـــة ، وتأسيسا محتوما على المنطلق القومي الوحدوي الذي لا بديل له من التجزئة ولا من الاممية ـ ان يفتحوا ابواب الحاضر العربي ، الفاسد الهواء ، على الهواء النقي الذي يحمل بوادره عطاء الفكر العالمي غير المتزمت تحت شعـار الحوار .

***

ذلك ان هذا « الحوار » هو الراية التي يرفعهـا « روجيه غارودي » منذ سنوات عديدة : منذ ايقظته من غفوته « الستالينية » فضيحة « البيان السري » الذي القاه « نيكيتا خروتشيف » عام ١٩٥٦ ، فجعلته ـ كما قال عن نفسه وعن بعض زملائه في مقدمته لهذا الكتاب ـ لا يجحد ولاءه السابق للماركسية لانه « لا يعود عـن

النور » ، بل « ينطلق الى البحث عن ملاذ ليقينه من جديد ... فعل ذلك لا عن تصميم بألا يؤمن بشيء بعد الآن ، بل عن تصميم بألا يؤمن بعد الآن الا وعيونه مفتحة » . ولم يكن امامه من سبيل الى هذه « العيون المفتحة الا النقد الذاتي اولا ، لمسؤولياته الخاصة وللقالب القيصري الذي تجمدت فيه الفلسفة الماركسية ، والا النظر الايجابي الواعي الى ما لدى « الاخرين » من جديد جدير بالنقاش كانت نواميس « البابوية الستالينية » قد اصدرت مراسيم تحريمه بتهمة « البورجوازية » او « الرجعية » او « الانحطاط » . لم يكن من سبيل الى « العيون المفتحة » الا الحوار .

ومنذ ١٩٥٦ نرى « روجيه غارودي » في حوار لا ينقطع . حوار لا مع خصومه الفكريين والسياسيين على الضفة الاخرى فحسب ، بل ايضا مع من يمثلون خصومة ماضيه لحاضره : مع « الماركسيين الرسميين » ، اولئك الذين لا يبرحون حتى الان ـ بدعوى واجب الولاء الحزبي ـ يخضعون عقولهم لتعاليم كنيستهم الرسمية في وقت اصبح من الواضح فيه ـ بعد حوالي مئة عام من وفاة ماركس وخمسين عاما من « ثورة اكتوبر » نصب فيها علم لينين على كوكب الزهرة ـ ان العالم قد شهد من التطورات الجذرية في مجالات التنظيم الاجتماعي والحركات التحررية وتقدم المعارف ما يفرض على الماركسيين ان يعيدوا النظر في كل التعاليم التي كانت لها لديهم قدسية المسلمات والاقانيم . ولذلك يبدو المؤلف احيانا أراف بخصومه المسيحيين والوجوديين منه ببعض الشيوعيين ، و لاسيما بالاستاذ « آلتوسر » زميله في عضوية المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي .

والحوار مع الآخرين يقتضي بالطبع ـ اولاً ـ ان يكون هنالك اختلاف محدد ، ولكنه ايضا يفترض القناعة المسبقة بأن ايا من المتحاورين لا يمتلك الحقيقة المطلقة ، وبالتالي يفترض الانفتاح الذهني المستعد لاحترام آراء الاخرين والتعايش معها او لاغناء النظرية بها ما دامت لا تتناقض مع ما هو اساسي في هذه النظرية . فلسنا هنا اذن امام « مراجعة » للماركسية ، بل امام « عودة الى الينابيع » ، عودة الى ابسط صور « الماركسية الحية » تلك التي يلخص المؤلف اسسها في نقاط ثلاث . فحسب : « الجدلية » و « التاريخية » و « الممارسة » ، والتي يرى فيها ـ على خلاف العديد من صيغها « الستالينية » او « المادية » التي احلت الحزب محل الشعب ، وجعلت من زعيمه الرب الاعلى ، مصدر الحكمة والمالك الاوحد للحقيقة المنزلة ـ « دعوة الى التواضع » ، لانها قائمة على الايمان العميق بالانسان وقدرته على الخلق الحر وعلى الاستزادة من انسانيته ، وهي بالتالي ـ وهذا ما يهدف الكتاب في الاساس الى التدليل عليه ـ « تحمل في ذاتها ، في مبدئها ذاته ، امكانات غير متناهية للنماء والتجدد ، تفسح لها في كل لحظة من التاريخ سبيل استيعاب ما للفكر والعمل من ظروف جديدة » .

هذه « الامكانات غير المتناهية للنماء والتجدد » ـ التي لا يمكن في الواقع ان تتوفر للماركسية الا اذا عُدنا الى اعتبارها « دليل عمل » فحسب « للحركة الاجتماعية التي يقوم بها الشعب نفسه (١) ـ استعرضها المؤلف على الصعيد النظري النقدي في مجالات اربعة : نظرية المعرفة، والاخلاق ، والدين ، وفلسفة الفن .

وليس غرضي هنا بالطبع ـ ولا احسب القارىء يتوقع مني ـ ان الخص هذه الدراسات او اناقش تفاصيل ما عرض له المؤلف فيها من آراء . ما يعنيني هو توكيد نجاح المؤلف في رسم طريق حي حقا لتجديد الماركسية عبر حوار مخلص ، وان كان يبدو لي انه بصورة عامة ـ على هدف اثبات احتمالات التجدد في هذه « الماركسية الحية » ـ قد استشهد احيانا باقوال لماركس (ماركس الشاب بصورة خاصة) لا تخلو آثار ماركس نفسه من نقيض لها . وما كنت لاحتسب ذلك عليه (لانك في الواقع تكاد تجد لدى ماركس سندا لكل ما تريد اعلانه) لو انه بدأ بالتدليل على ان هذه النصوص المختارة تمثل وحدها « ما هو اساسي حقا في الماركسية » . كما يبدو لي انه ، في مجال الحوار مع بعض الاديان ومع المدارس الفكرية الاخرى ، كما فعل مع « فرويد » و « ليفي ستروس » . ولعل مصدر هذا الضيق ان الماركسيين لم يجدوا بعد ما يعزيهم عن استمرار سلطان الدين على نفوس الناس ، وان نظرية التحليل النفسي والمدرسة « البنيوية » في اللغة وعلم الاجتماع هما الان ـ ومعهما « السبرانية » ـ اكثر المذاهب الفكرية المعاصرة اهلية لاستكمال قصور الماركسية (بالحاحها على اولوية العامل الاجتماعي) عن تفسير بعض ظواهر السلوك البشري وعن الاعتراف العادل بدور الفرد الحر المسؤول، وبالتالي كانت هاتان المدرستان مرشحتين لاسقاط دعوى « شمولية » الماركسية كتفسير للانسان والعالم ، وان كانتا هما ايضا تنزلقان احيانا الى ادعاء مثل هذا الشمول.

ولقد استطاعت « ماركسية القرن العشرين » ـ على الاقل في الصيغة النظرية التي يطرحها المؤلف ـ ان تعالج كثيرا من جوانب القصور الذي اشرت اليه عن طريق الالحاح على الدور الايجابي للذاتية ، وتكرار القول بأن الوعي والفعل تجاوز للوجود ، وان الانسان انما يخلق نفسه لانه اكثر كثيرا من حصيلة الظروف التي اوجدته،

(١) يقول انجلس : « نظريتنا ليست ناموسا الهيا ، ناموسا يجب حفظه عن ظهر قلب وترديده بصورة آلية ، بل هي دليل للعمل ... نظرية للنمو ... عرض لمسار التطور المتعدد المراحل » . ثم يهاجم اولئك الاشتراكيين الذين يمنحون ولاءهم للماركسية بوصفها « الاقنوم الخلاص الوحيد » (رسالته الى فلورنس كيلي ، ٢٨ ـ ١٢ ـ ١٨٨٦). ويقول ماركس في رسالته المشهورة الى باكونين : « لست استعمل اصطلاح الاشتراكية العلمية الا في مقابلة الاشتراكية الطوباوية التي تريد حشو اذهان الشعب بأباطيل جديدة بدلا من جعل العلم قاصرا على معرفة الحركة الاجتماعية التي يقوم بها الشعب نفسه » .

وان غرض الاشتراكية الماركسية بالذات ـ بجدليتها واصرارها على وحدة النظر والممارسة ـ هو ان تجعل من كل انسان انسانا حقا ، اي خالقا بدوره .

فاذا صحت هذه الصورة التي يغني بها المؤلف « الماركسية الحية » على ضوء التاريخ المعاصر ، فسيكون قد نجح في ان يصوغ منها اساس « انسية » جديدة ، فلسفة جديدة للانسان منطلقة من الانسان نفسه ، من خصب تنوعه الذي لا قيمة لوحدة المجتمع والانسانية الا به ، ومن ايمانه العميق بالمطلق وتطلعه الدائب الى الكمال ايا كان مبلغ النسبية في طاقاته ومبلغ الضعف امام التجربة في مناقبه .

... بشرط اساسي : وهو ان تستكمل هذه الفلسفة « الانسية » بصيغة جديدة لعلاقات الفرد بالمجتمع ، ولمعنى الدولة ، بصيغة جديدة ـ نظرية وعملية ـ للديمقراطية والحرية .

والمؤلف لم يكد يلمس هذا الجانب الاساسي الا بصورة عارضة واجفة . فتح بابه اكثر من مرة ، ولكنه ظل دائما حريصا على عدم ولوجه .

والديمقراطية ـ وانا بشأنها ارفض اللفظيات التي يغرقنا بها بعض « التقدميين » بذريعة المثالث الفعلية للديمقراطية البورجوازية ـ ليس لها الا باب واحد : هو الحوار نفسه ، هو التعدد والحوار بين المتعددين . وهذا وحده ـ ايا كانت الفلسفة التي ننطلق منها ـ معيار صدق ايماننا بالانسان . كما ان « النكسة » التي انزلقنا اليها بكل انظمتنا « الطليعية » تجعل عودتنا اليه ـ كالعودة الى الوحدة ـ قضية حياة او موت .

و « روجيه غارودي » دعا الى التعدد في العلوم حين مجد « اللحظة الفاعلة في المعرفة » وحين قال بضرورة اصطراع الفرضيات كيما نصل الى نظريات موحدة ، « اوسع افقا مما لم يكن قبل ـ في التصورات التي انطلقنا منها ـ الا حقائق جزئية ، كل منها ذات نظرة جانبية » . وكان نتيجة طبيعية لذلك ان شجب «الحكمة» الستالينية التي اغلقت الباب طويلا دون العلوم « البورجوازية » التي تخالف « الناموس » الرسمي .

وهو قد فعل مثل ذلك في الفن ، فشجب« الواقعية الاشتراكية» معلنا ان « الاعتراف بالدور الخلاق للفن يقودنا الى ان نتمنى ـ لا ان نقبل فحسب ـ كثرة خصبة في مدارس الفن واساليبه » .

وفعل مثل ذلك في الاخلاق ، رافضا ابوية « التسامح » ، واجدا في التفاعل الحر علاجا لمرض « الالينة » الذي بنت الماركسية « الحية » اكثر دعوتها على تحرير الانسان منه .

ولكن « غارودي » ، حين اكتشف « الدور الفاعل للوعي » ، خص به « الحزب الثوري » الواحد ، فحجب هذا الدور عن « القطيع » وقصره على «الطليعة الثورية»، طليعة « المثقفين » ـ البورجوازيين الصغار بالضرورة ايا كان لون ثيابهم ـ الذين يتحدثون باسم «البروليتاريا» (او يخترعونها حين لا تكون موجودة) ويتحكمون بها اذ يحكمون باسمها . وهذه ليست « الماركسية الحية » ، بل هي نظرية لينين ، النظرية القائلة بحتمية الحاجة الى وساطة هؤلاء « المثقفين الثوريين الاشتراكيين » كطبقة فوق الطبقات ، محتكرة للقيادة مطلقة السلطة ، « لان الطبقة العاملة لو تركت وشأنها لما استطاعت الوصول الى اكثر من الوعي النقابي » (١) . وهي نفسها النظرية السائدة حتى الان كأنها الحقيقة المنزلة ، بل هي قد تطورت حتى خلقت لدى الخصوم والانصار معا قناعة بأن « بناء الاشتراكية » متلازم مع طغيان «الطليعة الواعية» وسلطتها المسلحة . وليس يكفي ابدا ، في اسباغ الماركسية على هذه النظرية وتطبيقاتها ، ان يشجب المؤلف ارهاب العهد الستاليني « كجريمة ضد الاشتراكية ، وخرق لقواعد الديمقراطية في الحزب وفي السلطة » .

اما « الماركسية الحية » حقا ، ماركسية الحوار ، فنجدها في « البيان الشيوعي » (١٨٤٨) ، حيث لا ينفك ماركس وانجلز يتحدثان عن « الاحزاب العمالية المتعددة» ويشيران الى ان « الشيوعيين يؤلفون فئة فحسب من الحركة العمالية » وان هدفهم المباشر هو نفس هدف كل الاحزاب البروليتارية الاخرى » وانهم « لا يؤلفون حزبا متميزا متعارضا معها » .

فكيف اذن وقف المؤلف من « الماركسية الحية » عند منتصف الطريق ؟ كيف لم يبلغ بفلسفته « الانسية » الى نهايتها المنطقية ، نهاية الدعوة الى الديمقراطية التقدمية القائمة على تعدد الاحزاب وحق الاكثرية في الحكم وحق الاقلية في النقد والمعارضة في اطار النظام الاشتراكي ، كيف فاته ان الشرط الاول لاية « انسية » حقيقية هي قبول الرهان الاكبر : رهان التحرك المتوازن على سراط يوائم بين مبادرة الفرد الحرة وبين مسؤوليته تجاه المجتمع ؟ كيف لم ير ان « التعدد الخلاق في الاخلاق والعلم والفن سيكون اكثر خلقا انسانيا في علاقات السلطة وانه الضمانة الوحيدة ضد التسلط ؟

في رأيي ان هذا القصور يرجع على الاقل الى ثلاثة اسباب :

السبب الاول ان « الماركسية الحية » ، وان كانت دعوة الى الاشتراكية الثورية من اجل قيام « ديكتاتورية البروليتاريا الديمقراطية » في البلدان المتقدمة صناعيا، لا تتضمن اية « وصفة » واضحة ومنهجية ، صالحة للتطبيق في النظام الاشتراكي الذي تدعو الى قيامه . فانت في مؤلفات ماركس وانجلس تنتقل معهما مباشرة من مرحلة « انتصار الثورة » الى مرحلة « اضمحلال الدولة » . ولذلك كان « ريمون آرون » على حق حين قال أن « الاشتراكية العلمية هي اولا وقبل كل شيء نظرية (نقدية) للراسمالية ... مذهب تفتش فيه عبثا عن وصف تفصيلي للنظام الذي

---

(١) في كتابه : « ما العمل ؟ » . انظر رد الشيوعيين انفسهم على هذه النظرية الديكتاتورية ، القيصرية ، في كتاب « الدولة الاشتراكية » تاليف جماعة « جان درو » ، الذي ترجمته ونشرته دار الطليعة (بيروت ، ١٩٦٧) .

يفترض ان يعقب النظـام الراسمالي » (١) . علـى ان « روجيه غارودي » تعثر في الواقع بمثل هذه المتاهـة نفسها في مجال آخر هـو مجال الفن ، حيث لـم يقـم مؤسسا الماركسية ايضا باية صياغة منهجية للمبـادىء الجمالية ، « فكل ما يمكن العثور عليه في كتاباتهمـا احكام خاصة على هذا الاثر الفني او ذاك ، تتخللها بعض الملاحظات المتصلة بالطريقة . وهذه عناصر ثمينة ، ولكن وضعها الواحد الى جانب الآخر لا يكفـي لتأليف فلسفـة ماركسية للجمال » . ونحن نراه مع ذلك ، وربما بفضل ذلك ، لم يعجز عن ان يقدم لنا منطلقا لفلسفة جمـالية تتسق مع الخط العام للماركسية وتسير على هديها . وكان بوسعه لو اراد ان يقوم بالجهد نفسه لوضع نظرية « كثروية » عن « الثورة والدولة » .

اما السبب الثاني فهو ان المؤلف نفسه عضو بـارز في المكتب السياسي للحـزب الشيوعي الفرنسي كمـا سبق القول ، ومن العسير ان نتصوره ـ مهما بلغت به الموضوعية الفكرية المجردة ـ متحررا من هذا الالتزام وما يفرضه من « تعقل » سياسي عملي يجنبه الانزلاق الـى الرأي المستقل في ميدان وثيق الصلة بحاضر حـزبه ومستقبله .

ويبقى السبب الثالث ، وهـو الاكثر اهمية : ان لينين في الواقع ـ على الاقل منذ ١٩٠٢ ـ ليس امتدادا لماركس الا بنفس المعنى الـذي يقـول فيـه ماركس ان « الاشتراكية تنضج في رحم النظام الرأسمالي » . ولئن كان لينين حتى نهاية القرن التاسع عشر يحمل فـي افكاره النظرية صورة « اشتراكيـة ديمقراطية » مـن ماركس ، مع بدايات من التخلي عن « المادية التاريخية » وحتمية قوانينها ، فهو منـذ « مـا العمل ؟ » (وربمـا باستثناء اقترابه الاوضح نحو انجلس في « المـادية والنقدية التجاربية ») يحمل في تفكيره الثوري «الارادي» و « الطليعي » ـ بصرف النظر عن عبقريته الفلسفيـة والقيادية ـ كل البذور التي انضجها جنون العظمة لـدى ستالين وآراؤه الدامية عن « تفاقم الصراع الطبقي فـي ظل دكتاتورية البروليتاريا » . ولذلك كانت اية عـودة حقيقية فعلية الى « الماركسية الحية » ـ ولو صدم ذلك قراء المطولات الدعائية ـ تعنـي بالضرورة اسقـاط « اللينينية » من تعبير «الماركسية ـ اللينينية» المتناقض الحدين . تعني الخروج على لينين في كل نظراتـه عـن « الثورة والدولة » وكل مواقفه العملية بشأن « الصيغـة المرحلية الاضطرارية » التـي اتخذتها « دكتاتوريـة البروليتاريا » على يديه . والخروج على لينين «زندقة» لا يجرؤ عليها اليوم « روجيه غارودي » ولا احد سـواه من الشيوعيين . ولو انت اكرهتهم على الخيار لاختاروا الخروج على ماركس لا عليـه ، فماركس ليس الا المؤسس النظري للاشتراكية العلمية ، اما لينين فهو ابـو السلطة الشيوعية ورائدها . والشيوعيون ينطلقون من اولويـة

(١) في كتاب : « من ماركس الى ماو تسي تونغ : مائة عام مـن الدولية الماركسية » . (١٩٦٦) .

الاقتصاد نظريا فحسب ، اما عمليا فالسلطة السياسية وحدها منطلقهم ومنتهاهم .

ايا كان الامر ، وبرغم هذا القصور العملي علـى هامش المحاولة النظرية ، يظل كتاب « ماركسيـة القـرن العشرين » خطوة رائدة هامة على طريق الحوار المفتوح، طريق تحرير البشر من « الايديولوجيات » الشمولية التي تزعم تفسير الانسان والطبيعة تفسيرا أحاديا نهائيـا يفرض غيبية جديدة باسم العلم ، وتحريرهم من الانظمة الشمولية التي تنسب نفسها الى هذه «الايديولوجيات»، وطريق النزول بالبشر الى مستوى التلاقي بالحوار على صعيد العلم ، نزولا يرتفع بالانسان ويجعله اكثر انسانية .

ويزيد من اهمية هذه الخطوة ومثيلاتها انها لا تبقى حبيسة البحث « الاكاديمي » ، بل هي في الوقت نفسه تقدم البرهان على تجاوز الاشتراكية مرحلة امـراض الطفولة بتعبيرها عن الرغبة العملية في الحوار وبدفعها هذه الرغبة الى امام . ولئن كان « طريق الحوار » هـذا لم ينفتح بعد عمليا على صعيد حرية الرأي ومشاركـة المواطنين في السلطة (باستثناء بدايات جنينية في بعض دول اوروبا الشرقية) فهو دون ريب قد اجتاز شوطا لا بأس به على صعيد حرية البحث العلمي والخلق الفني، وحتى على صعيد تطبيق مبدأ « ما لله لله وما لماركس لماركس » في تعايش الكنيسـة والسلطـة الاشتراكية العلمانية ، وان كان انصار السلبية الاحادية المتزمتة لا يزالون اكثر قوة (١) . ويجب ان يضاف الى هذا التقدم ظاهره لا بد ان يكون لها اثرها التدريجي الهامشي علـى تطورات الاوضاع في داخل الانظمة الشيوعية ، وهي ان الاحزاب الشيوعية (المناصرة لموسكو على الاقل) فـي الاكثرية الكبرى من دول الغرب قد اعلنت الان اختيارها الصريح للطريق « البرلماني » الى الاشتراكية . (وان كـان يتراءى ان هذه الظاهرة كانت حتى الان سلبية الهـدف والاثر في بلدان اميركا اللاتينية) .

ولا ريب ان على العرب ان يتفكروا في كل هـذا الحوار على طريق « الانسية » الجديدة ، عساهم يغنون به انسانيتهم ويسهمون في تطويره وفي صياغة البعـد الديمقراطي الاجتماعي فيه . فذلك اجدى عليهم كثيرا من التيه البليد بين الشعارات ، من الخبال الذليل امام النكسات . وان اول شروط حـق الشعوب بالبقـاء والكرامة في عصر القوة هو ان تعي فعلا انسانيتها وتؤمن بها ، وحينئذ فقط تستطيع ، ويحق لها ، ان تدافع عنها تجاه الاخرين ولو باظافر الوحوش .

نزيه الحكيم

القاهرة

(١) راجع ، كمثال على استمرار هذه السلبية ، «المعجم الفلسفي» المكتوب من وجهة النظر الشيوعية (موسكو ١٩٦٧) ، حيث لا يزال « الدين افيون الشعوب » ، وحيث لا تعرف عن الاسلام مثلا الا انـه « يبرر الظلم الاجتماعي ويصد الناس عن الكفاح الثوري ويدفعهم الى انتظار بليد للسعادة في الآخرة » . ان الفرق كبير جدا بيـن هذا الهراء الفلسفي (الذي لا يميز بين الثورة الحضارية التي مثلهـا الاسلام وبين وضع المسلمين في عهـود الانحطاط الممتدة حتـى الان) وبين النص الذي نقلته عن الاستاذ « غارودي » في بداية هذه المقدمة.

من قلب النار

ـ ١ ـ

أن أكتب بالحبر على ورق من لحم الشهداء
أن أصرخ بالكلمة في الارض الصماء
من يسمع ... من يسمع ؟
مات الشاعر والسمار
والشعر بوار
هذا عصر النار
لا كلمة الا للمدفع
لكن ماذا يملك منفي ملقى في التيه بغير سلاح
لا يملك الا حنجرة خرساء
سرقوا من أوردتي ينبوع النيران
خنقوا كلماتي الطفلة في الوجدان
نتفوا ريش حماماتي البيضاء
قصوا أجنحة عصافيري الغريرة
ويل للغربان الشريرة

ـ ٢ ـ

ما زال الجرح أصم
جرحي لا ينطق .. جرحي لا يسمع
جرحي لا يعرف حتى لون الدم
وتريدون أغني ؟
ياما غنيت العالم من جرحي
وكتبت فصول المأساة حروفا حمراء
حدثت العالم عن كل الايام السوداء
لكن من يسمع . من يسمع ؟
كل الصرخات هراء

ـ ٣ ـ

قدر ان أحمل أوزار العالم ؟
أن تتمرغ كل خطايا العالم في حدقات صغاري
أن يرضع كل الجبناء دمائي ؟
أن أنحر قربان الدخلاء ؟

قدر أن يصعد كل الاقزام على ظهري ..
وأنا وحدي من يحمل أوزار العالم ؟
في عيني تتمزق كل الآمال الخضراء
العالم يأكل من قلبي
العالم يرضع من صلبي
يفترس صغاري
يشعل من عيني الحدقات الرمداء
يقتلع جذوري من أرضي
يزرعها نارا ودماء

ـ ٤ ـ

(بعد اجلاء عائلة الشاعر عن بيتها ، بالقوة ، فعسكر عساكر اسرائيل في مكتبته ، يسكرون على أوراقه ..)

ستظل الكاسات تدور
هذا زمن الري
أطفيء في أمعائك نار العطش التاريخي
الساعة تشرب في بيتي
الساعة تمضغ أعصابي . تطعنني . تسرقني ..
تصنع لي موتي

لكن غدا يوم آخر
ستظل الكاسات تدور
ويظل الزمن الملعون يدور
بيتي قد يصبح بيتك
موتي .. لا بد .. غدا يصنع موتك
مزق أوراقي وحروفي
واعصر أحداق الاطفال خمور
اشرب .. اشرب .. حتى العي
هذا زمن الري
لكن ، هل تطفأ نار العطش التاريخي ؟

ـ ٥ ـ

(سقطت القدس في يوم كان للشاعر فيه موعد)

بالاحمر الناري أكتب .. من سيقرؤني وفي عيني مجمرة اللهيب
الريح تهجم .. والجراد يمص أحداقي ويعطر في دروبي
وأراك وهما في الغيوب
ودما تخثر في الشرايين الصديئة ، في القلوب
وأراك عينا أطفأتها الريح باردة الشحوب
وأراك كالشفة اليبيسة ليس تبسم في انتظار فم رطيب
وأراك حانية القباب ، خفيتة الاجراس ، تائهة الدروب ..
يا قدس .. يا تاريخ .. أي غد يطل وراء عالمك الرهيب ؟

راضي صدوق

انشودة غول لوزيتانيا «الغولا»

مسرحية بقلم بيتر فايس
ترجمة الدكتور يسري خميس

يقوم بعرض ادوار المسرحية سبع شخصيات ، أربع شخصيات نسائية وثلاث يؤديها رجال . يرتدي الجميع الملابس اليومية العادية . يتم الانتقال من دور الى اخر بأبسط الوسائل . يكفي شيء واحد لذلك :

غطاء رأس استوائي ، شارة صليب ، قبعة أسقف ، عصا ، كيس .. الخ .

ويمكن استعمال اقنعة نصفية في حالات نادرة . يستحسن الا يوحي الجو العام بطابع فني ثري وأن تظهر الخامة التي صنعت منها الاشياء ، وأن توحي بانها وجدت ملقاة في عرض الطريق .

ولا يجب تحت أي ظرف استعمال المكياج أو تغيير الاقنعة في الانتقال من دور اوروبي او دور افريقي أو العكس . ويقوم المثلون بتادية ادوار الاوروبي والافريقي بصرف النظر عن لون بشرتهم .

ويتضح ذلك فقط من طريقة تاديتهم للدور والموقف الذي يتخذونه من الصراع .

يمكن تحديد مساحة المسرح بعدة الواح خشبية خشنة الظهر . على يمين المسرح يوجد الغول . يجب ان يكون مبالغا في حجمه وأن تبدو عليه ملامح التهديد .

يمكن صنعه من الحديد الخردة . في اعلى الوجه توجد فتحة ، يمكن فتحها من الخلف . ويمكن رؤية وجه المثل الذي يقوم بالقاء كلام الغول خلال هذه الفتحة .

يجب أن تحدث هذه الفتحة صوتا مزعجا اثناء غلقها .

وان يصمم الغول بحيث يمكن ان يقع في نهاية المسرحية .

يساعد المثلين ثلاثة او اربعة موسيقيين، يمكن رؤيتهم على حافة المسرح . من الافضل أن يتحرك المثلون بين آن واخر وسط المثلين .

الاتهم الموسيقية المفتوحة : هارمونيكا يد ، هارمونيكا فم ، غيتار ، فلوت وطبلة يد .

الاضاءة ساطعة باستمرار .

المثلات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

المثلون : ٥ ، ٦ ، ٧ .

هذا الترتيب لاعضاء الفرقة ليس ملزما، كذلك عدد المثلين .

يمكن احداث التغييرات المناسبة ، تبعا لامكانيات المسرح او لوجهة نظر المخرج . اتخذت ارشادات المناظر اثناء بروفات العرض الاول للمسرحية في « مسرح سكالا » بستوكهولم . صممت الديكور والملابس السيدة جونيللا بالمسترنا فايس . قام بتنفيذ المسرح المخرج « اتينه جلازر » بمساعدة المؤلف في توضيح الشكل النهائي لطريقة الاداء .

كتب موسيقى المسرحية بنجت ارنه فالين.

عرضت المسرحية لاول مرة في ٢٠ يناير ١٩٦٧ .

المثلون : لينا بروندين ، مونيكا نيلزن ، ايفون لوند كفيست ، ايزا كيفينزل ، الان ادغال ، نيلز اكلوند ، بيورن جوستافسون .

« الفصل الاول »

تدخل المثلة رقم ١ والمثل رقم ٧ يحملان ستارة قديمة من القطيفة الحمراء معلقة على عصا . خلف الستارة يسير المثل رقم ٥ . بقية المثلات والمثلين يتجمعون حول الغول . يخرج المثل رقم ٥ من خلف الستارة ويظهر على يسار المسرح. يرتدي المثل رقم ٥ بدلة سهرة (فراك) ، مع قبعة عالية وشريط عريض مزين بالنياشين.

رقم ٥ : من الخزي والعار والخوف والفزع
يتكون الغول .
ما يملكه الان كان ملقى في القمامة
موجودا في كل الاركان
الصفيح والعاج والخرق والقش
لم يعد يمكن اخفاؤها

(٢ ، ٣ ، ٤ ، يعلقون اشياء على الغول ، سوف تستعمل فيما بعد) .

رقم ٥ : من الخديعة والخيانة والاكاذيب
ركب عقله
من الكراهية والخيانة والروائح القذرة
كلماته التي يتشدق بها
سم زعاف ، صدى ودخان
يملأ بطنه

(المثل رقم ٦ خلف الغول ، يهزه . الصفيح يحدث صوتا) .

رقم ٥ : احضروا هذا الوعاء القديم
ذا الراس الصدىء المعوج
شاهدوا الفم ذا الاسنان المدببة
الذي يمكنه ان يصرخ وان يتثاءب
ويضع فوق راسه على سبيل التسلية
قبعة الاساتذة

(رقم ٦ يخبط على الصفيح بشكل ملفت . رقم ٥ يلقي بقبعته العالية الى رقم ٢ ، والتي تعلقها بدورها على الغول . رقم ٤ يضع كيسا حول الغول) .

رقم ٥ : يضع كيسا من الفحم
حول كتفيه كسترة للسهرة
فوقها شريط من النياشين
انه حاكم المدينة والبلاد .
وفي النهاية يعلق شارة الصليب
التي بدونها لا يساوي شيئا

(يلقي رقم ٥ بشريط النياشين الى رقم ٣ ، التي بدورها تعلقه على الغول . يسحب رقم ٥ من جيبه شارة الصليب ويلقي بها الى رقم ٤ ، التي تعلقه على الفول) .

رقم ٥ : انه على حافة الهاوية
هذا الهيكل المتداعي
لكنه يشبه لحد بعيد الرجل
الذي ما زال بامكانه الاستقرار بيننا
سوف يعرفه الجميع
وسوف يسمونه بالاسم الصحيح .

(ينسحب رقم ٥ خلف الستارة . تسحب الستارة بعيدا . يفتح وجه الغول . رقم ٦ يقف خلف الغول . يفتح فمه ويتثاءب بصوت عال) .

الغول : انني اتلقى الاوامر من الرب
ان مهمة لوزيتانيا هي نشر رسالة الرب
على الارض .
دائما وابدا يؤكد التاريخ
ان الانسان غير قادر على قيادة نفسه
وانه يحتاج لان تقوده سلطة ما
من اجل ان تحميه من السقوط في الانانية والمادية
وسط سباق الربح الاقتصادي
من اجل رفع مستوى المعيشة
مما أدى الى عصر الافلاس الروحي
والفراغ .
ان هدفي هو انقاذ الانسان من هوة الغواية
وتربيته ككائن اخلاقي يتذكر دائما
العالم الاخر والعلوي الذي يوجد بجوار

العالم العرضي الزائل : عالمالتكنولوجيا
رقم ١ : نكاد أن ننزلق ونقــول انهــم يستحقون كل ذلك .
بعد ان تحملوا طول هذا الوقت .
لكن الفزع يصيبنا اذا تلفتنا حولنا
المخادعون والقتلة والمأجورون متربصون عند كل منعطف
وتحت ظل مثل هذا النظام
لا تمثل ابادة العدو اية مشكلة .
وقبل كل شيء فان الوضع بالنسبـــة لذلك الرجل
يتوقف على جهل محكوميه
وعلى قدر الامكان يجب ألا يتعلمـــوا القراءة والكتابة
فهذا يــؤدي الى تجنب المضايقـات وسوء التفـاهم
وبينما يكدون ويكدحون من اجل المحافظة على حياتهم الخشنة
يفقدون القوة على النهوض في وجهه
وبالنسبة لاصحاب الاراضي فان لهـذه الاحوال مغزى عميقا
فمن خلالها تزداد أرباحهم الكثيرة .
وطالما ان ذلك لا يضر جنرالاته
ولا يؤدي الى شروط ضارة برأس المال
فان قشدة المجتمع تعطيه كل ثقتها .
هو فقط الذي يدرك فاعليتهم وتطلعاتهم.
(يدخل رقم ٧ واضعا فوق رأسه قبعـة جنرال مزينا كتفيه بنياشين . يتحــرك بخطوات عسكرية جافة)
رقم ٧ : المجتمع المنتج يعتمد دائما علـى عمل شاق وتضحيات مستمرة .
على كل فرد أن ينتج حتى اقصى حـد ممكن بقـدر مستواه الروحي والثقـافي والاقتصـادي .
المجتمع السليم ينمو عن طريق الخدمـات التي تقدمها الطبقات لبعضها .
مفاهيمنا الاساسية هي :
الله ، الوطن ، الاسرة .
(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦)
كورس : الله ، الوطن ، الاسرة
رقم ٧ : لوزيتانيا تسيطر على البحار
لوزيتانيا وحدة متماسكة وخالدة
كورس : لوزيتانيا وحدة متماسكةوخالدة
رقم ٢ : وفد من التنيو يرجو بكلخشوع
أن يسمح له بتقبيل يد سيادتكم
(رقم ٦ يمد يدا طويلة جدا من الفول .
٣ ، ٤ يركعان على ركبتيهما أمـام اليـد ويقبلانها)
رقم ١ : وهكذا يسيطر على البلد باتباعه
واغلب الظن انهم ما زالوا يحكمون عليها قبضتهم
فكل مناهض حيثما وجدوه
يلقون به في السجن ويسلخونه
لقد ابتكــر الاخصائيون من رجـال بوليسه السري
اشنع وسائل التعذيب
ولكي يقدموا المثال على ذكائهم وتفكيرهم
فانهم يصفون حسابهم مع السجنــاء امام الحائط
ورغم كل ذلك فقد لوحظ في الفتـرة الاخيرة
كيف تشتد علامات السخط والقلق
وكيف يكتشف الكثيرون الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة
أفكارا جديدة .
(يفتح رقم ٦ وجــه الفــول ويصرخ بصـوت عـال)
الفول : البربرية تهدد العالم .
العدو يقترب من بلدنا
موزعا سم العالمية ، مهددا حـق الملكيـة المقدس ،
محاولا تحطيم أخلاقيات الاسرة
وهدم الدين الموقر (يتثاءب)
أيها الشباب : اكثر من اي وقت مضى
يجب عليكم ان تقووا انفسكم جسديـا وروحيا .
كي تكونوا غدا مستعدين لان تحلوا محل الجنود من اجل حماية قيمنا .
(يقول رقم ٦ الجزء الاخير من كلامالفول في شكل غناء منفرد . رقم ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ يشكلونجماعة تهلله . رقم ٣ ، ٧ يرقدان. يقفز رقم ٥ على ظهريهما)
رقم ٥ : يجب أن نهتم بأن نحافظ علـى نظام حياتنا ، فمن خلاله تتضح منجزاتنـا التاريخية العظيمة .
نحن نحتاج دائما الى احتياطي ثابت من القوى العاملة من اجل الاعمال التي لـم نولد نحن لممارستها .
ويمكنني القول ان مدنية بلد مــا يمكـن تقديرها بحجم الخدم فيها .
ان الذي يتخلى عن خدمة شعبه يتخـلى عن المدنية .
(أثناءهذا الحديثيمشي ٣ ، ٧ باحمالهما وهما منحنيان الى الامام . ٦ يصــاحب المجموعة كخادم ، مؤديا خدمات مختلفـة بالبانتوميم) .
رقم ٥ : بالطبع فانا كرجل تقدمي
اؤمن أن يطور كل نفسه .
يوانا ، هات الجريدة .
(يصفق ٥ ، يقفز ٤ ناحيته . يصفـق رقم ١ ، يقفز ٤ تجاهه وتجاه ٥ اكثر مـن مرة مترددا بينهما) .
رقم ١ : بالطبع فانا كامراة عصرية
أعرف جيدا حقوق خدمي .
يوانا مشطي لي شعري .
(يساعد رقم ٦ رقم ٥ . يركع رقم ٧ على ركبتيه ويقوم بدور الكرسي المريـح لرقم ٥ . ٣ يكون المسند . يجلس ٥ مستريحا) .
رقم ٤ : استيقظتفيالخامسة صباحاليوم
يمضي يومي هكـــذا : تنظيف الارض ومسح التراب
تجهيز الافطار للسادة ،
غسل الاطباق وشراء المأكولات
الجري الى صانع الاحذية والسباك
دلق أواني البول وترتيب السرر
تنظيف ملابس السيد
تخييط الزرائر وغسل الملابس
ثم شراء الزجاجات من بائع الخمور
وطبخ الغذاء وترتيب المائدة
(طاقيتي ومريلتي بلا بقع)
حمل الشوربة باحتراس على الصينية
صب الخمر والقهوة
غسل الاطباق ورفي الملابس
يغالبني ــ رغما عني ــ نعاس عميق
بسرعة اذهب الى سوق السمك
ثم أنظف الطريق امام المنزل بالجاروف
أقشر البطاطس وأنظف السمك
أسمع صوت السيد عائدا للمنزل
أخدم أثناء الاكل
اذهب بالاواني الى المطبخ دون ضجيج
أغسل الاطباق وأستغل فترة المساء
في تلميع الفضيات بالدولاب
ثم أحضر الاحذية والمعها في هدوء تام كآخر شيء
وان لم يرغب السيد في قرص منالبيض
أرقد في السرير قرب منتصف الليل .
رقم ١ : أرى ان يوانا تمتلك غرفةصغيرة انيقة جدا
لو انها لم تكن لديها لكانتمصيبة كبرى
رقم ٤ : ومعانها ليس اكبر بكثير مندولاب
الا انني راضية بهذه الغرفة
رقم ١ : يوانا تعرف ان مصيرها الهلاك
لو اننا لم نؤوها في منزلنا
رقم ٥ : يمكن ليوانا أن تتباهى
بأننا ندفع لها ٢٠٠ اسكودس في الشهر
رقم ٤ : لا يمكنني أن ادخر شيئا منهـا ،
لكنني أؤكد انني راضية لحصولي علـى عمل ثابت
رقم ١ : من اجل ذلك يتهيج الجميعبسرعة هذه الايام
وتسخر كل الدعايات الممكنة
(يظهر ٦ خلف الفول ويتكلم بصـوت يغلب عليه البكاء)
الفول : توجه على وجه الخصوص الـى مواطنينا السود في أقاليم ما وراء البحار
حيث يركز الاعداء مؤامراتهم مستغليـن عدم نضجهم وتخلفهم في مرحلة الطفولة
فهم يتقبلون بسهولة محاولات التحريض التي تقوم بها كافة العناصر المادية
مما يساعد على تحطيم مثلنا .
(ينحني ٦ جانب الفول . يمسك بشارة

الصليب . يقول بصوت مختلف ، يتـــلو بصوت المصلي)
رقم ٦ : ان نائب الرب على الارض
ينظر بكل ثقة الى لوزيتانيا .
الاب المقدس يرسل الى لوزيتانيا تحياته
(ارتدى ٧ قبعة الجنرال ثانية)
رقم ٧ : مصاحبين بدعوات امهاتهم بالنصر
يسرع شباب لوزيتانيـــا لحماية اقاليـم
ما وراء البحار .
(٦ يتكلم بصوت الغول)
الغول : حماية الضعفاء وتوجيههم بيـد ابوية ، هي رسالة المبشرين بالمدنية .
(رقم ٤ بصوت جهوري في لهجة مختلفة ، ٣ ، ٧ بشكل ورع)
رقم ٤ : رسالة المبشرين بالمدنية
تنبع من المبدا المسيحي
حب الجار
وبقوة فكرنا الرحب المفتوح
نحقق التوازن والانسجام
بين البلدان الاستوائية وبين الغرب
(٣ ، ٤ ، ٧ ، كورس)
كورس : في الاقاليم الاستوائية التـــي تخصنا منذ قرون
رقم ٣ : هذا الانسجام العميق
ينشا من تقارب الارواح جميعها
ذلك التقارب الذي نرى فيه وحـــدة التماسك الحقيقي .
لقد خلق الله الانسان دون حواجز قائمة بين الاسود والابيض
كورس : في الاقاليم الاستوائية التـــي تخصنا منذ خمسة قرون
رقم ٧ : ومع ان الجميع متساوون امـام الرب ايضا .
فان ذلك لا يضطرنا ان نعطي المتخلفـين من البشر اية حقوق لا يقدرون على استعمالها
فانهم بعيدون كل البعد
عن المواصفات الاجتماعية التي تتطلبها
كورس : في الاقاليم الاستوائية التـــي تخصنا منذ قرون
(١ ، ٤ ، ٥ يكونون تابلوه بطولـــي . رقم ٥ يمثل المكتشف ديجو كاو ، رقـم ٤ يمثل الشعب الافريقـــي المقهور . الكيس موضوع على رقم ٤ . رقم ١ يضع على راس رقم ٥ غطاء للراس . يضع في يده المرفوعة سيفا . عند وضع السيف في اتجـــــاه معاكس ، يعطي صورة الصليب) .
رقم ٢ : جاء ديجو كاو باسطوله الى نهر الكونغو البني العظيم
وجد هناك اناسا مسالمين ، مزارعين احرارا وصيـــادين
يمتلكون الات حديدية واجهزة من النحاس
وسجاجيد منسوجة ، وذهبا وعاجا
يمتلكون ماشية متنوعة كثيرة وابقـــارا في المزارع
واسعد ديجو كاو ورجاله استقبالهـــم بحفاوة هناك
وتبادلوا الهدايا واقاموا في كابندســـا قلعتهم الاولى .
ورحل ديجو كاو ورجاله الى الشواطيء الخصيبة
ونشر بين سكان البلاد العقيدة المسيحية
وارسل سفينة محملة برجاله عبر البحار
الى موانيء بلاده
لكي يخبروهم بما وجدوه هنا
وازداد سرور ديجو كاو ورجاله باستمرار
من استقبالهم بهذه الحفاوة
ولم يفكروا في تقديم الشكر مـن اجــل الهدايا .
واقاموا في لواندا قلعتهم الثانية .
وابحر ديجو كاو بسفنه الى نهر كوانزا العريض
واستولى على روزنهولتز وماهاجوني
وكذلك المعادن والاحجار الاصلية .
وبشكل مستمر كان يشحن قاربه بسكان البلاد والتوابل والفواكه والكنوز النادرة .
وازداد سرور ديجو كاو ورجاله لدرجـة شديدة
بمرتفعات بنجويلا حيث لم يستقبـلوا بحفاوة ، واقاموا في كونين قلعتهم الثالثة.
(يدخل رقم ٧ يضع على راسه قبعـــة اسقف ضخمة . يضع رقم ٣ بشكل احتفالي اشرطة عريضة على كتفيه)
رقم ٧ : انا رئيس اساقفة مدينة لواندا
التي تقع على سواحل المحيط الاطلنطـي الجنوبية
الغنية بالسمك
اقرر شخصيا الاشياء التي ترسل مـــن منطقة الى اخرى فيما وراء البحار
داخل حدود امبراطورية لوزيتانيا .
(يظهر رقم ٦ مسلحا)
رقم ٦ : تم شحن ١٠٠ يد عاملة اخرى :
شبان ونساء ، اطفال اصحاء ، حتـــى يكتمل عدد الالف هذا الشهر .
رقم ٧ : هل عمدوا جميعا ؟
رقم ٦ : عمد الجميع يا صاحب الفضيلة
رقم ٧ : اذن فلتنتظروا الي حتى اباركهم قبل الرحيل
رقم ٢ : وصل ديجو كاو باسطوله
الى المنطقة بين الكونغو وكونين
وانتزع الاراضي من اصحابها
وانتزع كل شيء يمتلكونه
وطرد القرويين من قراهم
حتى اقحلت القرى واجدبت الحقول
وشحن عشرات الالاف منهم كل عام
والملايين المقهورة تتبعه .
وهكذا تعرف هؤلاء
الذين استقبلوا ديجو كاو بحفاوة
تعرفوا بفضله على الكراهية
التي لن تهدا قط .
(تتفكك المجموعة خلال المقاطع الاخيـرة وتمشي ببطء . يقودهم رقم ٧ الاسقف . يقود رقم ٦ المثلة رقم ٤ التي تغطي نفسها بالكيس .
يستعد الجميع لترتيب جديد في مجموعة اخرى للمشهد التالي .
رقم ٢ كمغنية اولى . المثلات والمشـلون الاخرون يقومون بدور الكورس) .
كورس : مزقوا الارض ، انبشوا الارض ، زحزحوا الارض
رقم ٢ : دعوا الرجال يعانون الام المخاض
كورس : مزقوا الارض ، انبشوا الارض ، زحزحوا الارض
رقم ٢ : دعوا الرجال يعانون الام الولادة
كورس : مزقوا الارض ، انبشوا الارض ، زحزحوا الارض
رقم ٢ : دعوا الرجال يعانون الـــولادة الدمويـة
كورس : مزقوا الارض ، انبشوا الارض ، زحزحوا الارض
رقم ٢ : دعوا الرجال يعانون المخـــاض وبلفظون الجنين
(يتقدم رقم ٥ . يتكلم رقم ٢)
رقم ٥ : يمكننا ان نعرف من دراسة التاريخ
كم من الفوضى قامت في كل الازمنة
حيث صوبوا سهامهم ورماحهم
على الجيوش المعادية القوية التسليح
ارغموا حتى الجوع والحاجة
وحيث فقد افضلهم الحياة
وبالتدريج حطمت تقاليدهم الفنية
وبواسطة البعثات التاديبية المتوالية
فككت العائلات وفتتت الاجناس
حتى لم يعد يعرف المرء جاره القريب
هذا هو السبب الذي من اجله
يسيطر الظلام في بلدهم .
(يظهر رقم ٦ خلف الغول . يتكـلم بصوت عال)
الغول : الشعوب في الغابات هناك
لا تمتلك اي شعور قومي
نحن الذين نوقظ فيهم الشعور بالانتماء
رقم ٥ : باسم المدنية نحن متحدون كاخوة
قال كاوس الوصي الاخير المسمى بالخائن
ما تقدمه اوروبا من الهبات
يجب ان يتكيف مع العادات المحلية
لاقصى حد ممكن
هذا مكتوب في لائحة الخائن
وهي تحت تصرف اي قاريء
لالغول : العادات والتقاليـد يمكـن ان يعترف بها فقط
عندما تتفق مع اخلاقيات واسس انسانيتنا
وعندما تتفق كذلك مع الممارسة الحرة

والسيادة في لوزيتانيا .
رقم ٥ : كم عددكم في بلدكم ؟
(٢ ، ٣ ، ٤ كورس)
كورس : عددنا ٥ ملايين في بلدنا
رقم ٥ : كم عدد ناشري المدنية في بلدكم ؟
كورس : ١٠٠،٠٠٠ ناشر مدنية في بلدنا
رقم ٥ : لكل ٥٠ منكم ناشر مدنية في بلدكم
(يبتعد رقم ٦ عن الغول . يعطي اشارة البدء لمارش المستعمرين . ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ يمشون في خطوات عسكرية . ينضم اليهم رقم ٢ ، ٥ . الجميع كورس) .
كورس : لكننا نحن الذين نصنع من افريقيا شيئا مفيدا
نحن الذين نقاوم مرض النوم والملاريا
نحن الذين نفتح كنوز الارض
حتى يستمتع الكثيرون بالربح .
نحن الذين نزرع الارض بالذرة
نحن الذين نجني القطن والقمح والارز
نحن الذين نزرع السكر والبن والدخان والسمسم
نحن الذين نستخرج جبال الماس والمواد الخام والمنفنيز
نحن الذين نستخرج البترول ونستخرج الملح من الملاحات
نحن الذين نعبد طرق النقل ونمد السكك الحديدية
نحن الذين نستأصل الغابات الكثيفة والسافانا
نحن الذين نطوق البحر بسفننا
كل ذلك بمساعدة شركاتنا واحتكاراتنا
من اجل نشر المدنية
(بعد الانتهاء من هذه الفقرة ، ينقسم الممثلون للمجموعات التالية : رقم ٥ ، ٧ يقفان على اليسار . رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ يقفون كورس على اليمين . يقف رقم ٦ في الوسط) .
رقم ٦ : جئت الى الغابات كي اقطع الاخشاب
رقم ٥ ، ٧ : اقطع الخشب ، اقطع الخشب في غابات المطر
كورس : الغابات ليست لنا ، اللعنة على الغابات
رقم ٦ : جئت الى الحقول كي اربي الماشية
رقم ٥ ، ٧ : ارع الماشية ، ارع الماشية في الحقول
كورس : الحقول ليست لنا ، اللعنة على الحقول
رقم ٦ : جئت الى الجبال كي أصطاد الحيوانات البرية
رقم ٥ ، ٧ : ادفع الحيوان البري ، ادفع الحيوان البري امام البندقية
كورس : الجبال ليست لنا ، اللعنة على الجبال

رقم ٦ : جئت الى المدن كي ابني لي منزلا
رقم ٥ ، ٧ : نظف لي الحذاء ايها الاسود ، احمل الحقيبة
كورس : المدن ليست لنا ، اللعنة على المدن
رقم ٧ : في امكان كل فرد عندنا أن ينال حقوقه كمواطن .
واذا ما أبدى الاستعداد الطيب
وتعلم واجتهد في عمله يكون في طريقه لان يتكيف
رقم ٥ : انا متكيف
لكي اصبح متكيفا
وجب علي استيفاء الشروط التالية :
ان لا يكون ضدي أحكام سابقة
ان اتكلم بطلاقة لغة الوطن الام
ان اكتب بسلاسة لغة الوطن الام
ان اعرف تاريخ الوطن الام المليء بالانتصارات
ان أعطيهم اقرارا بالوفاء والاخلاص
ان امتلك شهادتي تقدير لميزاتي الشخصية
ان امتلك شهادة صحية ،
أن امتلك عملا ثابتا
ان يكون لي دخل مضمون
ان ادفع الضرائب في ميعادها دائما
ان ازور بيت الله بانتظام
وقد وصلت الى مرحلة تعلم
واكتساب العادات الضرورية
لاستعمال الحق العلني والخاص
وابيح لي الان
الادلاء بصوتي في الانتخابات
وابيح لي الان
الانضمام الى نقابة عمالية
من النقابات التي نظمتها الحكومة
انا واحد من ٣٠،٠٠٠ متكيف
في منطقة انفولا بلوزيتانيا
انا المتكيف الوحيد
وسط ١٠٠ عامل افريقي
(يلف جميع الممثلين والممثلات في شكل دائري ، باستثناء رقم ٤)
رقم ٤ : نحن ال ٩٩ من ١٠٠ عامل افريقي
في انفولا
الذين لم يمتلكوا الوقت ولا الوسائل لتعلم القراءة والكتابة
نحن نعمل من سن العاشرة حتى الموت
الذي يأتي مبكرا في أغلب الاحوال
لا يسمح لنا
بأن نعطي أصواتنا في الانتخابات
ليس هناك نقابات عمالية من اجلنا
يجب علينا تبعا لنظام العقد الساري
ان نقوم بالعمل المطلوب منا
مقابل ٧ دولارات في الشهر
(يقف الممثلون جميعا والممثلات في صف واحد)

رقم ٧ : فقط لمدة ستة شهور في السنة يمكن تدريب غير القادرين على العمل بشكل اجباري
رقم ٤ ، ٥ ، ٦ : حتى لا يتعودوا الكسل والسرقة والقتل ، وحتى لا يتعرضوا لدعايات الوكلاء الاجانب .
رقم ٢ : وفي الاوقات الاخرى
يسمح لهم بزراعة ارضهم .
رقم ٣ : اذا كانوا يمتلكون ارضا .
(يتحرك رقم ١ ، ٧ الى الوسط)
رقم ١ : هناك قطعة من الارض بالقارة الافريقية
نحن نزرعها بالفول السوداني
رقم ٥ : كيف تزرعون الفول السوداني ؟
رقم ٧ : بواسطة غصن ، نحفر خطوطا في الارض الصلبة
رقم ١ : بأصابع الاقدام نحفر حفرا في الخطوط .
رقم ٧ : في الحفر نضع البذور
رقم ١ : ثم ننتظر المطر حتى ينبت الفول السوداني
رقم ١ ، ٧ : في هذه البقعة من الارض
في الثلاثين مليون كيلومتر مربع
في القارة الافريقية الكبيرة
(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ يندمجون في حديث حار . تتداخل كلماتهم . يكررون بعض المقاطع والاسئلة بأصوات مختلفة)
عندما يدبر احد من الاهالي مبلغا من المال
حتى يحصل على قطعة ارض
يجب أن يتعهد بأن يزرعها
وفقا للتعليمات المقررة
ما هي التعليمات المقررة ؟
يجب أن يزرع الارض كما تعلم من الخبراء
وعندما يؤهل بتقدير
عندئذ تخصه الارض .
كيف يمكنه أن يصبح مؤهلا ؟
اذا كان من زراع البن
يجب أن يسلم خمسة الاف شجرة
واذا قل العدد عن ذلك ، لا يسمح له بالحصول على الارض .
واذا لم يتمكن من زراعة خمسة الاف شجرة ؟
حينئذ تؤخذ منه الارض .
واذا ما زرع خمسة الاف شجرة
هل يبقى عندئذ في الارض ؟
يمكنه ان يبقى ستة شهور في السنة
في تلك الارض
ثم يمكن استدعاؤه اذا ما دعت الحاجة الى قوى عاملة .
وعندما يعود يجد مزارعينا وقد استولوا على المزارع لاسباب سهلة الفهم تتعلق بالاقتصاد القومي .
(في النهاية يلفون بزهو كما لو انهم نجحوا في تادية دور في السيرك .)

شتاء الغضب

– ١ –

اشجار سوداء دون جذور
تطفو في الظلمه
وجذور سوداء تنبت في قلبي
وكما يتوارى الضوء بلا صوت من دربي
تتوارى البهجة في زاوية القلب المهجوره
الحزن تفجر في جسدي من كل مسامه
ازهر كالشوك على طرف الشفة المقهوره

– ٢ –

ها نحن جمعنا فاكهة الصيف
بالعدل سنقسمها بين الذيدي المحرومه
فلتأكل كل الأنياب المنهومه
مزق الرايات المنقوعة بالذل
والرمل المزكوم برائحة الدم الملحيه
وعيون الموتى
قسمنا الفاكهة الملعونة بالعدل
فليأكل من لم يشبع ما يرفض جاره

– ٣ –

خطوات الصيف الملعونه
تركت في صدر الارض
ضوضاء الموت وظل الخيبه
غرست اشواك الحقد الحمراء
في لحم الاطفال الغض

– ٤ –

يا برد شتاء قادم
ان قضيناك ونحن ندفيء ايدينا
في نار الغضب المندلعه
ان قضيناك ونحن نلوك اغانينا
نحلم بالراية مرتفعه
يا ثلج شتاء قادم
العنا مزق في الشفة اللفظه
أطفيء في العين الومضه

بغداد – كلية الحقوق

منهل نعمه العارضي

(توضح عمليات العنف فيحركات بانتوميم بين الصفوف)

رقم ٥ : تواجهنا صعوبات كثيرة من اجل الحصول على قوى عاملة

رقم ٤ : ان القوى البشرية لا تتفق دائما مع احتياجاتنا

رقم ٦ : يجب علىالمجندين الجدد التفتيش في البلد كلها
من اجل البحث عن الناس

(رقم ٦ يسحب عصا من الغول . رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ يهربون ناحية اليسار . يقف رقم ٦ في الوسط وفي يده العصا . رقم ٥ ، ٧ يقفان ناحية اليمين)

رقم ٥ : مدير المصلحة يحكم القرية
تأتي زيارة من خارج القرية
يفرد اوراقا
عندئذ نعرف انهم يحتاجون الى عمال
مدير المصلحة يسحب عصاه
مدير المصلحة يريد الحصول على اكبر مبلغ ممكن
نجري في الادغال ، نختبيء هناك ، نعود،
نجد القرية خاوية
نساؤنا تعمل في اعمال الطرق
في مكان بعيد

رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، كورس)

كورس : طردن في الشوارع تحت الضربات
وحيث لا مكان للنوم
رقدن في الليل تحت سماء مفتوحة
صرخ أطفالنا من الجوع
افرغوا امامنا أكياس الدقيق
صرخنا :
هذا الدقيق عفن ومليء بالديدان
ضربنا ملاحظ العمال بالعصا

(يقف رقم ٣ بدون تأثر ، يداه خلف ظهره ، يغني بصوت منخفض)

رقم ٣ : انظروا الى يدي ، يدي
مزقتها العصا

رقم ٥ ، ٧ (بشكل عاصف) :
اضرب هؤلاء السود بالعصا
اضربهم ، اضربهم بالعصا

رقم ٣ : رئيس العمال يضربني على يدي
رئيس العمال يضرب النسوة بالعصا

رقم ٥ ، ٧ اضربهم على الايادي بالعصا
اضربهم ، اضربهم بالعصا

رقم ٣ : العصا لها افواه
العصا تحفر ثقوبا في يدي

رقم ٥ ، ٧ : اضرب هؤلاء السود بالعصا
اضربهم ، اضربهم على الايادي .

رقم ٣ : العصا تحفر ثقوبا فيايدي النساء

رقم ٥ : يجب ان نبعث في الاهالي روح العمل ،
يجب أن يدركوا ان وضعهم الاجتماعي
يمكن تحسينه
فقط بواسطة العمل

رقم ٧ : لا يمكنهم ان يفكروا بشكل منظم
لا يمكنهم ان يخططوا
انهم يرون اليوم فقط
ولا يفكرون في المستقبل بدوننا يهلكون في اللامبالاة

رقم ٥ : منذ عهد قريب رأيت امرأة سوداء
مات طفلاها الاثنان
لم تبك مرة واحدة

– التتمة على الصفحة ٥٤ –

« عُروة »

توالى الليل في صحراء احزاني
توالى
قصة ماتت بلا زمن
حكايا عن قديم لفها العدم
بلا ملل تثاءب جرحها المحموم بالالم
تمزق فجرها المغمور بالظلم
تراقص فوقها الناقوس
مشلولا بلا نغم
عروق ، جف فيها الماء والصبح
وأثمر في ثنايا جرحها .. القيح
فنامت ..
يسهر السمار مشدودين للقدر
تساؤلهم عن الغارات والظفر
فاين يقودهم (عروه) ؟
وما في البيد من سروه
وما في الليل الا الجوع والظمأ
وما في الصبح الا الخوف والصدأ
وعرف قبيلة الفتيان ، اشياء .. هي البدع
فشدوا الخيل واصطرعوا ..
« ليفرس نصله الليل
ويولج في الدم القتل
ويزرع في حنايا النفس أحقاده
فما عاد الابي يكرم (العاده) »
ويهدر ثائرا (عروه)
عنيفا رائع القوه
« أنا العاده ...
أنا الاشياء ، والصحراء ، والآمال
أنا قدر الحياة وقمة الآجال
أنا من يصرع الاوغاد والانذال
أنا دين الحياة ونفسي القدر
والا .. فالدنا هذر
ومن أوهامها البشر
وجرح نام في القلب
يكرم عاصر القلب
ويعبد قاتل الرب
يشل كرامة الصحراء
ويعشق ذلة الاشياء
عبير الريح في الصحراء يسكرني
وصوت البهم يطربني
يجف الحب في الانسان ...
فيؤنسني ، ..
عواء الغول والذؤبان
فتهدأ مقلتي الجوعى بلا أجفان
ويهرب ناعسا نومي
ويبقى الليل والعينان
حنون انت يا ليل الصحارى
جميل مثل احلام العذارى
واروع من فم شرب النهارا
واجمل من يد شقت فم الزق
واضوع من عبير فاح في الحق
واعظم من فتى في الليل كدار
يطاعن كل غدار
ليملك قوته ، شلت يد الطاغوت
اجاع الناس حتى الموت
عذاب الليل احلى من شفاه الغيد
وانقى من عذارى البيد
واكرم من عطاء الصيد
عذاب الليل بعث دونه البعث
به يكتشف الانسان ما الغيث
به يستنزل العلياء .. او .. يعدم »
عجيب أنت يا (عروه)
اباؤك ناصع النخوه
هزمت الليل لم تخش احتكاراته
ولم تأبه بظلماته
تموت لتنسج البسمه
منارا في شفاه الليل
أسنى من ضيا نجمه
أيسأل بعدها أحد ؟
ام الصعلوك ينفرد ؟
أيجهل انه الصمد ؟
وأن دماءه تفدى لمن قهروا
هي الاقدار تبلى اينما ظهروا
ستبقى بذرة الصحراء ..
كأنقى ما تكون .. كريمة خضراء
فداها ثلة بزغت
من الصحراء تعرف مشرق
الشمس
وتدرك قيمة .. النفس
ترويها وتزرعها ...
سنابل من دم حر
سنابل من دم حر

سالم الخباز
الموصل ـ العراق.

آل آمخ ...

قصة بقلم الدكتور محمد عزيز الحبابي

- ١ -

« كلما زدت خطوة ازداد انزلاق أملي ، وشعرت ان الازقة تلتوي وتتحذلق كأنها تآمرت علي مع كآبة الليل . وجوه المارة بلا تعبير ، كأن شيئا خفيا قد بهدلها . وجوه صامتة ومبللة . ربما كان التعبير مشيا بالارجل ، وقطرات عرق على الجبين وهم يسرعون الى مواعد مع عشقهم ...

ولكن ، هل الجميع يحب وله موعد مع الحبيب ؟! » .

***

اهتز كل جسد السيد (الفاروقي آل آمخ) ، في انتفاضة ، فاحس ان الكهرباء قد سالت فيه من أعلى الى أسفل . انها تموجات (التيليباثي) تغمره . بدأ الارسال . ولكيلا تشوش ضوضاء الطريق على الخطاب الموجه اليه من لدن قرينته (فطومة آل آمخ) ، ابتلع حبة صغيرة من حبات « تركيز الانتباه » ، فأخذ دماغه يسجل :

- ألو ! قد التقطت ما خطر ببالك . لماذا تغرق في عوالم الماضي . تنظر الى ناس اليوم نظرة رجعية متخلفة ؟ أين لهم العشق ؟ هم من أجيال ما بعد ٢٠٠٠ وليسوا من جيلنا . انهم لا يعرفون الحب . المارة يسرعون في الطرقات فرارا من رتابتها المضنية ، ومن الاخرين : نفس الوجوه ، ونفس القد ، ونفس العرض ، ونفس اللون .. أرأيت لهم شبها بنا ؟ عندنا : الذكر ذكر ، والانثى انثى . اننا نختلف طولا وعرضا ، لونا وثيابا . أما هم فقد خرجوا جميعا من قالب واحد ، وبعين الطريقة « الستاندارية » . العشق كان حتى القرن العشرين ، بين جنسين مختلفين ، ونماذج بشرية يمتاز الواحد منها بقسط من الملاحة أو البشاعة (وكل شعيرة يرزقها الله من يأكلها ...) . الحب لا سبيل اليه اليوم ، كلمة قد اندثرت من قاموس الاجيال الحاضرة ، كما انقرض الكثير من المصطلحات المتصلة بالزواج ، والنسل ، وأعضاء التناسل ، لان العضو ينعدم بانعدام الوظيفة .

قاطع الرجل زوجته سائلا :

- وأنت ، ماذا تفعلين الان ؟

- أحسب قرصات أكل الابناء الشهريه . لقد أفرغتها من جيبي فلاحظت انه تنقصني ثلاث ، ولا أدري كيف حصل الفلط في العد ..

- لا فائدة في البحث ! أنت أيضا ما زلت تفكرين بالطريقة القديمة ، طريقة عصر التخلف . عودي الى صيدلية البلدية وخذي ما ضاع ! الكل بالمجان !

- لكني أريد أن أعرف كيف ، ومتى ، ولماذا حصل ما حصل ؟..

- آه ! لم تتخلي بعد عن ذهنية القرن العشرين . لماذا هذا الاهتمام ؟

- لاعرف !

- ولماذا تريدين أن تعرفي ؟

- للمعرفة .

- ولماذا المعرفة ؟

- لافهم .

- ولماذا الفهم ؟

- لا تتعبني ! ان لي بقايا من الاعصاب ، أنا لست من أجيال اليوم ، عجل بالعودة الى الدار ، فالابناء حول الجدة تحكي لهم عن أساطير وغرائب القرن الماضي ، وهم كالعادة ، يبتلعون كلامها بنهم . انهم ، كما تعلم ، لا يميلون الى شيء : لا مشاريع ، ولا شهوات . زمانهم ينساب على وتيرة واحدة لا يستملحون الا حديث الجدة وهي تحكي عن « ما قبل التاريخ » ، كما يقولون ، تحكي عن مشاهداتها في القرن العشرين ...

- آه على حلاوة العبث ، والمغامرات الغرامية ! كان زماننا لذيذا ، لان في الصراع مقاومة للملل ! ان الالم ليحز في فؤادي أن أرى أبناءنا لا ينتظرون مفاجآت ، ولا ينغمرون في مشاكل . حياتهم ككأس ماء صاف ، القعر والاعلى يكونان وحدة متكاملة ، لا ما يعكر البال . آه لو ترك لهم العلم غريزة الجنس على الاقل ! مساكين ! يعيشون دون خوف ، دون قلق ، بلا مشاكل . حتى الموت ، مات في ذهنيتهم .

- هل تتذكر ما قالته الجدة ؟ « كل ناس اليوم لا يموتون ، أما نحن بقايا القرن العشرين ، فسنموت . اذن : نحن لسنا أناسا » .

- يا له من خطأ فظيع ! الجدة المسكينة تستنتج على قدر ما وصل اليه فكرها . نعم ، انه قياس خاطىء ، فنحن هم الناس ! نعم ، نحن أناس حقيقيون لاننا خرجنا من رحم بنات حواء ، خلقنا من نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ... ونشأنا على المنهج الطبيعي : الصبى ، والمراهقة والبلوغ . الحيضة ، والحمل ، والوضع ... أما أرهاط اليوم ، فالمخبر هو الذي يفرخ النسل ، فهم أبناء مصانع : لا عناق ، ولا قبل ، ولا مني يمنى . فها هم يعيشون على ما ولدوا عليه : كل شيء عاد ، لا وجع ولا مخاض ...

***

بقيت المحادثة مسترسلة بين الزوجين ، عن طريق الموجات الدماغية ، حتى وصل الفاروقي الى البيت .

تحرص ربة الدار على أن تتصل به من محطة دماغها لتلهيه عن همومه . فكلما خرج الى الشارع ، راوده مرضه العضال المزمن : التفكير في عالم اليوم ، ومقارنته بعالم الامس القريب . شتان ما بين العالمين !.. انها تخاف عليه من الخبل ، خصوصا وأن مستشفيات الامراض العقلية والامراض العصبية قد دخلت في خبر كان . الناس لا يفكرون ، ولا يعشقون ، ولا يتصارعون من أجل الغد ، لذا ، لا يمرضون . عندما تساوى الجميع ، « ماديا وأدبيا » (عبارة عتيقة ، أيضا) ، أي عندما انقرضت الفوارق ، لم يبق لا أحمق ولا عبقري ، لا طباع سوية ولا طباع مرضية ، فمات ، مع الموت ، الفن ، والفلسفة ، ولا شيء من الاشياء قام مكانهما .



- ٢ -

التفت حلقة الاسرة حول المدفأة ، وكان عصفور نزيل قفص من فضة يزقزق من حين لاخر زقزقة مثيرة ، وكأنه يشارك القوم حديثهم . من بيت مجاور تأتي أصداء خافتة لموسيقى صامتة ، وأحيانا يتصعد شخير الجد من سرير بالبيت المقابل فيبتسم الاطفال الاثنا عشر ، ويتغامزون .

كانت الجدة تحدثهم . انها نموذج وحيد (اذا استثنينا زوجها) ممن أطلق عليهم القدامى لفظة « شيوخ » ، وكما تصفها أساطيرهم :

شعر أبيض ، وتجاعيد في الوجه ، وانكسار في الصوت ، وضعف في السمع والبصر . اذا أرادت الوقوف استعانت بمن يأخذ بيدها ، واذا حاولت المشي (وقلما تفعل) اعتمدت على عصى .

« مسكينة الجدة ! ومسكين الجد ! لقد أتيا العالم على الشكل العتيق . لو انهما انتظرا جيلين لاستفادا من اختراعات العلم المعاصر ، ولوجدا على الطريقة الجاري بها العمل اليوم ، ولكانا على شكلنا .. ولكن .. نعم .. انهما يعتزان بماضيهما ولا يغبطان الاجيال الحالية . ربما كانا على حق . فحياتنا (كما يدعيان) غير جذابة لمن عرف الحياة الاخرى . نحن نعيش لان المخابر صنعتنا في حياد تام عن الحياة. اننا هنا ، وكفى . أما هم فيحيون بما يسمونه الصراع ، والحماس . انهم ، كما يقولون ، يحيون الحياة » .

* * *

بقي الاطفال ينظرون الى الجدة ، متأملين في وجهها ، وهي تحكي قصصا عن الماضي ، عن عصر الحرف والصناعة ، أي عن عصر ما قبل الانسان الاصطناعي ، حتى وصلت الى خاتمة الحكاية ، فعقبت :

ـ اننا لا نفرق بين الماء الذكر والماء الانثى ، ولا نتحدث عن طفولة الماء ، وكهولته ، أو شيخوخته . والسر في ذلك أن كل حبات الماء ، وقطرات المطر ، وأمواج البحر ، وشلالات الجبال ، تجسد الحركة الدائمة ، والتعاون المستمر . فالماء الراكد ماء منبوذ من المياه ، منفي في المستنقعات ، عقابا له اذ خرج عن الجماعة . انه ماء لا يصلح لا للعادة ولا للعبادة ..

فاطعها أحدهم في لهجة يملأها الحنان أكثر من الاحتجاج :

ـ أنت ، أيتها الجدة ، عندما تعيبين على أفراد جيلنا تشابههم التام ، تتغافلين عن ان ذلك هو مفخرة العنم الذي قضى على الفروق بين الافراد .

اغتاظت الجدة ، انها لا تريد أن تتلقى دروسا من الصغار ، أو من « الميني ـ بشر » ، كما يطيب لها أن تسميهم ، اقتباسا من موضة شاعت ابان مراهقتها ، أي حوالي عام ١٩٦٧ ! تلك أيام قد خلت ! جعلت الجدة حدا « لهرطقة » الولد ، واستأنفت حكايتها ، أو بالاحرى خاتمة الحكاية .

* * *

سكتت الجدة ، وأدارت مغزلها مرات متتابعة ، ثم جحظت ببصرها الى الحفدة ، فرأت أعينهم الصغيرة معلقة بشفتيها :

ـ أفهمتم معنى ما قلته لكم ؟

ـ نعم !

ـ ييس !

ـ يا يا !

وصاح اخر :

ـ يا جدتي ، ان ما ذكرته الان ، ان هو الا تعقيب على ما حكيته أمس وأمس الاول ، عندما كنت أنا غائبا . لذا لم أفهم العبرة مما صرحت به هذا اليوم .

ـ وأنتم أيها الاطفال ، هل فهمتم العبرة ؟

ـ ييس ! تقصدين بالقصة ان ....

فقاطع أحد الاخوة :

ـ لا ! الجدة لم تطلب منك أن تلخص . عليك أن تجيب كالعادة بنعم أو بلا . لا تنسوا اننا جيل اليكتروني مفطور على الاختصار والدقة !

فصرخ أحد الاخوة :

ـ نعم ، لسنا من جيل الجدة والجد الذي يجعل من الحشو والاستطراد أهم ما في لغته . انهما لم يربيا على اعتبار الوقت من ذرات ونور ، وعلاقات ، بل يقولون ان الوقت من ذهب ...

ـ ٣ ـ

دخل الاب على الجماعة ، فاظهرت الجدة غبطتها بقدومه . لقد أقلقها الانتظار . انها أم ، ومن لحم ودم ، فيؤلمها الحنين الى « فلذة » كبدها ، وتزن الوقت وباقي علاقاتها به بخفقات القلب . أما الاحفاد ، فلم يشعروا بشوق لابيهم (الشوق ؟ انه مرض انقرض مع كل ما انقرض) ، ولم ينتظروا ، لان كل حبات الزمان من لجمة واحدة ، تسيل دون طعم ، وبلا كثافة .

ـ لماذا يا بني تأخرت هذا المساء ؟

ـ الاشغال يا أماه ! الاشغال كثيرة !

ـ ألم تحقق بعد اكتشافك ؟

ـ لا ! لكني على وشك التحقيق .

ـ أريد أن يتم ذلك قبل موتي . أود أن أقاسمك سرورك وقد توجت أبحاثك بالنجاح .. قل لي ، يا عزيزي ، ما هو بالضبط ، هدف أبحاثك الحالية ؟ كم من مرة حكيت لي عن ذلك ، ولكن ذاكرتي تخونني ، لانها بشرية لا اليكترونية كذاكرة هؤلاء (مشيرة الى الاحفاد) .

فعقب أحد الابناء :

ـ نحن أيضا نريد أن نعرف ماذا تفعل يا أبتاه .

فقال له أخ ، بلهجة كلها لا مبالاة :

ـ ما الفائدة في ذلك ؟ ان البعض منا ، بالرغم عن كل ما وصلنا اليه من رقي ، ما زال مريضا بالفضول !

فاضاف ثان ، وهو يمتص حصته اليومية من الطعام :

ـ خذنا معك ، أيها الاب ، الى المخبر لنشاهد أعمالك .

هز الاب رأسه :

ـ ممكن .

ـ متى ؟

ـ غدا ، مثلا .

ـ هوكي !

مؤلفات رئيف خوري

تطلب من « دار المكشوف » بيروت ، ص.ب. ٥٨١
ومن جميع المكتبات الكبرى في البلدان العربية

الفكر العربي الحديث
وهل يخفى القمر ؟
رحلة في لبنان
الدراسة الادبية
صحون ملونة
مجوسي في الجنة
باغانيني ساحر النساء
ديك الجن الحب المفترس
الحب أقوى
مع العرب في التاريخ والاسطورة
الطغاة

— ٤ —

يدير الاب مخبرا عظيما بضاحية من ضواحي المدينة . ومنذ اكثر من ثلاثين سنة وهو يقوم بتجارب من نوع خاص .

ان المياه تتبخر أو تتجمد ، والاعشاب تحترق ، كل شيء يمكنه أن يتغير أو يدخر ، بغية استغلاله ، كطاقة للاضاءة أو التدفئة ، أو في الصناعات المختلفة ... اما الملايير ، من الملايير ، من الملايير من الجمل التي نتلفظ بها يوميا ، فأين تذهب ؟ الى أي شيء تتحول ؟ هل نذوب أم نجمد ؟ لماذا لا تدخر فنستعملها عند الحاجة ، حطبا للتدفئة ، أو لاستخراج الطاقة الكهربائية ، أو لتمزج ، مثلا ، بالاسمنت والحديد لبناء السدود والبروج ؟ يجب أن نبحث عن الكوكب ، أو أي ظرف آخر ، تجتمع فيه الكلمات بعد أن تتلفظ بها الشفاه . هذا هو المشروع الذي يعمل على تحقيقه السيد الباحث آمخ .

افترض البعض أن الالفاظ ، بعد أن ينطق بها ، تتجمع ببرزخ يسمى « السجل التاريخي العام » . ولكن ، بما ان صنف المؤرخين لم يصل الى التعرف على ذلك « السجل » ، رغم التعاون المتين مع الجغرافيين وأصحاب الاحصائيات ، انسحبوا من الميدان ، فمات التاريخ ، بانقراض المؤرخين . الا ان الفلاسفة ، بالرغم عن اننا دخلنا عصر الصمت ، بقوا أحياء يرزقون ، أي يتكلمون ، ويتكلمون ، ويتكلمون ، بكمية لا متناهية من القول المجرد الغامض ، ولا يدري أحد أين تذهب ، ولا ماذا تصير تلك الاقوال .

* * *

بعد الرحلة الى المخبر ، حيث كان الاب يعطي الايضاحات عن التجارب التي يقوم بها ، وعن الآلات ، طلب منه احد الابناء :

— لماذا لم يهتم الاقدمون بهذه القضية اهتماما ملحوظا ، في القرن العشرين وقبله ؟

تنحنح الاب ، والقى نظرة عطف على آلاته ، ثم قال :

— نعم ، لقد اهتدوا الى التمكن من عقد زواج بين المكان والزمان ، ومزجوهما ، فنتج عن ذلك ما يسمى بالسرعة : يقطعون المسافات الطويلة في وقت قصير ، وعندما يعبرون المسافة ، يعودون فيجدون الطريق والمكان هما هما . أما الكلام الكثير فيطلب الوقت الكثير ، ثم بعد أن يقطع المتكلم قسطا من الوقت في حديثه ، البطيء أو السريع ، لا يجد من كلامه شيئا محسوسا قابلا للعد أو الوزن . هذا هو المشكل . فكم سمع الناس ، في عصر التخلف ، من خطب فيها الكثير من « حرارة الحماسة » ... وقد افتقدنا تلك الحرارة ولم نعثر عليها ، كان « الجامعة العربية » ، و « اليونسكو » و « هيئة الامم المتحدة » ، لم تلق الآلاف المؤلفة من الخطب الرنانة ، او كان « حرارتها » لم تكن الا مصطنعة !.. كم من طاقة في تلك الحرارة ، لو كانت صادقة ؟!..

أما أسباب اعراض القوم عن البحث لايجاد الحلول ، فمرجعه الى معارضة المؤرخين ، لان جل ما كتبوه ورووه يعتمد على أقوال وضعت وضعا ، أو ضاعت . فما السبيل الى فضح الغفلة والاغلاط والتزوير سوى الرجوع الى الاصل . فكان من المفيد للمؤرخين الا يتعرف احد على مخازن الكلام الملفوظ عبر العصور . ثم اننا نعلم أن الفلاسفة لم يتورعوا عن افراغ الكلام في قوالب من الفراغ ، لو ادخرت لكانت فضيحتهم أشنع من فضيحة نقاد الادب ونقاد الفن ...

* * *

تلفت الجد وهو يتكىء على حفيدين من حفدته ، وسعل قليلا ، ثم صرخ :

— اكتشافك سيكون بديعا ، ولكن غير مفيد البتة ، ما دام المؤرخون قد انقرضوا . أبناء اليوم لا يهتمون بالتاريخ ، ولا بالصدق والكذب فيما قاله النقاد والمتفلسفون . ان الاجيال المصنوعة في المعامل لا تهتم بأبحاثك .

وأضافت الجدة وهي تتحرق أسفا وخيبة :

— أبناء اليوم ! آه من أبناء اليوم ! انهم لا يهتمون حتى بما هو أعمق وأثمن من النقد ، والفلسفة ، والتاريخ : الحب . آه عليك يا زمان الحب ، والغزل ، والدموع ، والعناق !..

هز الجد رأسه مرات ، وقال والسعال يتخلل كلامه :

— الوجدان ، والاستبطان !.. الشعور والعواطف !.. كل هذا أصبح ألفاظا بلا رنين ، كلمات جافة ، مفردات يابسة ، نذكرها بمحضر هذا الجيل الجديد ، فكأنما ننبش عن عظام نخرة ، في مقبرة الظلام !.. كلمات دون باطن ، ودون صدى .

تدخل الحفيد رقم ٣ (وهو من أربعة امتازوا عن بقية الاخوة بالفضول ، الى حد ما ، وبالكلام ، رغم ان جيلهم جيل عصر الصمت) وقال متوجها الى الجد :

— أنا لا أعارضك ، ولا أقاسمك أحكامك ، لانني أجهل معنى هذا الشيء الذي كثيرا ما يتردد ، في كلامك مع الجدة أو مع أبي وأمي ، والذي تسمونه الحب . الحب ؟ ما هذا ؟

أشاح الجد بوجهه عن حفيده رقم ٣ ، وتجمل بالصبر كيلا يكثر من الكلام الذي سيذهب حيث لا يعلم أحد ، الى ذلك المكان المتستر دائما والذي يعمل ابنه على الجولة في أغواره .

تشاغل الجد عن الاحفاد ، أما الام فتناولت الموضوع ، فلم يفهمها أحد من الابناء . وأنى لهم أن يفهموا ما لم يتعلموه لا في المنزل ، ولا في المدرسة ؟ أما في الشوارع ، فلا احد يخاطب احدا . كان زوجها والحماة والحمو يستمعون اليها ، ويشاطرونها الاسف والخيبة :

— الولادة الاصطناعية قضت على اتصال الجنسين ، فانعدم الميل الفريزي للعملية وللحاجة الى الاخر ، الى حضوره والائتناس به . هكذا قضت مخابر صناعة النسل على الحب ، على أقدس شيء انساني في الانسان !

قالت الام ذلك بنبرة الضراعة . فردد الجد :

— الحب ! كان الحب الغناء الروحي اليومي للفنان ، وللشاعر ، لكل امرأة ولكل رجل سوي . أما اليوم ... لا ! ما بقي في هذه الدنيا ما يغريني . اللهم عجل لي بالفرج ! أوف !..

* * *

تنهدت الجدة ، بدورها . أما الاب والام ، فلا يتمنيان الموت ، لانهما مسؤولان عن مهمة علمية عظمى أوقفا عليها حياتهما ، وبالرغم من خيبة بعض الملاحظات التي قاما بها . وقد بقيت المهمة سرية حتى اليوم .

* * *

كثيرا ما ألح الجد والجدة على أن يتعرفا على ما يقوم به ابنهما وزوجه من أبحاث ، ولكن قداسة سر المهنة حالت دون ذلك . أما الان ، وقد أوشكت التجربة أن تنتهي ، فلم يبق مبرر للكتمان التام . وفي غيبة عن الابناء ، لخص الزوجان المهمة ، للجدة والجد .

* * *

— ٥ —

التزم (الفاروقي) وحرمه الموقرة (فطومة) أن يرعيا أربعة أبناء من صلبهما ، مع أربعة من المنبثقين عن مخابر صناعة النسل ، وأربعة من نتائج تجربة ازدواجية (العملية الجنسية الكلاسيكية والعملية المخبرية) . أخذ الابوان يغذيانهم جميعا من نفس الاقراص ، ويعاملانهم نفس المعاملة ، في كل شيء . لم يعلم الاطفال ، أبدا ، انهم ليسوا أخوة أشقاء خرجوا من « بطن » مخبر واحد . نعم ، يظنون جميعا أن المخبر واحد ، ونفس الطبيعة ، وان المواد الاولى الخام كلها من أبويهما . المهم ليس ما يظنون (ولا اثم عليهم فيما يظنون) ، وانما المهم هو معرفة كيف تتصرف كل مجموعة من المجموعات الثلاث .

ان أفراد الاولى (أي الافراد الاربعة الذين صنعوا في الفراش

على طريقة ادم وحواء) قد حافظوا على ما يصطلح عليه الوسط المعاصر « رواسب التخلف والبدائية » ، حيث يتكلمون عند الحاجة ، ودونما كثير حرج ، حتى ليخيل للملاحظ ان الكـلام لديهم شبه طبيعي ، فيركبون الجمل اذا تحدثوا ، ولا يبخلون ببعض الاشارات أحيانا . كما ينتابهم الميل الى الفضول ، في بعض المرات ، والحنين الى الاخرين ، بل (وهذا هو أغرب ما فيهم) انهم يحسون (أو يشعرون بما يشبه الاحساس) ، يحسون بالملل لما في حياتهم من رتابة ... والعلامة الاستدلالية لهذه المجموعة هي (آ : نسبة لآدام) .

أما الفئة الثانية (أي مواليد المخبر مائة بالمائة) فيمثلون أعلى درجات الكمال : لا يتكلمون الا نادرا ، وقلما يقولون اكثر من « نعم » أو « لا » ، بل غالبا ما يجيبـون بـ « هوكي » أي « نعم ـ لا » ، أو « لا ـ نعم » ، على حد سوي ، لان السلب والايجاب يتساويان عندهم، في اكثر الاحيان ، ما دامت الاشياء تسير سيرا طبيعيا ـ آليا ، عـن غير ارادة منهم (الارادة ؟ هذه كلمة أخرى من كلمات الجد والجدة) . الحرف الاستدلالي لهذه الفئة هو (م : من مخبر) .

وأخيرا ، نصل الى المجموعة الثالثة (أي المكونة من خليط ، من المادة الخام البشرية ، والتركيب المخبري) . لهؤلاء الاربعة طبائـع مزيجة من عادات الفئة الاولى وسلبية المجموعة الثانية . أما حرفهـا الاستدلالي فهو (خ : من خليط) .

* * *

عندما وصل العرض الى هنا ، صاحت الزوجة ، نحو الجـد والجدة ، وابتسامة عريضة تعلو وجهها الناعم :

ــ الان ستتيقنان اني لست الانثى الارنب التي تلد بدون حصر ، كما كنتما تقولان عني ! وستفهمان ، ايضا ، لماذا كنت أغايل ، فالد كـل سنة بالتتابع ، ولماذا أنجبت أربعة أبناء ، في كل مرة ! و ....

قـاطعها الزوج ليضيف ، بوداعة العالم الذي أوقف حياته لخدمة التقدم :

ــ وعلمتما الان ، لماذا استبدلنا اسم أسرتنا ، في الحالة المدنية ، بـ « آل آمخ » !

ها ها ها ! ها ها ها !..

ـ ٦ ـ

لما انتهى الباحثان من تحرير التقرير عن التجربة ، وقبل تقديمه الى أكاديمية العلوم ، حررا وثيقة لابناء الفئة الاولى (آ) وطلبا منهم ألا يقرأوها الا بعد أن ينهوا دراستهم الجامعية .

وها مقتطفات من الوصية :

« الرباط ، في سنة ٥٣. من العهد الجديد (١) .

والان وقد تعرفتم على أصلكم ، ونسبكم ، وتنسلكم ، وعشتـم التجربة ، وقارنتم بين ما كان وما هو كائن الان ، كما قارنتم بيـن أبويكم واخوتكم ، فدونكم المخبر الـذي سترثونه دون بقية الابناء ، لانهم بلا فضول استطلاع .

يا أبناءنا الاعزاء !

نترك مسؤولية تسيير المخبر على عاتقكم . لقد حاولنا ، جهـد المستطاع ، أن نرفع شعوركم الى درجة الوعي ، وان ننقلكم أشيـاء وأشياء (اظهرتم استعدادكم لفهمها) دون بقية الابناء ، طمعا في أن تصيروا كراما بررة نحو الانسانية .

اننا نناشدكم ، باسم الآدمية التي تجمعنا واياكم ، أن تركـزوا أبحاثكم على ما يعيد للاسرة المحبة ، وينفم اختراعاتكم واكتشافاتكـم بشيء ، ولو قليل ، من العبث والدعابة ، لينسجم المعقول باللامعقول ، والنظام بالعفوية . فالذي يخترع نكتة جيدة يسدي للنوع البشري يدا بيضاء ، كالذي يخترع صاروخا ، سواء بسواء . انكم ، أيها الابناء، ان عملتم بنصيحتنا ، أعدتم الى البيوت الدمعة ، والبسمة ، وسعادة المفاجآت .

القضية هي أن تخوضوا المعركة من أجل الاسرة والبيت ، بما لهما من آلام وأفراح ، فينتصران على المخبر المستبد الغاشم الذي استعاض بآلات بكماء صماء جامدة ، ليتحدث ، ويشرع ، ويحكم ، وينفـذ ، ويجعل القوم « يعيشون » باعين لا تنظر ، وبآذان لا تسمع . فحتـى القلوب لم تبق في الصدور !..

اننا ، يا أبناءنا ويا أمل الانسانية ، على يقين من ان أقوام اليوم اذا عرفوا ، من جديد ، معنى الحب ودفء البيت وحنـان الاسرة ، تأنسنوا ، واستأنسوا ، مرة أخرى ، وأعادوا للحيـاة أبعادها العميقة الحقيقيـة .

أيها الابناء الاعزاء !

اعطفوا على الابناء الاخرين (م) و (خ) ، اخوتكم في التجربة ، فهم مجرد ضحية .

الحب والاسرة !

الاسرة والحب !

تلك هي وصيتنا .

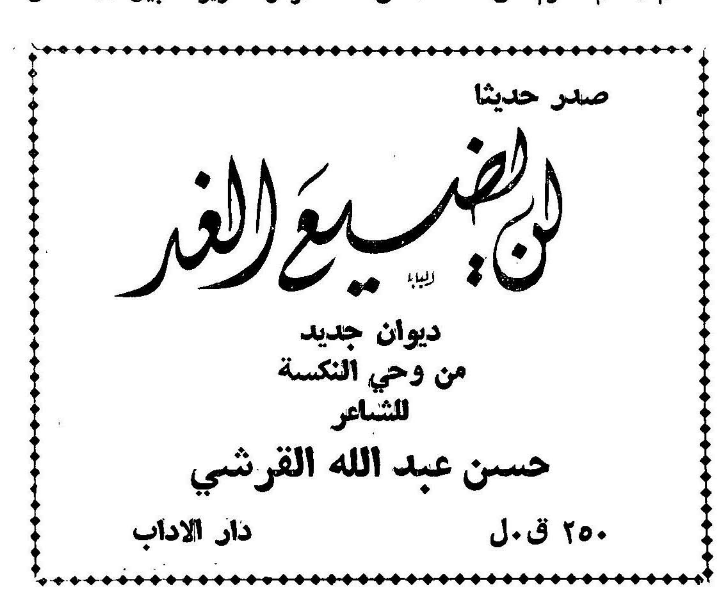
كانت جل حركات جيلنا ترمي الى البحث عن التواصل مع الاخرين. كان الاخر ، هو ايضا ، يبحث ، ولكننا كنا نبقى عن بعد ، رغم التلاقي : حضور جاف لا يشفي غليلا ، كل واحد يتمنى ويشتاق الى اكثر مـن النظرات ، فلم يجد الناس الا الـزواج (واحد وواحد = زوج) . في الزواج يتحقق الامتزاج الاعمق . ان المحبة عطش دائم الالحاح ، ولكن الزواج ، على الاقل ، يروي بعض الظمأ .

نعم ، مع القرن العشرين (بالرغم عن مرض الثرثرات ، وبالرغم عن تفاحش النفاق والزور) استطاع العلم أن يقضي عـلى السل ، والسرطان ، وحمى المستنقعات ، والطاعون ، بل انقرضت كل الاوباء . أما ظمأ المحبين فكان أقوى من كل المقاومـين ... فلا الفلسفة ، ولا الفن ، ولا العلم ، استطاعوا ايجاد حل . ولكن ، في عدم الحلول تكمن قيمة الحب .

الرجال لا يتحملون الابتعاد عن النساء ، والنساء يجهدن انفسهن، ابدا ، في الاقتراب ، ولكن لهيب ظمأ الحب ينمو بالاقتراب : « وداوني بالتي كانت هي الداء » .

جراثيم الابتعاد يقضي عليها الاقتراب ، الا ان الاقتراب هو ايضا مرض : أحدهما شراب مثلج أكثر من المحتمل ، والثاني شراب شديـد الغليان ينمي العطش .

كانت أعراض المرض واضحة ، والتشخيص لا يفتر ، ولكن أحدا لم يصمم العزم على القضاء على ذلك المرض العزيز النبيل .. حتـى



(١) طبقا لما توصلنا اليه ، بعد أبحاث طويلة ، تحققنا ان هـذا التاريخ يعادل ٢٠٥٣ مما كان يسمى بالتاريخ الميلادي (الراوي) .

حلت بنا كارثة صناعة النسل بالمخبر . اننا نعترف لكم بحظنا من المسؤولية في هذا الاختراع الشيطاني الذي يوصي التناسل الآدمي الكلاسيكي . لقد قضي الامر ، وتكسرت زنابك (روسورات) الحب والصراعات التي يوحي بها الحب ! حقا نحن ابويكما ، لم نساهم ، مباشرة ، في النسل بالمخبر . ان ما اخترعناه هو الاقراص للتغذية . لكن رغبة الجنس تأتي من الشعور بالغربة والخوف من الجوع . فلما قامت الكيمياء بوظائف الفلاحة والصيد والرعي ، وصارت كمية الوجبة لا تتطلب أي جهد ، ويمكن اخذها مجانا ، زال الخوف من الغد المجهول، وزال معه الميل الى الاخرين .

من نتائج الاقراص ان امراض الجهاز الهضمي انقرضت ، والسكتة القلبية ، وغير ذلك من الاخطار ، فاقتنع الجميع بان لا هرم بعد اليوم ، ولا احتياج الى الاخرين ، وانتشرت الانانية ، بل تناسى القوم كينونتهم وأناهم ، لانهم توقفوا عن الصراع والنزوع . أمسوا بدون حاجيات : النوع يحافظ على البقاء بفضل المخبر ، والابناء ليسوا عالة على أحد ، لانهم ليسوا لاحد ، ولا للجميع ، بل .. ولا لانفسهم، ابناءنا الاعزاء !

لقد مثلتم مرحلة حاسمة في التجربة الثورية التي قمنا بها ، وقد نجحت (طبقا لما كانت ترمي اليه) ، الا ان نتائجها تعذبنا اذ نرى اخوانكم (م) و (خ) قد انعدمت فيهم الرغبات ، وتقلصت غددهم حتى أصبحت دون جدوى او وظيفة ، مثلها كمثل الزائدة الدودية عند أصحاب القرن العشرين . نعم ، تقوم الدنيا الجديدة على انقاض العالم البالي ، دنيا القرن العشرين ، ولكن ، كما كان يقول أجدادنا : « لكل جديد لذة ، والبالي لا تفرط فيه » !

مغامرات اليوم غير جذابة لانها رتيبة ، وتسير ، كالقياس الارسطي : الخاتمة موجودة ، مسبقا ، في المقدمات . كان الناس يتطلعون الى الغد ، فانهار الغد . وكانوا يتصارعون بحافز الحب ، منبع التحديات والصراعات . أما اليوم ، فلا احد ينتظر احدا من الاحديين . انها هندسة سوت الباطن بالظاهر ، ووجهت المسيرة على خط واحد مستقيم ، صراط لا اعوجاج فيه ، لا طلوع ولا هبوط . الزمان ، هو ايضا ، تقلصت كل أبعاده . مرآة واحدة بثلاثة وجوه : لا تغير بين أمس ، واليوم ، وغد . فاستاذ النحو بمدارس اليوم (أي الالة المتخصصة في هذه المادة) تقرر ان الكلام الذي نرسله ، شفويا ، او بالتموجات من الدماغ ، لا يخرج كله من ثلاثة أنواع : الفعل، والاسم ، والحرف . فأما الفعل ، فله صفة واحدة تعبر عن الدوام . اما الاسم ....

أيها الابناء الاعزاء !

لا نريد ان نطيل عليكم اكثر مما فعلنا ، راجين عدم المؤاخذة لاننا ما زلنا متأثرين ، الى حد ما ، بجو القرن العشرين وبعاداتنا العربية التي لم تكن تعتبر « الوقت من ذهب » ، بل من رمل . وكم كان عالمنا العربي غنيا بالرمال والكلام !

اذن ، أيها الابناء ، اننا نعلق عليكم كل الامال في عملية الانقاذ . لقد اكتشفنا كثيرا من المكاسب العلمية ، ولكننا لم نتكاشف لانفسنا ، لاننا أهملنا النكتة في الابحاث ، وتغافلنا عن ادخال قليل من العبث والدعابة للمخبر . فتلافوا أنتم الامر ، قدر الامكان .

ان مفتاح أبواب كل الاسرار هو الحب . نعم ، مارسنا الحب فوجدناه صعبا ، وكأننا نمضغ الحديد : ولكنه طعام لذيذ ، غذاء من أزهار تنبع عن الجرح بعبير من نور ، فنشعر اننا أرواح مجنحة تتحدى الموت والمصير ، وتجعل الرجل حمولة للمرأة ، والمرأة له فاكهة .

اعملوا ، أيها الابناء ، فنحن معكم قلبا وقالبا .

التوقيع :

امكم	ابوكم
فطومة	الفاروقي

الرباط (المغرب) — محمد عزيز الحبابي

امام الباب المغلق

ديوان الشعر المنتظر
للشاعرة العربية الكبيرة

فدوى طوقان

المجموعة الشعرية الاخيرة التي وضعتها شاعرة النكبة فدوى طوقان ، وهي تضم طائفة من القصائد الجديدة المستوحاة من مأساة الشاعرة ومأساة كل عربي مزقته كارثة فلسطين .

صوت ندي بالاسى والدمع يجيئنا من الضفة الغربية ، يحدثنا عن آلامنا ونكبتنا أعمق الحديث واشده حزنا .

اخر ديوان لصاحبة « وحدي مع الايام » و « وجدتها » و « أعطنا حبا » .

الثمن ٢٠٠ ق٠ ل — صدر حديثا

اشلاء في النهر المقدس

دماء يسوع في الاردن
تغلي فيه صارخة ، مغرغرة :
« اياشعبي ...
عرفت الصلب ثانية !
ووخز الشوك ...
ذقت الخل ... طعم الذل
فجرا ... بين لصين
وغام الضوء في عيني
مع الصبح !
رايت البائع المكار ...
ابصرت يد الشاري
تمد الي في الظلمة
اصابع اخطبوط راح يسحقني
ويرهبني باحداق
مخيفات
يمج الجمر من فمه
بأعراقي
ويشعل حقده المقذوف من دمه
شرايين الدجى نقمة
يجمعها ... ويرسلها رتيلاء من الرعب
تمتص الدفء من قلبي
تمص بقية الحب
وتغرقني ،
بما تشتف ، في بحر من النار
عتي الموج هدار
اضيع فيه صفو النهر ...
لون القمح والزيتون ...
افقد عبر لجته
نقاء محبتي السمحاء
وجه الحب والصفح ... »

***

وفي سيناء كان محمد بالعشب
يستر جسمه العاري
وتجمع كفه أشلاء اكليل من الغار
وريش براقه المنثور
تنسله سهام الغدر
تطلقها وراء الليل اقواس
تلص وتنكر الوتار والرامي
وما تبري يد الغيظ الذي جنا
ولاب ودار في دوامة الاحقاد
في دولاب اعصار

***

سيرجع وجهك العربي ...
تطلع من ذراك الشمس يا وطني
ويبعث امسك المدفون من غيبوبة الكفن
سينهض فارس الصحراء
زارعها بأضواء
تنير الدرب للساري
ويلمس ليلة المعراج
في وهج انطلاقته
يمس بقدس راحته
جدار المسجد المهدوم
بعد سقوطه المشهود في سيناء
مجروحا بسهم الخيبري الوغد ...
تغسل كف يوحنا
جبين مسيحه الدامي ...
يشك « الخضر » بالرمح الدقيق النصل تنينا
يضيق بكهفه ابتلعا
ثمار تلالنا الخضراء
قمح سهولنا جشعا ...
وتعتنق الزنود السمر
تلتمع السيوف الحمر ، للثار
ويشرق وجه أدونيس
يضحك مبسم الشقران
رفافا باذار ؟

فؤاد الخشن

بعيداً عن أريحا

قصة بقلم محمود الريماوي

لقد انفصلت عنها بشكل لم تكن تتصوره او تنتظره ، هكذا غفلا عن ارادتك وامام العالم كله . ما أضيع ايامك الان ، في واضحة النهار كانت اعصابك تتساقط من الانفعال .. ستشاهد المدينة التي تـزوج فيها ابوك ، ستشاهدها يافا ثم تغني للنصر .. كنت تهيء اصابعك وحنجرتك للغناء عن النصر ، لكن مصير مدينتك هو الاهم لانها صلب الموضوع ، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان .

كنت تقرف منها ، من شوارعها الطويلة العريضة الممتدة ، التي لا ينتظرك فيها صديق ، أو يختبىء وراء اشجارها ميعاد !

كنت تسميها العجوز ، لانها لم تمنح قلبك الدفء لحظة واحدة ، وجسدك الفعل لو مرة واحدة يتيمة . وتمقت فيها الناس ، كل الناس المتناثرين والموزعين في احيائها المتعددة ، صبيحة » و « الشيخ صباح » و « كتف الواد » منطقة سكناك .. اولئك الناس كانوا يتسللون الى صمتك بنفس السحنة وتعبيرات الوجوه . لم تنتم اليهم يوما . كنت تقول ما الذي يربطني بهم غير العادة ، تكرار العادة ، والعادة قبـر مفتوح دائما يستعد للالتهام وانت تنشد الحياة والحركة . مقاهيها خبرتها حتى أقلها نظافة واكثرها شبهات ، وكانت تشدك قرابة من نوع معين الى زواياها وكراسيها وطاولاتها وروادها . هنا كنت تحرق ساعاتك في الثرثرة والضحك ولعب الورق ، ثم تقذفك المقاهي الى الشوارع الفسيحة ، تتحسس جيوبك الفارغة وشفاهك الناشفة ، وتلعن حفرة الفراغ التي أدمنت على السقوط فيها كل يوم .

لم تكن تحب من المدينة سوى مكتباتها ، تقف على ابوابها تتصفح المجلات والجرائد ، وتشتري ما يسمح به جيبك وتعود الى بيتك تقرأ ما حملته من الاوراق كالمأخوذ ، وتظل تقرأ وتعود الى القراءة كلما داهم الصقيع اعماقك . لكنك كنت واثقا بأن توفر المكتبات ليس عزاء لك ، فالمكتبات موجودة في اضيق المدن واصغرها ، فماذا يعني وجود مكتبة بسيطة متواضعة او اكثر في مدينتك المصابة على خلاف مدن العالم بالحساسية التاريخية ؟! لا شيء . وهناك ايضا المدرسة . المدرسة كانت صليبك اليومي وعذابك اليومي . منذ تعرفت الى المطالعة الشخصية أصبحت تحتقر المدرسة ، طلابها ومدرسيها وكتبها ونظامها بل وكل شيء فيها . كانت المدرسة تهيء لك مستقبلا جاهزا ، مستقبلا جافا ومعلبا لا تطمح اليه ولا تبني اليه جسرا . حتى دروس التدريب العسكري كنت افشل الطلاب فيها ، ولانك كنت تبحث عن مستقبل آخر يحمل مضمونا مغايرا تجسد فيه شخصيتك وتحقق ذاتك ، وتحافظ على نقاء جلدك الخصوصي .

وكنت تحلم بذلك اليوم الاخضر المنشود ، اليوم الذي تهجر فيه مدينتك وترحل الى الابد ، وتعانق المجهول والاخر . كنت ترصد ذلك اليوم وتنذر له عمرك وشبابك .

لكنك لم تكن تتصور ، او حتى تستطيع أن تتصور ، ان تكون فأرا ، مجرد فار كالاخرين تهرب عندما تموء القطة .. يا عارك عندما تموء اجبن القطط في العالم !

كنت تعتقد انك ستجتاز المدرسة بسلام ، وتذهب الى الجامعة ، وهناك تتحول حياتك ويصبح لها مذاقا اخر ، اكثر حيوية وفاعلية واقل بلادة وموتا .

وكنت تكتب وتكتب . وتقول لاصدقائك لا بد ان يأتي ذلك اليوم. حتما سياتي ويكون المنعطف المنتظر .

متى كنت تتصور ان ينعطف مصيرك بهذا الشكل ؟

وانت اليوم ملقى في حضن مدينة كبيرة صاخبة ، تعلك لسانك من الجوع وتحك جلدك من البرد ، وتعصر ريقك من العطش . نعال الغرباء تسحق قامتك الهزيلة المقوسة ، وعيونهم تصفعك عندما تعزف عن وجهك المرفوض .

اليوم ، يصح ان يقال عنه يوم الفاجعة . انت مفجوع رغم مكابرتك . هل تنكر انك كلب ضال يتسول موائد الغرباء وانك فأر جبان تحاصرك قطط العالم كلها ، وانك لا تستطيع حتى ان تنتظم في جمعية الرفق بالحيوانات ؟!

هكذا .. مصفوع على قفاك ، والمنازل الشاهقة يبول اصحابها المترفون على راسك ، وانت بعيد عن الحياة قريبك الشديد من الموت .

اعتدت ألا تكون مخادعا ، امنت بالصدق والمباشرة والوضوح . الان لا تملك الا ان تكون مخادعا ، وان تفر من وهج الحقيقة التي تواجهك وتتحداك سافرة .. غادرت مدينتك كالظل عن الشمس ، ولم يبق فيك شيء يستحق ان يغادرك .

لست بعيداً عنها بمقدار ستين كيلومترا . ابعد من هذه المسافة ، حتى لو ركضت اليها ــ ما اقسى واطرف مفارقات الاشياء ! ــ لن تستطيع ان تدركها قبل ستين عاما . لم يحدث هذا قبل شهرين . لا بل بعد ان تخليت عن بستانك . متى حدث ذلك ؟ عميق هو الزمن الذي سافر الى الابد . قبل الميلاد ، قبل ميلادك ، وهل ولد العالم قبل ان تولد ؟!..

قلت لافراد عائلتك مذعورا ، يجب ان نخرج ، واذا بقينا سنتعرض للموت ، وتعللت بالاطفال ، جدفت على براءة الاطفال واقنعت والدك بالخروج .

حملت فراشك على كتفك كالفجري ، انزلقت في الشوارع ، والهة الخوف ترقص في جوفك .

قال لك جارك والدهشة تتمطى على وجهه : « لا يصح . هذا عيب » . وقلت له : « سترى .. الخطر محدق ، وبعد الروح لا شيء يهم » .

وتدحرج معك شقيقك الصغير . ايقظته من النوم . لا بد انه كان يحلم بالحارة التي يلعب بها امام البيت .. يحاور الكرة الاسفنجية ويتقلب على نزواتها . قلت له : « نريد ان نتمشى » . صوب عيونه اليك كالمسدس ، وقالت عيناه باصرار وثقة : « انت كاذب » . عندها ايقنت انك كاذب ، فعلا ، وانه ليس بينك وبين شمس الصدق علاقة.

لكنك كنت حريصا على جسدك من ان ينفق بفعل القنابل والرصاص ، وجعلته يرافقك واخذت تركض في الطريق ، كاللص يتبعه صاحب الدار .

تجاوزت افراد عائلتك قبل ان يضرب الغزاة الجسر ، ثم تجاوزت الجسر وظللت تركض ، لم تكن تعي ما يحدث ، كانك قد اقحمت على فيلم سينمائي انت بطله ، لكنك على غير استعداد لدور البطولة . المهم انك كنت خائفا من النار ، لم تكن تدري ان النار ، تمنح الاشياء ــ انضرها واطيبها . امتياز الولادة والحضور !

لم تكن غبيا ، كنت تدري ، ولكنك كنت واثقا بان بقاء جسدك هو الهم الاول والاخير .

النَدَم

عاد الندم الافاق ،
عاد وصولته تقتلع الامن من الاعماق ،
كالليل الماجن . كالريح المرعبة الاصوات ،
يتسلل من كل الساحات ،
فيزيد الموت الى الاموات ،
الندم القاتل قد عاد الينا ،
ففرشنا الحزن . وغنينا ،
وحمدنا مقدمه الميمون وصلينا ،
ودعونا كل الناس الى الصلوات ،
لكن يا للخيبة ،
المعبد لم يستوعب كل الناس ،
قفل الباقون بلا احساس ،
عادوا لكهوف الندم الحيران ،
ندموا حين رأوا ان المعبد يشكو الضيق ،
ففريق يشكو لفريق ،
والارض الرخوة تهتز ،
وتكاد تغور الاقدام ،
يا ويح الانسان ،
كم صار يتيما في الزمن الظالم ،
كم يشكو رعبه ،
يغرق في الطين الى الركبه ،
فالارض الرحبة ،
ضاقت بالانسان ،

احمد الآخذي
المفوضية اليمنية باديس ابابا

واخذت معالم اريحا تبتعد عنك رويدا ، رويدا .. الدخان يرنمي فوق المدينة ويسلب انفاس اصحابها ، وكنت مرتاحا لذلك . لقد ابتعدت عن الخطر .. وبعد ذلك تذكرت افراد عائلتك ، قلقت على مصيرهم ، ورحت تنتظرهم بقرب شجرة .. وفي الوقت نفسه خفت ان يكونوا قد حصلوا على سيارة او باص ، وتخطوك الى عمان .

لحظة ، ومر باص مكتظا بالم ردين ، وكان شقيقك يلوح بيديه لك ، توقف الباص قربك ، صعدت اليه كانك صاعد الى بوابة الفرج .. تحسست مكان قلبك ، اخذت تجس النبض ، اسعدتك النتيجة ، لقد كان طبيعيا .

مضى الباص في فراره اللاهث ، وانت مكوم مع الفراش . كان كل همك ان نصل الى عمان ، بذلك تصل الى مرفأ الخلاص وتكون بعيدا عن اريحا ، عن القبر .

●

الان واكثر من اي وقت مضى ، اصبحت الامور اكثر وضوحا ورعبا .

خرجت قبل ان يخرج احد من المدينة . كنت تمقتها حتى الغثيان وحتى ساعة الاختيار الصعبة .

ارتميت في عمان . اصبحت تتجول في الشوارع وحيدا ، هائما على وجهك .

تعرفت الى المقاهي ، مناخ المقاهي اكثر المناخات ملاءمة لنفسيتك ومزاجك .

صافحت اصدقاءك الهاربين ، هنأتهم بالسلامة وطول البقاء ، ضحكت وتضاحكت معهم ، ولم تتورع مشاركتهم لعب الورق في انسيابية غير مألوفة ، دخنت من سجائرهم ، ودخنوا من سجائرك كما يحدث في المعتاد .

وكان كل أملك ان لا تتجدد الحرب ثانية ، لئلا يتجدد الخطر ، ويستأنف الخوف رحلته عبر اعماقك . لم تحدث الحرب ثانية ، ركنت الى اطمئنان خادر نباتي ، واصبحت تخطط للمستقبل (كأنه كان ينتظرك مستقبل) وبمنتهى الانسجام .

ظلت الحياة هي الحياة ، لم تفقد نعمة العيش ، حزنت حزنا مجانيا رخيصا على الذين احترقوا وتفسخوا .. في الوقت نفسه ابتهجت لانك لم تكن واحدا منهم ، ولانك كنت حاذقا وذكيا ، هربت في الوقت المناسب . اسعفك حدسك المريض ، وافلحت ان تظل على قيد الحياة ، كالكلاب التي تهرب من حجارة الاطفال الى العراء ...

●

انت الان صريع الصدمة ..

قال لك موظف الجوازات الذي يعالج معاملاتك : ـ آين تقيم ؟

سرحت برهة ، واصبحت وجها لوجه مع بيتك القديم والحديقة ، والاصدقاء . انتقلت الى ما انت فيه ، تساءلت بينما الموظف في ذروة الانزعاج والدهشة ، تساءلت : اين تقيم ايامي ؟ ارتد السؤال اليك ، لكنك كنت ملجوما .

ـ تكلم يا اخي .. في القمر انت مقيم ؟!

وتمنيت لو تكون مقيما حقا في القمر ، او اي مكان معزول منبوذ ..

قلت له باستغراب : ـ انا لست مقيما !

قهقه في وجهك [illegible] وقال : ـ الاخ .. ابن بطوطة ؟!

تضايقت من هذا الاستفزاز حتى كدت ان تنفجر ، قلت له باقتضاب : شكرا . وانصرفت ...

بصقك المكان الى الشارع العام ، اخذت أقدامك تطوف ارجاءه على غير هدى .. اخترقت منتصف الشارع ، وبقيت تسير في المنتصف كالسكير او المجنون ..

زعقت من خلف ظهرك سيارة يؤمن قائدها بعصر السرعة . لكنك لم تصغ السمع .

كان يفترض فيك العقل مهما يكن بسيطا ، وبالتالي الابتعاد ، ولكنك امعنت في عنادك هه .. ماذا ؟! السيارة تصدمك . تقذفك الى ناحية الشارع كالنفاية ، جثة تسبح في دمائها ..

لكنك نجوت باعجوبة . لم يمت جسدك .

أفقت فاذا انت في المستشفى . واذا باطرافك مستعمرة للالم والتشنج .

لحظتها تذكرت الذين سقطوا على مشارف اريحا ، وتذكرت جيرانك الذين اصروا على البقاء في اريحا ، وتمنيت لو كان جسدك سليما لكي تتسلل .

بينما أنت مسجون ، وجسدك سجنك .

واخترقتك مشاعر حادة كالسكاكين لا قبل لك بتحملها .. اخذت تحدق في الضمادات ، والاقمشة الملتفة باحكام حول اطرافك ، وبدون مقدمات كانت الدموع تنزف بغزارة من عينيك .

عندئذ ، كان الزمن يمارس الفعل ، وانت تكتشف انك ابعد ما تكون عن اريحا ..

تقوقعت حول بعضك ورحت تبكي وتبكي ..

تجمع حولك المرضون والممرضات والنزلاء يمطرونك بنظرات الحزن والشفقة ، فيما انت تغوص في السرير ، الى القاع.. الى القاع..

محمود الريماوي
عمان ـ الاردن

اليتامى

« ينتحب جيلنا امام صخرة الهزيمة ، يراجع حسابه ويستقريء تراثه ، ويحمل اتهامه من الداخل ، يعترف آنــــه ضرس بحصرم تقصيره ، لكن الثورة لا تحتمل جيلا منتحبا ناعبا ، لهـذا يتصبى الجيل جواده الجديد ، تحوله الجديد ، يلغي لعنته ، ويسرج جواده ، نظمه التقدمية ومفاهيمها » .

الكورس :

وهبناك ، يا جرح ، عمر القبيله
وكنا نعدك عاما فعاما
حملناك أيقونة للرؤى المستحيله
وتعرف انا يتامى
فان أحرقت ، في البراري ، خزامى
وان جز سيف جديله
بكينا أبانـا الهماما

الشاهد :

وكان ، على الصخر ، ينشج
أبو لهب يقتفيه ، فينهد ، ينشج
« .. ولو مت غيله
« فان حضوري ، الى الارض ، يخرج
« يصوغ الحوار ــ القبيله
« يسوق الاضاحـي ، وينفـي الاضاحـي
الدخيله
وكان اغتراب ، ورؤيا طويله
وكان نبي الى الله يعرج

الكورس :

وهبناك ، يا جرح ، عمر القبيله
هبطنا ، نديرك خيطا وننسج
قماطا ، ومشنقة أو وساما
فما هاجر الجوع :
« ــ انا لنطبخ ما ليس ينضج
« نهدهد ما لن يناما
وحط أبو لهب ، في حمانا ، وقاما
يسوق الاضاحي الدخيله
يسب أبانا التقي الهماما

... وهبناك ، يا جرح ، عمر القبيله
هبطنا .. فهب ، لليتامى ، حساما

الشاهد :

وهــز الحسـامـا
تداخلت الريح في الدم ، روى غليله
ودحرج جمجمة ، واستقاما
على فرس الجرح ــ بدر القبيله
. . . .
ومن بعده ، امتد سيف مخيف وحاما
وحام غراب الاضاحي الدخيله

الكورس :

وهبناك ، يا جرح ، عمر القبيله
وباسمك خنا القبيله
زرعنا بقايا المدى باليتامى
فكنت ، لنا ، نخلة مستحيله
تعرش ، فوق القطاف ، وفوق القبيله
قماطا ، ومشنقة أو وساما
وما كنت يوما حساما

***

جواد يضم اليتامى صهيله
يخف ، اليه ، النشامى
يعدون سرجا ، له ، في القبيله
يعدون سرجا ، عنانا ، حساما
ترى هل تفور الخزامى ؟
ترى هل تفور الخزامى ؟

حمص — **أحمد دحبور**

صوفي

قصة بقلم منذر الفرا

« مضى ربع ساعة ونحن بانتظارك . أهكذا تعامل السيدات ؟ »

قالت صوفي هذا واستمرت « أعرفك بزوجي » وفاهت باسمه « أقدم لك السيد ... من سورية » فمد يدا صديقة وصافحني بحرارة دهشتني . لحظت صوفي ذلك فقالت « لقد كلمته عن لقائنا هذا الصباح » فنظرت اليه وابتسمت في وجهه المعبر الصارم .

قلت « الواقع اني أنتظر منذ ساعتين . وحين وقفت في الشرفة منذ لحظات ، لمحت شبحكما تحت ضوء الشارع الخافت ، فهبطت الدرج بسرعة . لماذا لم تقدما الى النزل ؟ »

فقالت صوفي بعينين ضاحكتين غامزتين « انتبه . وعدتك أمام النزل ، لا داخله » .

« آسف ، أخطأت الفهم اذن . ما رأيكما بفنجان شاي ؟ »

اجابت وهي تشد على يدي « دعنا من الشاي . أعلمني ، ماذا رأيت من بودابست ؟ »

فقلت « الشارع الرئيسي في عقدة المدينة ، بضع مقاه ومطاعم ، مئات الوجوه ، وفرعين أو ثلاثة لمؤسسة ايبوس باحثا عن صوفي ، وبالطبع لم أعثر عليك » .

قالت « كان العمل اليوم شاقا ، ولم أكن في أي مكتب . يا مسكين ، انك لم تر من بودابست شيئا ، رغم جودة الطقس . أعتقد أن مهمتي أمست شاقة . فماذا أريك ؟ خلال ساعات فقط وفي الليل؟ »

قلت « اني ممتن لك أن تريني ما تشائين . لقد وهبتني في الحقيقة كل ايناسك ولطفك . وفي النهاية ، فاني أفضل الناس على منجزاتهم ، ونحن معا . ربما لولاك بت في بهو المطار على كرسي . لقد فعلت الكثير . »

فقالت « دعك من هذا . أعلمتك البارحة انها ليست وظيفتي ، انما تطوع . دعنا الان نسرع لتناول الباص والذهاب بدءا الى الحديقة العامة . »

« حسبما ترغبين » .

ذلك انها ، صوفي ، لم تتوان عن تقديم خدمة لي مساء أمس . كانت أكثر من انسانة ، وماذا أقول ؟ لقد وصلت الى مطار بودابست في الحادية عشرة ليلا . واستمرت اجراءات الجمرك والامن أكثر من نصف ساعة . فلما مثلت امام مكتب الفنادق بردهة المطار الرئيسية ، قالت السيدة العجوز وراء الحاجز « آسفة . ألم تحجز مسبقا ؟ »

قلت « لا . لم أكن على يقين من وصولي بيوم معين . »

فقالت « انه ليس ذنبي . ليس لدي مكان في أي فندق ... وتمهلت لحظات « أترغب درجة معينة ؟ »

« أريد فراشا أقذف اليه في أي مكان . منذ الفجر وأنا انتقل من مطار لاخر . أكاد أموت اعياء . أرجوك أي مكان . أي فراش . »

طأطأت رأسها وقالت « لحظة . » واستدارت نحو قرص الهاتف تديره بسام واضح . ونظرت حولي . كنت الغريب الوحيد . والفراغ يملأ الدنيا ، وأمامي المحفظتان ، وبداي منسلختان ، وأكاد لا أقوى على الوقوف . وقالت أخيرا « لم أجد أي مكان . معذرة . »

وصرخت « ولكنكم منحتموني سمة دخول . الا يجمل أن تعاملوا الناس كبشر ؟ »

فقالت ببلادة « هدىء من روعك يا سيد . لم أمنحك السمة بنفسي . انها خطيئتك . »

وانعقد لساني . كانت كلماتها سما . وبهت .

عندها برزت صوفي أمامي . صبية هيفاء ، ذات عينين خضراوين حمامتين ، ووجه صبوح ، وقامة مربوعة ، وتكوين شرقي ناعم . ابتسمت وقالت « هل أستطيع مساعدة السيد ؟ سمعت صوتك عاليا فخمنت سوء تفاهم . » فقلت « اني تعب ومنهك وأريد فراشا بأي ثمن ولا أجده . والسيدة لم تعثر على فراش في كل بودابست . يبدو أن الزائر حشرة لا قيمة لها هنا . والا .. » فقاطعتني « عفوا . ماذا تعني ؟ » .

فقلت « منذ نصف ساعة ونبحث عن فراش . وعبثا . بهذا يتلقى زائر لاول وهلة ؟ ويتلقى بوجه غاضب ولامبالاة ثلجية ؟ لكأن السيدة تقول « الى الجحيم بك وبالفنادق ! » » .

فهزت صوفي رأسها مبتسمة « انها ليست مهمتي . لا بد أن السيد ايطالي » .

فقلت « من سورية » .

فصمتت لحظة وعيناها تلوبان . كانت جميلة كالفرحة . كانت وديعة ومشرقة اخر المساء . وكنت أملا وابتهالا . تطلعت الي مرة اخرى وقالت « اطمئن . انها ليست مهمتي ، ولكن عليك بالاناة ، ان سمحت. فقد يكون الزائر ذا قيمة . » ونظرت في عيني مواربة .

فقلت « اعتذر لما قلت . ولكني مرهق ، مرهق لدرجة الشلل » .

فابتسمت ، وأشارت بيدها أن اهدأ . وتمتمت « فهمت ! » ثم التفتت الى السيدة العجوز وكلمتها طويلا ، فاومأت الى السجلات أمامها والى الهاتف بحركات يائسة . ثم قالت صوفي « أعرف نزلا يستعمل في الطوارىء . سأتصل بصاحبته . لكن أركن الى الهدوء أولا » .

وأنجزت صوفي الامر في دقائق . كنت منهكا ولكن شيئا بدأ يزهر في أعماقي بحيوية وحشية . وقلت لصوفي « وكيف ستصل الى المدينة ، فالتكسي يكلف غاليا وليس سواه الان » .

فقالت « انتظر ، فعلنا المهم الان . » وابتسمت « لدي زائران أميركيان كبيران . وانا أنتظرهما . تجلس أنت ومحفظة حذاء السائق ، ونجلس نحن في صدر السيارة . وندبر أمر المحفظة الاخرى . وهكذا تستقل التكسي بلا مقابل » .

« ولكن كيف ؟ »

فربتت ذراعي « ما يهمك كيف ؟ سأوصلك الى النزل بنفسي » .

فقلت بصوت واه « كما تريدين » وتابعتها عيناي فيما هي تنسحب وراء مكاتب المطار .

وطالت غيبتها . فاعتراني يأس مدمر . كان المطار مقفرا عدا السيدة العجوز وهي تتثاءب بانتظار انتهاء الزمن . وثلاث فتيات في مكتب « ماليف » للطيران ، يثير فيهن البرح ضحكا متصاعدا .

ولكنها عادت اخيرا . رأيتها في آخر القاعة تشير الي . فهرولت وراءها حتى الساحة الخارجية . وتكلمت مع الضيفين . وسمعت الرجل يقول « لا بأس ، لا بأس » وهززت رأسي لهما ، فأومأ بالسلام بوجه جهم . وجلست جانب السائق ومحفظة في حضني . وطوال الطريق ، كانت صوفي تثرثر مرحبة ، ضاحكة ، ممثلة ، ولكن بحساب،

والرجل وزوجته يجيبان باقتضاب : مجرد لباقة . وعيناهما أخيرا في فندق بدا لي قصرا . وهرولت الى صدر السيارة وجلست مع صوفي. كنا الان بلا حرج . وهزلت صوفي مع السائق بطلاقة . وكان المساء مزهرا فطفحت قلوبنا بشرا وبدونا كاصدقاء قدامى .

قلت « لا بد أنك رائعة » .

فضحكت « يكفي هذا . قل لي ، أتقيم طويلا هنا ؟ » .

« الى صباح ما بعد الغد »

« هكذا ! لن ترى الشيء الكثير . ألك احد هنا ؟ »

« لا . سأحاول أن أكسب الوقت »

فقالت « كان يسعدني أن ارشدك الى المهم . ولكني موظفة وزوجة وأم . »

بدأت صوفي تشرق في ذاتي . كنت أتشرب ألقها ، أتشرب بلا ارتواء .

وتابعت « نسجل اسمك أولا في الايبوس هنا . ونحصل على الاوراق الرسمية للاقامة . ونعود بعدها الى النزل . » فقلت « أية أوراق ؟ لماذا ؟ ألم يسو الامر ؟ » .

فقالت مربتة يدي « صبرا . مجرد اجراءات » .

وتوقف السائق . أنهينا الترتيبات بسرعة . وكان ثمة اخرون . وقالت فيما ثلاثتنا نتجه الى السيارة « أخيرا الى النزل . هل اطمأننت ؟ » .

وفي منعطف غير بعيد ترجلنا . كانت صوفي تدخن بنشوة.وقلت « لقد أسديت لي معروفا كبيرا . هل تسمحين بدعوتك للغداء غدا ؟ »

قالت « الغداء ، لا . ولكني أقبل دعوة عشاء . ومع زوجي ان سمحت . هذا لانك مغادر في القريب ، ولان . . » وصمتت . فترددت برهة ثم قلت « طيب . سأنتظرك . »

وصلنا الى الحديقة العامة . كان جو آب ربيعيا وعطر الزهور فواحا . ولكن الاهم ، أنه كان ربيعا في أعماقنا . كان الزوج سعيدا بامرأته ، معتزا بها . انها تكلم الاجنبي . ويبدو له الاخر مثارا . ويتضاحكان . فيسألها الزوج أن تترجم له ، فيضحك هو الاخر،وتطوق يده وسطها . كنا في الحديقة العامة : الليل مخملي وديع ، والنور خافت مثير . الناس على المقاعد الخشبية ازواجا ، والليل والحب يرقصان . فقلت « صوفي . انظري . انه لجميل أن يتمتع المرء بأيامه . » ولمح الزوج ايماءتي ، فأجابت صوفي « اني لا أحب هذا . لكل شيء مكانه . أنا من الريف ولا زالت جذوري هناك » . وابتسم الزوج وشدها اليه . فقالت « أتعرف ، نادرا ما يتاح لنا تجوال كهذا » .

في الجانب الاخر كانت اوركسترا شعبية تعزف الحانا وطنية . وفي قلب الحديقة ترتفع عواميد المياه الملونة . ونحن نسير ببطء ، تحدونا غبطة طاغية .

ووصلنا الى مقهى تحف به الزهور . وسألتني أن نجلس قليلا .

قالت « هل تحب الرقص ؟ »

قلت « أحيانا » .

« واذا فنشرب كأسا ونتحدث » .

فقلت « ودعوة العشاء ؟ » .

« دعك منه . في الخامسة تناولته مع زوجي . وأنت ضيفنا الان » .

« ولكن كيف ؟ » .

فضحكت وأخرجت سيكارة جديدة « دعك من العشاء ومن كيف. لقد أمطرتني هذه السيكارات الجيدة أمس » .

فربت ظاهر يدها « لا تذكري هذا . اتعلمين ؟ اني المس مشاعر منهلة حقا » .

فقالت « لعله السفر . » فاجبتها « ربما ولادة النفس » .

ونظرت بي . فاجتاحني التلعثم « لا تغادر مخيلتي صورة الامس. السيدة العجوز وعنجهيتها ، وأنت قبالتها مشرقة كفجر . لماذا ؟ ».

فقالت وهي تمط الحروف « دع كل فراشة تغزل شرنقتها » .

وتحدثنا طويلا . كانت صوفي موظفة في مكتب السياحة الحكومي. والزوج ، وهو رسام فني ، يدرس ليلا ليحصل على شهادة الهندسة . قالت ان لديها طفلة الان . وان دخلها يجب أن يزداد . وأنها تسجل ساعات اضافية كثيرة . وهما ينتويان شراء شقة بالتقسيط « الحياة في غرفة لا تطاق . » قالت انها جاءت من الريف ، ولذلك لم تعتد المدينة المعقدة . وقد تزوجت صدفة من هذا البودابستي . وهما يجتمعان في الامسيات وأيام الاحاد . « أنت تعلم . علينا أن نعمل . وحين يهبط المساء ، نكون قد استهلكنا . ان حياتنا رتيبة . ولذلك حين نجتمع معا ، وفي سهرة كهذه ، يكون الامر غير عادي » .

فقلت « ولكنك موظفة في الايبوس ، وبوسعك أن تعيشي حياة سياح » .

فقالت « هنا السخرية . فماذا يعني أن تكون سائحا ؟ عليك أن تحصل على كل مباهج الحياة . وممن ؟ منا نحن . وكيف ؟ لكم أحس بنفسي خادمة جوعى في مطعم من الدرجة الاولى » .

فقلت « عفوا . ربما كنت واحدا من هؤلاء » .

فابتسمت « الى هنا فقط . ولم نقدم صوفي على طبق شهي لتهان » .

والتفتت الى زوجها . كان ينقل نظراته ساهما بين الراقصين . لا بد انه يسوح مع الافكار . حدثته صوفي قليلا ثم قالت « أتدري لم اهتممت بك ؟ سأخبرك الان : حين رأيتك في المطار كنت كسمكة حية تتلوى فوق الرمال . كانت تعابير وجهك تنبىء بكارثة . اني اعرف هذه المواقف . فانت خارج النطاق . ثم قلت انك سوري . فاستنشقت عبيرا من ماضي . لم يكن الامر كذلك تماما في البدء . ادركت ذلك لما ودعنا المسؤولين الاميركيين . فقفزت الى جانبي بلمحة ، وانبثقت فيك حيوية أعرفها . ضحكت ومرحت وداعبت ، وكان العالم طرفة بين يديك . انذاك ذكرتني بأيام تعيسة لي هنا . وقبلت فيما بعد دعوتك».

فقلت مدهشا « تعيسة ؟ »

فلم تجب لفترة . انهينا الشراب وران صمت .

وقالت بعد « هيا بنا الان . تخف وطأة الذكرى مع التجوال ، ويسلو زوجي . وسأريك بودابست من أعلى التل الماثل أمامنا » .

واتجهنا ، خارج الحديقة ، في طريق صاعدة ملتوية ، محاطة باشجار كثيفة غناء . كان الضوء خافتا والنسيم مداعبا منعشا ،وجموع السياح تهذر وتغني وتعبث .

وقالت صوفي هامسة ، ذاهلة عن العالم الجذلان حولها « كانت اول ايامي في الايبوس وبودابست . وعملت مستقتلة كي أثبت قدمي. وعرفت بعيد أشهر طالبا عراقيا هنا ، كان يحمل في قلبه مرحا لا يوصف . ووجدت نفسي غارقة في دوامته . كان بورجوازيا بلا شك ، متحررا من عبودية العمل ، ذا روح هنية وشوق لكل شيء . وكنت انذاك متعبة صامدة لاثبت جدارتي ، فزرع جرثومة الامل والتوق في اعماقي . وعرفت الفرح . وادركت ان الانسان ليس حشرة ، ولو أرغم أحيانا على كونها . كان الاخر وراء النطاق » .

فقلت مواسيا « اعتذر لما قلت . كنت مرهقا وبدت العجوز مثيرة » .

فقالت « أنا لا الومك . أردت أن أقول : لن تستطيع أن تخضع العالم لهواك ، ما لم تعش عذابات الاخرين » .

صمت قليلا وقلت « لنعد الى العراقي . أرى أنك تزوجت السيد»

كنا نصعد في التل وصوفي تدخن وتلهث « لم يعد من داع للكلام . »

فقلت « ولكن الدائرة لم تغلق . والشاب من بني جلدتي . وكل ما حولنا يغري »

« حسنا » وتأبطت ذراع زوجها وحادثته قليلا « بعد أشهر صار

يرفس كيفما اتفق . وبقدر ما أغفر له بقدر ما يثور . وتعرى الحب ليصبح فعلا منعكسا فحسب . كان بفناه يشتري العالم . فاحترق بالحرمان مثلما احترق بالتخمة . وافترقنا . »

فقلت « وزوجك ؟ »

« هذا شيء اخر . فهو عملي مفرط . يقول اني معقدة شديدة الحساسية وأطلب المستحيل » .

وتكلم الزوج طويلا . كان يبدو مضطربا فقالت « يريد ان اترجم كل كلمة . يخشى سوءا ما . ولكني طمأنته . »

كنا الان على قمة الهضبة . وبودابست مبسوطة امامنا بحيرة ضياء مشرقة .

« والان ، هنا أمامك نصب أبطال التحرير ، وهو مركز سياحي هام . وهذه بودا ، وتلك بست . اذ هما مدينتان في البدء . وهذه الجسور تربط بينهما على امتداد ثلاثة كيلومترات . لا شك يستاهل المنظر المشقة . »

قلت « هذه المدينة ذات جمال عذري وحشي : بجبالها البرونزية، تتعشقها اشجار داكنة الخضرة ، وبدانوبها المهيب ، وبوجوه أناسها . انها مدينة لا تنسى » .

وترجمت للزوج ، فامتلأ حبورا وضغط على كتفي ، وأمست صوفي أكثر صفاء وجعلت تدندن اغنيات .

وهبت النسائم اكثر برودة . وبدأ السياح ينزلقون على المنحدر الهابط نحو المدينة .

قالت « هلم الان . عليك أن تستريح . وعلينا أن نعمل غدا . »

وامسكت بيدي . أحسستها حارة فسألتها « ما بك ؟ ثم قالت « لا شيء . ربما بعض حرارة . لقد أثرت بي شجنا » .

فقلت « ولكن .. »

فهتفت « لا لا . دعنا نهبط راكضين »

وامسكت بيدينا كلينا . وانطلقنا مهرولين . ثم وقفت فجأة « ان قلبي ينبض بسرعة . لنكن عقلاء . » ثم قالت « أتسمع ما يقول ؟ يحذرني دائما من الافراط بالتدخين . ولكن ما العمل ؟ احس بحياة أخرى تتآكلني من الداخل ، ما العمل ؟ » .

كانت صوفي بجانبي . كنت أتلمسها في شراييني . جميعنا متعبون . وواصلنا السير حتى محطة الترام . وقلت « اودعكما هنا . واقطع المسافة الى النزل سيرا . »

فصاحت « أبدا . نوصلك حتى الباب ، فبوابة البناء مغلقة . ولن تفهم الحارسة لتأخرك سببا » .

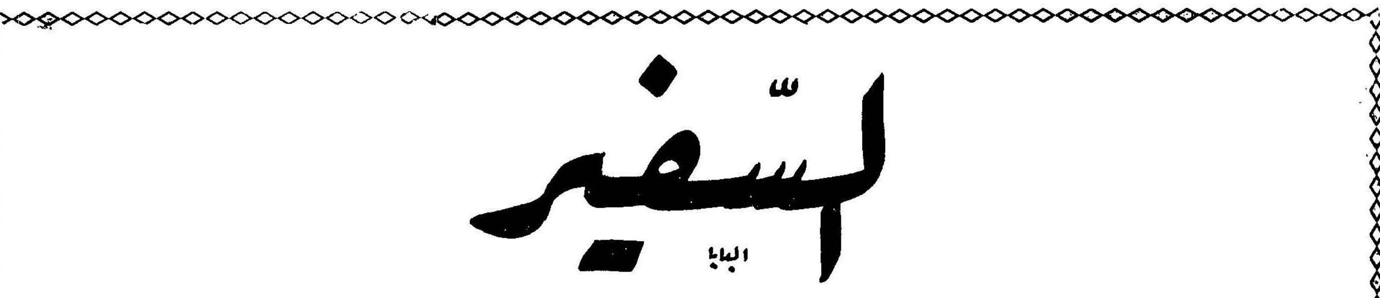
فقلت « يستحيل ذلك . عليكما ان تستيقظا باكرا . ولتحجم الحارسة عن فهمي ، فلن يهم بعد الان . ان النوم هارب مني ، وعلي أن اسير طويلا . »

واذعن الزوجان بعد لأي . وقالت صوفي « اعتن بنفسك . فربما جمعتنا محطة ما في مدينة ما من الارض . »

فقلت « آمل ذلك . ويكون زوجك مهندسا وقلبك استرد صباه والعالم اكثر صفاء . »

كانت المدينة نائمة والليل باردا . ودعتهما أمام الترام . كانت عينا صوفي الخضراوان شديدتي الضياء . الترام يسير والعيون تتجه الى الوراء وتتلمع . وغاب الترام في منعطف غير بعيد ، فابتلعني صمت الشارع الواسع المهيب .

دمشق — **منذر الفرا**



آخر رواية للكاتب الشهير

موريس ويست

رواية الحرب القذرة في فيتنام ، كما يرويها سفير اميركي عين في سايغون وشاهد في اول يوم وصل فيه انتحار راهب بوذي .. وهو يقص هنا قصة تلك المنطقة التي تمزقها الخلافات السياسية والدينية والعسكرية وتدخل الولايات المتحدة الاميركية في هذا كله . ويعيش هذا السفير مأساة ضميرية اذ يكون عليه ان يختار بين رجل يحترمه (هو الرئيس كونغ) وبين طغمة من الجنرالات المتآمرين الذين تدعمهم المخابرات السرية الاميركية .. انه الصراع بين الاخلاق والانتهازية السياسية ، ولكنه كذلك مأساة شخصية يخرج منها السفير مجروحا في ضميره بحيث يهجر مهنته الدبلوماسية ليلتمس الخلاص الروحي بالقرب من راهب ياباني ..

وقد نجح موريس ويست ، وهو مؤلف رواية « محامي الشيطان » الشهيرة ، في تصوير حرب الفيتنام والدور الذي تلعبه فئة من الشخصيات المختلفة الغامضة ، وفي التعبير عن نزعة انسانية رائعة جعلت هذه الرواية في طليعة الروايات المعاصرة .

صدر هذا الشهر

عندما تترجل الفرسان

- ١ -

تراجعوا الـى الوراء
وشلت المأساه زحفنا السريع
تراجعـوا
وكيف والعدو رهن خطوتين ؟
وكيف والجراح تنزف الدماء ؟
تراجعـوا
وكيف والاطفال والشيوخ والنساء
قد أصبحوا في قبضة الاعداء ؟
تراجعـوا
وكيف والرياض والقطاف
والنهـر
« والقدس » « رام الله »
وآلاف الصور ؟
قد غربت عن العيون في متاهة القدر !

***

أفي ارتداد الطرف يا رفاق ؟
تنتفض الآفاق
وينتهي هلالنا الى محاق
أبعد عشرين سنة ؟
وصوتنا يملأ كل مئذنة ؟
وجرحنا الناغر جرحنا العميق ؟
ينزف لا يبرأ لا ينام
تفتالنا لئـام !
وتشمت الاحجار فينا والطريق ؟

- ٢ -

رفعت كفي للسماء
في فورة من الاسى في غاشيات من شقاء
ربـاه يا مذل كل الاقوياء
يا مانح العطف لكل الابرياء
موج الظلام لفنا
و « القدس » أضحى ضيعة لـ « تل ابيب »
أهكذا رباه « بيت المقدس » ؟
مسرى رسولك الامين
تلهو به جرذان « صهيون » ولا معين
يضيع في الضباب في العباب
رهن حقد الظالمين ؟!

***

رفعت كفـي للسماء
اذا أظلني المساء
أظلني وهو يطل في بكاء
أطل من عيون الوالهات المطفلات
فلم تعد تلك العيون تغزل الحنان
اطفأها تجمد الدمع الخؤون
ولم يعد فيها بريق ذكريات
واصفر وجه القمر الحزين
فـلا قمـر
يشعشع الضوء يداعب الزهر
ربـاه ! حقا ضاعت الضفاف ؟
وأوغل الشتاء في القلوب ؟
وأعـول الشجر ؟
وأخرست حتى بلابل الصباح ؟
وعكرت مياه نهرنا الحبيب
زوارق الاعداء تمسح الرجاء
وتزرع الآلام والبغضاء ؟
ولم يعد لنا وميض كبرياء ؟!

***

رفعـت كفـي للسماء
لمستجيب للنـداء
لكنني أشفقت من معنى الدعاء
فنحن لسنا أكفياء
حتى لكي نرفع لله الدعاء
فالله لا ينصر غير الاتقياء
ينصر من لا يستكين
ينصر من ينصره في الصامدين
ينصر غير منخوب الفؤاد
غير ضائع اليقين !

حسن عبد الله القرشي

أنشودة غول لوزيتانيا

تتمة المنشور على الصفحة ٣٨

تتمة المنشور على الصفحة ٣٨

***

ذهبت
ذهبت للعمل في اليوم التالي
كالعادة
نسيت اطفالها
(يتقدم رقم ٣)
رقم ٣ : لمدة ١٤ ساعة في اليوم
اعمل في مزارع القطن
ابنتي الكبرى
كانت اخيرا في ميناء بنجويلا
لم اسمع شيئا عنها
منذ عام .
أبنائي
غالبا في موكا ميدس
في شركة الاسماك
احدهما ١٦ عاما والاخر ١٥ عاما .
زوجي اخذوه منذ نصف سنة
ذهب الى مالانج
في مناجم الاسفلت
لا أعرف ان كان ما زال هناك .
معي ابنتي فقط : عمرها سبع سنوات
تساعدني في جني القطن .
تبقى لي من الـ ٢٠٠ اسكودوس ، اجري الشهري ، ١٥٠ اسكودوس بعد الخصومات

كيلو دقيق ذرة	٥ اسكودوس
كيلو فول	٣ اسكودوس
كيلو سمك مجفف	٥ اسكودوس
لتر زيت نخيل	٩ اسكودوس
احتاج لجونلة متر قطن	٢٠ اسكودوس

لا يمكنني شراء جونلة
هل سيجدني زوجي عندما يعود ؟
هل سيجدني ابنائي ؟
انهم لا يعرفون انني اعمل في مزارع القطن
لم يعد في القرية من يعرفنا .
(يمكن تادية المشهد التالي في شكل خيال الظل . يفرد رقم ٣ ، ٥ بحركة سريعة ملاءة مثبتة على عصا . رقم ٦ ، ٧ يقفان خلف الملاءة . تضاء الملاءة من الخلف اضاءة شديدة . رقم ٦ ، ٧ يتبدلان المراكز بسرعة ويعرضان المواقف في شكل صورة . عند تادية مشهد خيال الظل يتكلم رقم ٢ ، ٥ مع الاشخاص خلف الملاءة . يتكلمون كما لو انهم يقرأون) .
رقم ٧ : اسال في كل المزارع
عن زوجتي وعن اطفالي
لم يرهم احد
رقم ٣ : ارني بطاقة عملك
رقم ٧ : هذه هي بطاقة عملي
رقم ٣ : كنت في مالانج
رقم ٧ : كنت في مالانج في مناجم الاسبستوس
رقم ٣ : الاسابيع الاخيرة غير مختومة
هذا يستحق العقاب
رقم ٧ : لم يكن عندي وقت كي اختمها
ابحث عن زوجتي وعن اطفالي
رقم ٣ : ارني نقودك
رقم ٧ : لم يعد معي نقود
بقية الاجر لا يكاد يفي بالسفر
رقم ٣ : تمشي في الطريق بدون نقود ؟
هذا يستحق العقاب
رقم ٧ : اردت ان اعمل في قريتي
مع زوجتي ومع اطفالي
رقم ٣ : لا تملك تصريحا بالبقاء في هذه المقاطعة ؟
هذا يستحق العقاب
رقم ٧ : لم يكن عندي وقت لاستخراج التصريح
ابحث عن زوجتي وعن اطفالي
رقم ٣ : الا تعرف انه يجب ان ترسل للعمل الاجباري اذا كانت بطاقتك ليست على ما يرام ؟
رقم ٧ : لقد اكملت لتوي ستة شهور من الخدمة
في مناجم مالانج
رقم ٣ : لانك تتسكع دون مقر سكن ثابت
ولانك عاطل بلا عمل وبلا نقود
سوف ترسل الان الى المعتقل
حيث تتعلم هناك كيف تؤدي
واجباتك القانونية
(ينتهي مشهد خيال الظل . تبعد الملاءة بسرعة . رقم ٦ يدفع رقم ٧ الى الامام) .
رقم ٦ : لكي نكافح خطر الفوضى
يجب ان نراقب الاهالي بشكل منظم .
كل من يقدر على العمل تصرف له بطاقة مرور
يدون فيها انتاجه من العمل
تسجل فيها كل التواريخ الرسمية
واذا لم يتمكن المواطن من ان يستوفي بطاقته
يجب عليه ان يقضي عاما باكمله
في معتقل تاديبي قاس
يعمل بلا اجر .
(جميع الممثلات والممثلين يكونون نصف دائرة حول رقم ٧ . رقم ٢ يغني بصوت هامس في البداية يرتفع تدريجيا . الاخرون يهددون ، ويصفرون ، ثم يصرخون ويهللون) .
رقم ٢ : اجر ايها الرجل الظبي اجر
الصياد ياتي مع الكلاب
اجر بعيدا عن الكلاب
ايها الرجل الظبي
اجر ايها الرجل الارنب اجر
الصياد ياتي بالبندقية
اختف بعيدا عن اعين الصياد
ايها الرجل الارنب
اجر ايها الرجل الفار اجر
الصياد يطلق الرصاص خلفك
اختف بعيدا عن الرصاص
ايها الرجل الفار
اختف في الارض .
رقم ٥ : في الماضي كان يهتم تاجر العبيد بان يظل رجله سليما ، قويا وقادرا على العمل
كان يهتم به مثلما يهتم بالحصان او الثور
اما اليوم فلا يباع الاهالي
وانما تقدمهم الحكومة
واذا مرض احدهم او مات فان هذا لا يهم
ان رجلا اخر يقف منتظرا .
(رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ يكونون كورس)
كورس : العمال البيض في بلدنا
يتقاضون في ايديهم ستة اضعاف اجرنا
في الشهر ، رغم عملنا الشاق
وتحسم منهم ضرائب اقل
العمال البيض في بلدنا
يعترف بهم القانون والسلطة
كثيرون منهم ايضا لا يعرفون القراءة او الكتابة
ومع ذلك فانهم يريدون ان يصبحوا متميزين عنا
العمال البيض في بلدنا
يخونون موقفنا الجماعي
ونحن في عيونهم في مرتبة اقل بكثير منهم
ويدوسوننا بأقدامهم ان لم نخدمهم
العمال البيض في بلدنا
لم يدركوا بعد
من الذي يضع الفوارق والامتيازات
ومن يحصل على الربح الاكبر .
(رقم ٦ : يصيح من الغول مستفيثا)
الغول : في عالم يضيع فيه احترام الذات
ويختفي فيه الثقة والاحترام بين البشر
وتنتشر الاكاذيب والانقسامات .
تثبت لوزيتانيا
في مكانها — (يتثاءب)
هذا يعني ان مشاكل الدولة يجب ان تحل بشكل ديموقراطي .
هذا يعني ان يقوم بالحكم اكبر عدد ممكن.
نحن عندنا الشجاعة لان نقول انه بهذه الطريقة لا يمكن الوصول الى حل عادل سلمي وتقدمي
وبما أننا ضد النزعة النقابية والليبرالية
والبرلمانية والاشتراكية
وكل انواع البلشفية .
البلشفية . اذن
نحن ضد الديموقراطية .
في عالم يهدده الخراب نحقق مبدا قيادة الدولة بواسطة بعض العناصر القليلة المختارة .
(يتقدم رقم ١ حتى منتصف المسرح . امامها يقف رقم ٥ . جانبها يقف رقم ٧ . على يسارها يقف ٢ ، ٣ ، ٤)
رقم ١ : اسمي انا ، خادمة

في منزل بنوفاليسبوا
اسكن مع اسرتي في طرف المدينة
اقوم قبل الشمس
اعد لاطفالي حساء الذرة
اسير في طريق العمل الطويل على قدمي
انا حامل في الشهر السادس
والان بعد عمل ١٢ ساعة اريد ان اعود الى البيت
رقم ٥ : هناك بعض القمصان لكي
رقم ١ : يجب ان اعود الان للبيت
احد اطفالي عنده حمى
يجب ان اذهب به الى مستشفى الارسالية
(يدخل رقم ٦ كرجل بوليس)
رقم ٥ : هذه الفتاة تجرؤ ان تعارضني
(يؤدي رقم ٦ دوره بحركات بانتوميم)
رقم ٦ : انني احضر الفتاة
لكنها تدافع عن نفسها
تتلقى ضربة
تحاول أن تخلص نفسها
تتلقى ضربة قدم في البطن
(رقم ١ تنحني . يتقدم رقم ٧)
رقم ٧ : أنا زوج آنا
لم تعد آنا الى البيت
انها تعود كل يوم بعد غروب الشمس
رقم ٥ : لقد عادت آنا الى البيت كالعادة
رقم ٧ : ايها السيد رجل البوليس
آنا لم تعد الى البيت
انها تعود كل يوم بعد غروب الشمس
رقم ٦ : لا اعرف شيئا عن آنا هذه
(رقم ١ ، ٣ ، ٤ يقومون بدور الكورس . يتراجع رقم ٥ ، ٦ ، ٧ . يقف رقم ١ وحده في منتصف المسرح . يصطف الكورس خلفه مباشرة) .
كورس : اين القوا بك يا آنا ؟
رقم ١ : ارقد على طين الارض في غرفة صغيرة
كورس : ما هذه الغرفة يا آنا ؟
رقم ١ : القضبان على النافذة
الترباس على الباب
كورس : هل ما زلت تمتلكين حذاءك يا آنا؟
رقم ١ : لا ، لا املك غطاء الراس
كورس : هل ما زلت تمتلكين حذاؤك يا آنا؟
رقم ١ : لا ، لا املك حذاء
كورس : هل ما زلت تمتلكين جونلتك يا آنا ؟
رقم ١ : لا ، لا املك جونلة
كورس : هل ما زلت تحملين طفلك يا آنا ؟
رقم ١ : لا ، لا احمل اطفالا
كورس : كيف يمكننا مساعدتك يا آنا ؟
رقم ١ : اخبروا زوجي عن مكاني
كورس : ما شكل منزلك يا آنا ؟
صفيه لنا حتى يمكننا ان نجده
وان نحمل لزوجك واطفالك اخبارك واحوالك

رقم ١ : انه منزل من الصاج
في المستعمرة على طرف نوفاليسبوا
كورس : كيف تسكنين هناك يا آنا ؟
صفي لنا حتى نعرف حينما ننظر داخله انه منزلك
رقم ١ : هناك ستارة من الزكائب
على اليمين يوجد الفرن
وعلى اليسار الحصيرة التي نئام عليها
كورس : ماذا يوجد هناك سوى ذلك يا آنا؟
صفي لنا حتى نتأكد عندما ننظر حولنا انه منزلك
رقم ١ : هناك صندوق ناكل عليه
هناك وعاء للطبخ
هناك الجردل
هناك الذباب على الجردل
الذباب يطير من الجردل الى الاطفال
الذباب يقف على عيون الاطفال
احد اطفالي عنده حمى
كورس : الا يوجد في منزلك سوى ذلك يا آنا ؟
سوى ستارة الزكائب
والفرن والوعاء والصندوق
والحصيرة والجردل والذباب
رقم ١ : لا ، لا يوجد سوى ذلك
كورس : سوف نحاول يا آنا ان نجد منزلك وسط المنازل الاخرى
على طرف نوفاليسبوا
وان نحمل لزوجك واطفالك
اخبارك واحوالك .

((الفصل الثاني))

(على اليسار يقف ٥ ، ٧ كرجلي بوليس . يدخل رقم ٦)
رقم ٦ : هالو
هذه اذن نوفاليسبوا
هل رأيتم مثل هذه المنازل الجميلة
منازل تلمس السماء
هل رأيتم مثل هذه الشوارع
لامعة كالمرآة ، مزينة باشجار صناعية
هل رأيتم مثل هذا الينبوع
الماء يخرج من افواه حجرية
اذن يمكنني ان استحم
(يمر رقم ٥ امام رقم ٦)
رقم ٥ : ارحل من هنا
رقم ٦ : هالو
اي حديقة هذه
هل رأيتم مثل هذه الزهور
ومثل هذا العشب الاخضر ؟
يمكنني اذن ان ارقد في الظل
(لا يمكن رؤية رقم ٤)
رقم ٤ : لا تحملق هكذا
(يقف رقم ٦ امام الفول . وجه الفول مفتوح . يقف رقم ٣ في الخلف في يده منفضة للتراب) .
رقم ٦ : هالو
اي منزل هذا
ذي الاعمدة والرايات
رقم ٣ : هناك يسكن الحاكم
رقم ٦ : يجب أن يكون رجلا عظيما
ذلك الذي يحتاج لمثل هذا المنزل العظيم
(يغلق رقم ٣ وجه الفول . يتقدم رقم ٦ الى الامام)
رقم ٦ : هالو
اي منزل هذا
ذي الابواب الزجاجية واللافتات الذهبية
رقم ٥ : هذا بنك
رقم ٦ : ماذا يفعل المرء هناك ؟
رقم ٥ : هناك يشتغل المرء بالنقود
رقم ٦ : هالو
اريد ان اذهب الى هناك
اريد أيضا أن اشتغل بالنقود
رقم ٥ : احترس حتى لا يحجزك شخص ما
(يأتي رقم ٦ من ناحية اليسار ، يقابله رقم ٧ الذي يضع على رأسه قبعة جنرال).
رقم ٦ : هالو
اي منزل هذا
ذي النوافذ الكثيرة
الذي يقف امامه جنرال
رقم ٧ : هذا فندق
رقم ٦ : اريد ايضا ان اقيم في فندق
رقم ٧ : انصرف
(يتجه رقم ٦ بشكل مسرح ناحية رقم ٧، الذي يرفع يده مهددا بضربه فيتراجع رقم ٦ للخلف . يهرب . يدوس رقم ٥ في طريقه . رقم ٥ يهدده ايضا بالضرب ، يتراجع رقم ٦ بسرعة . يضربه رقم ٧ ضربة اخرى . يقع رقم ٦ . يظل راقدا بلا حراك . يلقي رقم ٥ بالكيس فوقه .
(يتراجع رقم ٥ الى ناحية اليمين) .
رقم ٥ : لا توجد عندنا تفرقة عنصرية
ان الفوارق في الحقيقة فوارق اجتماعية
ان الاسود لا يستطيع ببساطة زيارة بار او ناد للتنس
(يتراجع رقم ٧ الى ناحية اليسار) .
رقم ٧ : لا توجد عندنا تفرقة في اختيار المهنة
ومن حيث المبدأ يمكن للمتكيف ان يلتحق بأية مهنة
وغالبا ما يتمكن من الوصول الى وظيفة ثانوية فقط
ان الاسود ببساطة
غير قادر على شغل وظائف عالية
(يتقدم رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ كورس) .
كورس : ومع ذلك نقود البشر ببطء
بصبر متحضر لا يكل
خارج الظلام الذي وجدناهم فيه من قبل.

(يلقي رقم ٦ بالكيس بعيداً . يقف معتدلا)
رقم ٦ : هالو
اريد حجرة ،
اريد ان اكتسب كل حقوقي
اريد ان انام في السرير واغفو غفـــوة الظهيرة
اريد أن اصطاد الاسود في جنة الصيادين
بعد حمام منعش في حوض أزرق سماوي
هالـو
اريد ان ازور الشلالات البديعة والكهوف
اريد ان اتجول في الادغال
وفي الجبال العظيمة
هالـو
لا أريد ان انسى قط
هذه الطبيعة ذات الجمال الذي لا يقارن
(يبتعد رقم ٦ ببطء للخلف) .
(تقف رقم ٢ وحدها مغنية اغنية)
رقم ٢ : بعد ٥٠٠ سنة من بعثة المدنية
تعلم فرد واحد من كل ١٠٠ أفريقي القراءة والكتابة
بعد قضاء فتـــرة قصيرة فـــي المدرسة الابتدائية .
ومن مليون ونصف طفل
وصلوا الى سن الذهاب الى المدرسة
تمكن ٩٠،٠٠٠ تحت رعاية اعضاء البعثة
من تعلم بعض اصول الدين .
وبالمناسبة فان الدراسة تتم في المزارع
لان المدارس الالزامية تهتم في المقام الاول
بالعمل في الحقول .
من ١٢،٠٠٠ تعلموا في المدارس الابتدائية
يمكن لبعض الالاف أن يحاول اجتيـــاز الامتحان النهائي
للقبول في مدرسة عليا
ومن اجل اكتساب صفة التكيف كرمـــز للتعليم
ومن المختارين يجاهد حوالي ١٠٠ شخص
من اجل دخول الجامعة هذا العام
وربما يتمكن اثنان من هؤلاء
الحصول على درجة اكاديمية
هذا هو حصاد بعثة المدنية التي لا تكل
بعد مرور ٥٠٠ عام
(رقم ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ كورس)
كورس : مليون ونصف من الشبان
اصحاب الارض الاصليين
مخططو المستقبل ، بناة الارض ، بناة المدن
اطباء ، علماء ، شعراء
قوة هائلة ، مواهب معطلة
مليون ونصف، قوة عاملة جديدة ورخيصة،
قوة هائلة ، مواهب لم تستغل قط
(ينصرف الكورس . رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ يكونون مجموعة ناحية اليسار . علـى اليمين يقف رقم ٧) .
رقم ٥ : نحن اهالي منطقة كابندا نرجـو السلطات المحلية بكل احترام ، السماح لنا بتشكيل قيادة ذاتية
يمكننا بواسطتها تنظيم شئوننا
رقم ٧ : ما الذي تريدون تنظيمه
ولم ننظمه نحن ؟
رقم ٤ : نريد أن نرسل اطفالنا الىالمدارس
رقم ٦ : لقد حصلنا على نقود المدرسة لكل الاطفال
رقم ٣ : عندنا مدرسة قريبة من مستعمرتنا
لكن أصحاب المزارع احتجوا
عندما ذهبنا باطفالنا
رقم ٥ : لان عـدد الاطفال السود سوف يزيد عن عدد الاطفال البيض
رقم ١ : نريد أن نؤسس مدارسنا الخاصة
فالمدارس العمومية الاخرى بعيدة كل البعد عن قريتنا
رقم ٧ : اذن يجب على كل الآباء الذيـن يريدون ذلك
ان يكتبوا اسماءهم
على عريضة التماس .
(يقترب رقم ٥ من رقم ٧ . يوضح بتمثيل صامت تسليم الالتماس . رقم ٧ يقف خلف الفول . يبتعد الجميع بحركة عنيفة . رقم ٦ يتقدم كراوي) .
رقم ٦ : في الليل حاصرت فـرق الجند القرية
جاء مدير المصلحة مع رجاله
واخرج الرجال من الاكواخ
وانتزعوهم من نومهم كما كانوا عراة
وجب عليهم ان يقفوا صفا واحدا
نادى مدير المصلحة الاسماء
وكان على كل منهم ان يرد على اسمه
ثم شحنوا في عربة نقل .
(رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ تجاه الفول . فـي شكل كورس) .
كورس : نحن نساء كابندا
نقف امام السجن نحمل ملابس ازواجنا.
ايها السادة رجال البوليس
نريد ان نعطي رجالنا ملابسهم
(رقم ٧ خلف الفول) .
رقم ٧ : انهم لم يعودوا في حاجة اليها
حملت طائرة ما تبقى من الرجال والقت بالزكائب في البحر
وبعد ايام اقبل الجزر
وجاء ما تبقى الى الشاطىء
اذرع وسيقان وظهور
(يضع رقم ٥ غطاء رأس استوائي علـى رأسه) .
رقم ٥ : كل شيء هادىء في انجولا
(يقترب رقم ٧ ، ويضع هو ايضا غطـاء رأس استوائي) .
رقم ٧ : كل شيء كما كان من قبل فيانجولا
(يقترب رقم ٥ ناحية اليمين بجوار رقم ٧ . يذهب رقم ٦ ناحيـــة اليسار . فـــي الوسط يقف ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ويقومون بدور الكورس) .
رقم ٥ : في انجولا فرصة كبيرة لاستثمار المـال
القوى العاملة تكلف اقل من قيمة آلة
ان رأس المال يربح حوالي ٣٠٪ في السنة
رقم ٧ : مـاس
رقم ٥ : لشركة الماس الانجلو امريكية
لشركة اوبنها يمر
لشركة مورجان
لشركة دي بير
لجوجنهايم
نرايان واخوان فورمونييه
لاتحاد مناجم دو هوت ـ كاتانجا
لبنك تروست جارانتي
رقم ٧ : مـاس
رقم : ٦ لامتيازات الاحتكارات
بلا ضرائب وبلا جمارك
كورس : مـاس
رقم ٦ : مليون قيراط في السنة
كورس : (يصاحبهم رقم ٦ كقائد)
مـاس
٢٤،٠٠٠ رجل في المناجم
٢٤،٠٠٠ رجل مسخرون للعمل في المناجم
٢٤،٠٠٠ رجل ينقبون عن الماس من اجلكم
في مناجم لواندا ولوندا
مقابل اجر سنوي
قدره ٢٠٠ دولار
(رقم ٣ ، ٤ بشكل متبادل) .
ضفادع المستنقع تلتهم الحشرات المتجمعة
اعطني ستنافو
طيور السمانتنتزع الديدانمن لحاء الشجر
١٠٠ ستنافو تساوي اسكودو واحد
النحل يرشف العسل من زهور المانجة
اسكودو واحد لا يكفي ان يشبعني
رقم ٧ : بترول
رقم ٥ : لشركة لوبيتوفويل للبترول
لشركة بتروفينا
لشركة شل الهولندية الملكية
لبنك بورناي
لبنك المدينة القومي الاول
كورس : بترول
رقم ٦ : ٢ مليون طن في السنة
رقم ١ : صغيرة ومستديرة اكواخنا
مصنوعة من الطين والقش .
مستديرة منازل البترول الفضية
لامعة في الشمس .
مسحوقة قرانا
يسكن فيها البترول .
يتدفق خلال الانابيب
حيث كان طريقه القرية يوما .
بايدينا العارية بنينا اكواخنا .
آلات ضخمة لبناء منازل البترول .
منازل عالية ومستديرة ولامعة
يتعجب امامها الاطفال

رقم ٧ : حديد خام
رقم ٥ : لشركة مناجم لوبيتو
لشركة كروب
لشركة بتلهم للصلب
لبنك وستمنستر
كورس : حديد خام
رقم ٦ : ٣ مليون طن في السنة
كورس : (يصاحبهم رقم ٦ كقائد)
حديد خام ، نحاس ، أسفلت ، منجنيز
... ٥٠ رجل في المناجم
... ٥٠ رجل مسخرون للعمل في المناجم
... ٥٠ رجل من اجلكم في المناجم
في كويما ، كاسانجا ، سبا ، كيتويا
كويساكويلي ، تومبسي ، جونجونجو
رقم ٢ : في الظلام قطار مزدحم
وعمال اقبلوا من الاكواخ
وبجوارهم على القضبان عربات حديدية فارغة
في الظلام يرجع قطار العمال من فوهة المنجم
بجوارهم على القضبان عربات حديدية ممتلئة
كورس : انظروا الى العربات تجري
والقطارات تنفث البخار
والشرار والصفير
على طول الطريق خلال الغابات
حتى الموانىء
رقم ٧ : بـــن
رقم ٥ : لشركة انجولا الزراعية
لشركة كازينما الزراعية
للشركة الانجولية للزراعة
لبنك رالي وس
كورس : بـــن
رقم ٦ : ٢٠،٠٠٠ طن في السنة
كورس : (يصاحبهم رقم ٦ كقائد)
بن ، قنب ، سكر ، تبغ
٥٠،٠٠٠ امرأة وطفل في المزارع
٥٠،٠٠٠ امرأة وطفل مسخرون للعمل في المزارع
٥٠،٠٠٠ امرأة وطفل يجمعون لكم المحصول
من مزارع بنجويلا ، كابندا ، بييه
كوانزا ، اوجي ، زاير ، موكسيكو هويلا
رقم ٦ : مقابل ١٥٠ دولارا في السنة
رقم ٤ : انظروا الحمالين على رصيف الميناء في صفوف طويلة
انظروا آلات الرفع الثقيلة
انها تلقي بالحمولة داخل السفن
انظروا الى السادة على رصيف الميناء
ذوي الوجوه الشاحبة في العادة
كيف تتورد وجوههم
وكيف يمسكون بقائمانهم
انظروا الى الدخان الصاعد من المدخنة
اسمعوا المراوح
اسمعوا الصفارات

الطيور تفر هاربة
(يتقدم رقم ٦) .
رقم ٦ : ايها الفلاحون ، يا عمال السخرة، ايها المساجين
ذهبكم معلق حول رقبة اوروبا
اقنعة اجدادكم تزين قاعة الدولة فياوروبا
نباتات ارضكم تهضمها معدة اوروبا
بحديدكم تتسلح اوروبا الان ضدكم
رقم ١ : في هذه الساعة
في كل مكان من ارضنا التي يحتلها العدو
نتجمع كي نستعد من اجل التحرير
رقم ٣ : في هذه الساعة .
في كل مكان
في معتقل بالادغال ،
في كوخ قروي
في موقف العربات بالمدينة
في مخزن بالميناء
في بدروم مصنع
نضع الخطة للثورة
(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ يؤدون دور الكورس) .
كورس : بعد استنفاذ كل امكانيات المقاومة المشروعة
التي تقع تحت التهديد في كل حركة
يضطرنا العدو
ان نستعمل نفس الوسائل
التي يستعملها ضدنا
(رقم ٥ ، ٧ يقفان بجوار الكورس .
كذلك رقم ٦ ينضم الى الكورس) .
رقم ٥ : مطالبنا بسيطة وواضحة
الجميع :
الارض لمن يزرعها
المنازل لمن يبنيها
البضائع لمن يصنعها
المدارس للجميع
(يتغير ترتيب المجموعة مباشرة بعد انتهاء المقطع . يقومون بدور المستعمرين . حفلة كوكتيل تؤدي بالبانتوميم . يقف رقم ٧ جانبا) .
حديث وسط المجموعة
ماذا يمكنهم تحقيقه
قبائلهم في نزاع مستمر
انهم بدون ثقافة
ليس لهم لغة مشتركة
اذا اراد قوادهم ان يتفاهموا
وجب عليهم ان يتحدثوا بلغتنا
حقا ، سياستنا كانت حكيمة
(يتكلم رقم ٧ في ميكروفون كالمذيع) .
رقم ٧ : ١٠٠٠ انسان
من مقاطعة بنجوا ايكولو
في طريقهم الى كاتيته
من اجل ان يطلق سراح قوادهم
من مكتب المقاطعة
ينتظرهم ٢٠٠ جندي .
أطلق الرصاص بدون تحذير

قتلى وجرحى
تملأ الشوارع
(دقات طبول تشبه طلقات الرصاص . تتفرق المجموعة . البعض يزحف والاخر يجري في حركات بطيئة مبالغ فيها . تجسيد الانهيار والفزع . صرخات من رقم ٣) .
رقم ٧ : هاجمت كتل الجماهير سجن ونقطة بوليس لواندا
الصراع يشتد في سانتو باولو
حي الوطنيين في لواندا
الدبابات وجنود المظلات
يحتلون المكان .
التمرد يجتاح اقليمي كوانزا ولواندا .
عمال الميناء في لوبيتو وموكاميدس يضربون عن العمل .
عمال المناجم في كويما ينادون بالمطالب .
انابيب البترول الممدة الى لواندا نسفت.
كذلك الكباري وخطوط السكك الحديدية
بين لواندا ومالانج
(يضع رقم ٧ الميكروفون جانبا . يتقدم للامـام) .
رقم ٧ : هذا هو يوم ١٥ مارس ١٩٦١
تذكروا هذا التاريخ : اليوم
ابتداء الكفاح من اجل استقلالنا
(رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ يـؤدون دور الكورس ، يقودهم رقم ٦) .
كورس : في المدن تنهار قوته
في القرى تنهار قوته
في الحقول تنهار قوته
على الساحل تنهار قوته
اطردوه ، اطردوه من حيث جاء
اطردوه ، اطردوه في البحر .
(رقم ٦ يتكلم من وجه الفول . بصوت منفعل قوي غاضب) .
الفول : ايها السادة الضباط
لقد ناديتكم لبعثة يجب أن تمحو من ذاكرتها كلمة الرحمة :
نحن لا نحارب بشرا ، نحن نحارب حيوانات متوحشة
(رقم ٣ منتصرا) .
رقم ٣ : انهم يطردون اصحاب المزارع
انهم ينهبون البيوت والحوانيت
انهم يقتلون ويغتصبون النساء
(رقم ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦ يؤدون دور الكورس).
كورس : كلوا حتى تشبعوا
كلوا واشربوا
اشربوا النبيذ
افرغوا البراميل
كلوا الديك المحمر
الديك الرومي المحمر
الاناناس والشمام
كلوا حتى تشبعوا
الفول : الشكر للقوات الجوية في وطننا الام

عندنا الان ٢٥٠٠٠٠ رجل تحت السلاح
نحن نبني جبهة بيضاء ضد الانحلال والفزع
(رقم ٣ منتصرا) .
رقم ٣ : قيدوا صاحب ورشة خشب وعائلته
على الواح خشبية وقطعوهم بالطول بالمنشار
رقم ٧ : اضحك حتى يسقط لحاء الشجر
اسبح ضد مياه الشلالات
ارقص فوق الصخر مفتتا اياه
اغني حتى تموت الاسود
أطفىء القمر
الفول : اقتلوهم حيثمـــا وجدتموهم ،
اقطعوا رؤوسهم ، ضعوا الرؤوس على خوازيق
رقم ٢ : والمتفرجون في الغرب لا يابهون
لما يحدث
لان لوزيتانيا تحمي املاكهم في انجولا
وهم يعلمون ان لوزيتانيا لا تقاتـل بدون
فائـدة
طالما تمتلك حق التصرف في سنداتهم
(رقم ١ ، ٣ ، ٤ ، ٦ يؤدون دور الكورس) .
كورس (يصاحبه رقم ٣) :
فهم جميعا متفقون
وزملاء مخلصون في حلف الاطلنطي
رقم ٢ : ارسلوا ملاييـــن الـــدولارات
والماركات والجنيهات الاسترلينية
كما ارسلوا مساعداتهم العسكرية
لم تكن لوزيتانيا في حاجة الى سؤال
لكي تقبل السفن الحربيـــة والطائرات
وعربات النقل
كورس : (يصاحبه رقم ٢) فهـم جميعا
متفقون
وزملاء مخلصون في حلف الاطلنطي
رقم ٧ : انتزعوا الرصاص من امعائي
ضعوا الرأس فوق جسدي
ركبوا لي ذراعي
اربطوا ساقي
لاستطيع ان اكون معكم ثانية
رقم ٢ : من قبل لم تات مواد غذائية ولا
جرارات
والان تاتي من القاعدة الامريكية في جزر
الآزور
هدايا لا يرغبها الافريقيون
لكنها ذات فائدة كبرى للمنتج وشركائه
كورس (يصاحبه رقم ٢) :
فهم جميعا متفقون
وزملاء مخلصون في حلف الاطلنطي
رقم ٢ : راينا طياري لوزيتانيا البواسل
يسرعون في توزيع الهدايا علـى الشعب
بالتساوي
والعالم الغربي يراقب ذلك بمنتهى الرضا
فعندما اشتعلت النيران لم يقل حرفـــا
واحدا
كورس (يصاحبه رقم ٢) : فهم جميعـــا
متفقون
وزملاء مخلصون في حلف الاطلنطي

(يقفز رقم ٤ ، يتبادل مع ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦
٧ الذين يقومون بدور الكورس) .
رقم ٤ والكورس :
النار تتساقط من السماء
النار تلتهم الغابة
النار تتساقط من السماء
النار تلتهم القرية
النار تتساقط من السماء
النار تلتهم نساءنا
النار تتساقط من السماء
النار تلتهم اطفالنا
رقم ٢ : وبالنسبة للمتفرج الغربي
كان ذلك كله مجرد اشياء لا قيمة لها
فعندما احترقت الادغال والحشائش كالهشيم
لم يكلفوا انفسهم ان يعدوا القتلى السود
سواء كانوا ٣٠ الفا او ٥٠ الفا فلا فرق
بالنسبة لهم
كورس (يصاحبه رقم ٢) : فهم جميعـــا
متفقون
وزملاء مخلصون في حلف الاطلنطي
رقم ٢ : واذا كان عدد الذين فروا ، فان
ذلك ايضا لا يعني شيئا
فسوف يهلكون من الجوع والعطش
ولكن دمعة حزن سميكة ، سقطت
من اجل الـ ٥٠٠ جندي الذين قتلوا مـن
لوزيتانيا
(رقم ١ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ يشكلون موكبـا
هزليا . رقم ٦ يرتدي قبعة اسقف . يمثلون
في حركات صامتة مشهـــد وضع اكليـــل
الزهور . يستعمل اطـــار دراجة كأكليـــل
الزهور) .
كورس : (يصاحبه رقم ٢) فهـــم جميعا
متفقون
وزملاء مخلصون في حلف الاطلنطي
(الفول اثناء احتفال وضـــع الاكاليل .
بصوت جنائزي)
الفول : عندنا الان
٥٠٠،٠٠٠ رجل تحت السلاح
نحن سادة الموقف
اما الذين حرضوا الرعاع للتمرد
وغرروا بهم
فقد نسفوا وضربوا ضربة قاضية
وباستثناء نشاط بعض المجموعات المتناثرة
التي هربت في الغابات
لا يلوح اي صراع جديد
(رقم ٦ يصلي . الاخرون يصلون)
رقم ٦ : نحن نواصل عملية نشر المدنيـــة
والمسيحية
(رقم ٧ يصلي) : سوف نحرر اهل هذه
المناطق
من براثن الجهل
(صوت الفول الجنائزي يزداد قسوة عـن
طريق مؤثر صوتي ـ (صدى) .)
الفول : وبالرغم من ان الازمة كانت حادة

الا اننا بمساعدة الرب ، وباصرارنا الصلب
عرفنا كيف نتغلب عليها
واذا اثير السؤال : هل حققنا شيئا مـا
بنقود الرجل البسيط ، بدمـــاء جنودنا ،
بدموع الامهات
أجبت :
نعم ! لم يكن ذلك لمجرد حماية املاكنـــا
المشروعة
لكن من اجل خلاص العالم
قمنا بحماية انجولا
(يتثاءب بصوت عال)
رقم ٦ : انتم يا ابناء الامة العريقة
ما أروع اعمالكم
حملتم الرسالة الالهية دون خوف عبـــر
البحار
حتى شعوب ابعد القارات
(رقم ٧ يؤدي دور وزير عدل اجنبي يزور
مقاطعات لوزيتانيا الافريقية . ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤
يلتففن حوله . تقابل كلماته بشكر واضح) .
رقم ٧ : اقول فقط ما رأيته بعيني
رأيت التقدم في مقاطعات لوزيتانيا الافريقية
انجولا وموزمبيق .
رأيت جزرا للسلام .
منذ قرون طويلة تعم المساواة في الحقوق
بين الاجناس المختلفة دون ممارسة ادنـى
ضغط .
مكن الوطن الام كل اسود مـــن المشاركة
في كل مستويات التعليم
والذي لا يملك الوسائل يدرس على نفقة
الدولة .
يمكن لاي فرد أن يشغل ايه وظيفة .
ان الرجل الاسود يمكنه أن يصبح عمدة
كما هي الحال في نامبولا
المدينة الصناعية الناهضة
في موزمبيق
(رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ يقومون بدور الكورس)
كورس : مضحك الا يوجد من بين ٦ ملايين
موزمبيقي
عمدة واحد على الاقل
بيد روبيسا يرتدي ملابس واحذية عصرية
ويهتم باستتباب الامن ، متفقا في ذلـك
تماما مع الحكومة
يدخن السيجار مـــع المواطنين البيض
ويشرب الكونياك
ويظهر في المناسبات والاعياد بحلة السهرة
وامام العالم كله يقدم مثالا
يثبت لماذا تقدر لوزيتانيا الى درجة كبيرة .
كقوة مستعمرة .
رقم ٧ : لم اتمكن من اكتشاف اصغر دليل
على القوة المستعمرة .
وبالمناسبة فان كلمة حكم الاجنبي ليست
موفقة تماما .
في المناطق التي تحكمها لوزيتانيا ما يزيد
عن خمسة قرون .

وباستثناء بعض الجماعات المتعصبة
التي ما زالت تثير الاضطرابات
لا يقابل الزائر الابيض
سوى وجوه ودودة راضية
اريد أن أؤكد بوضوح انه ليست لوزيتانيا
هي التي تهدد سلام العالم
في أفريقيا
أن الخطر يأتي اليوم من طريق واحد
لا غير ، يأتي من الخارج

(يبتعد رقم ٧ . ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ يأخذون في الحال وضعا جديدا . يؤدون بانتوميم . نساء تعمل في الحقول) .

رقم ٣ : اين رجال موزمبيق
لماذ لا يرى الرجال في قرى وفي حقول موزمبيق

(رقم ١ ، ٢ ، ٤ كورس) .

كورس : رجالنا بعيدون جدا وراء الحدود.
منذ أكثر من عام
لم نزد رجالنا
منذ اكثر من عام لم نسمع عن رجالنا
شيئا قط ، رجالنا لا يرسلون لنا الملابس
رجالنا لا يرسلون لنا ، حتى شالا اسود

رقم ٣ : لماذا لا يوجد الرجال هنا في موزمبيق ؟

كورس : استدعي الرجال
دون ان يعرفوا الى اين يذهبون
فقط اصحاب المناجم
في جنوب أفريقيا وروديسيا وكاتانجا
هم الذين يعرفون
والسلطات تأخذ عن كل رأس ٦ دولارات
والسلطات تأخذ مقابل ذلك نصف الاجر
الذي يدفع عند عودتهم بعد حسم الضرائب
وينص العقد على ١٨ شهرا
العقد الذي يربط بين رجال موزمبيق
وبين المناجم
في جنوب أفريقيا وروديسيا وكاتانجا
كثيرون من الرجال لا يعودون ابدا
موتى من الجراح
مرضى وضعفاء
في مناجم
جنوب افريقيا وروديسيا وكاتانجا
السلطات تحتجز اجرهم
٣٠٠،٠٠٠ رجل من موزمبيق
يستخرجون الذهب والفحم والمعادن الخام
للسادة اصحاب المناجم
في جنوب افريقيا وروديسيا وكاتانجا

(يظهر رقم ٦ داخل الفول . يزين كتفيه بنياشين الجنرال . عجوز لكنه متعجرف).

الفول : عندنا الان ٥٥،٠٠٠ رجل
في انجولا تحت السلاح
في موزمبيق عندنا ٤٠،٠٠٠ رجل
وفي غينيا ٢٠،٠٠٠ رجل
نحن هنا منذ زمن مضى
وسنستمر في البقاء

(يغلق رقم ٥ فتحة الفول. يخرج رقم ٦ . يرتدي جاكتة سهرة وقناع ثعلب . يؤدي دور مدير بنك اجنبي ، يزور لوزيتانيا زيارة رسمية . رقم ٧ يصاحبه . يضع نظارة سوداء . ذراعه اليسرى مرفوعة الى اعلى ومتصلبة . يرتدي قفازا اسود . تحت ابطه دوسيه) .

(رقم ١ يغني في الميكروفون ـ مقلدا غناء الكباريه)

رقم ١ : الان نرى مدير بنك كبير
وكيف يدير أعماله لمصلحة الاقوياء الاخرين
هكذا كان دائما
ارباحه تفوق النفقات دائما
لانه قبل اي شيء اخر في العالم
يدرك معنى تعامله بالنقود

(يقترب رقم ٦ ، ٧ من الفول ، يظهر رقم ٥ في الفتحة المفتوحة . يضع فوق وجهه قناع عقاب . تحيات ساخرة) .

رقم ١ : اينما يحكم الغزاة من اجل مصالحهم
يوجد دائما معهم بمعارفه وخبراته
وبحساباته ساعدهم في اشعال الحروب
دون ان يتأثر بنتائجها

(يتدخل رقم ٢ ، ٣ ، ٤) .

لانه قبل اي شيء اخر في العالم
يدرك معنى تعامله بالنقود

(رقم ٦ موجها الحديث الى الفول) .

رقم ٦ : انه لمن دواعي سروري ان نوطد علاقاتنا التجارية الطيبة بقرض اخر قدره ١٧٠ مليون مارك
وان هذا يعتبر لقاء نواياكم الانسانية
وشعوركم الفياض بالعدل والحق
حيث لم تمسوا املاكنا القائمة في مناطقكم
الاقليمية بعد الحرب الاخيرة

الفول : ايها الصديق الغالي
منذ زمن طويل يملأنا الاعجاب
بما قدمته دولتكم
من اعمال وانجازات عظيمة
ان اتحادنا معكم يعني بالنسبة لنا
الضمان الذي يحقق النصر النهائي في صراعنا ضد القوى المخربة في هذا العالم

(يتثاءب بصوت عال . يخرج رقم ٥ من خلف الفول وهو ما زال يتثاءب . يبدأ الرقص مع رقم ٦ . رقم ١ يتكلم ببطء وبصوت مجلجل . احيانا بصوت مبحوح) .

رقم ١ : وعندما ينقض الغزاة وتنهب الدول
يرتب كل شيء لكي يحمي نفسه
وهو متأكد انه ليس هناك باب مغلق بالنسبة له
فالاقوياء الآخرون يقفون لمساعدته

(يتدخل رقم ٢ ، ٣ ، ٤) .

لانه قبل اي شيء اخر في العالم
يدرك معنى تعامله بالنقود

رقم ١ : يكفي ان ينادوا هذا هو رجلنا
وفي الحال تنتعش داخله روح رجل البنك.
نراه دائما مهتما بالاشياء التي يتوقف عليها ربحه
وينسج شباك عملياته الاقتصادية الفنية

(يتدخل رقم ٢ ، ٣ ، ٤) .

لانه قبل اي شيء اخر في العالم
يدرك معنى تعامله بالنقود

(بينما يقومون بتمثيل دور النشالين مع انفسهم في حركات صامتة ، يتكلم رقم ٥ بصوت مبحوح الى رقم ٦ الذي يحدث صوتا مزعجا ويصفر) .

رقم ٥ : وكدليل على الاتحاد الطيب بين دولتينا
نضع في خدمتكم في بيا
مطارات مساحتها ٥٠٠ هكتار
ومراكز للتدريب ، وثكنات ومعدات للجند
وفي المستقبل سوف يجهز ميناء كاستيلوس
من أجل اسطولكم
وسوف تنتج في الفيرسا صناعات بموادها الخام
من اجل جيشكم
هذا له فائدة عظيمة ففي اوقات السلم
يمكن استغلال كل ذلك .

رقم ١ : وهكذا يتفق سيد البنك القوي تماما
مع ميوله وتقاليده
والعالم الغربي يقف متضامنا خلفه
لانه يعرف ماذا يعني بمنشآته

(يتدخل رقم ٢ ، ٣ ، ٤) .

لانه قبل اي شيء اخر في العالم
يدرك معنى تعامله بالنقود

(يتوقف ٥ ، ٦ ، ٧ عن الرقص . رقم ٦ يسند رقم ٥ ، الذي يكاد يسقط) .

رقم ١ : مرة ثانية ينشط في العمل مبكرا
لكي تعد السلطة اجهزتها
التي تحتاجها لتحقيق اغراضها
عندما تحين الفرصة المناسبة .

(يرجع رقم ٥ ، ٧ بلا اقنعة . الجميع مصطفون . الجميع يعرجون او يرقدون باستثناء رقم ٥ . يقف رقم ٥ منتصبا في الوسط . فترة صمت) .

رقم ٥ : اليوم انتشر التمرد في كل سجون الدولة
من الوبي حتى تارافال
انتشر الخبر ،
« الخائن يموت »
من زنزانة لزنزانة
نقلنا الرسالة

(يرقد رقم ٤ ، يتكلم بصعوبة شديدة) .

رقم ٤ : لوزيتانيا تتقدم دائما الى اعلى

التطور الاقتصادي يرتكز على اساس نقدي سليم
تداول عملات الاسكودو النقدية
مغطى بنسبة ١٣١٪ بالذهب والعملة الصعبة
(رقم ٢ يتكلم بصوت خافت) .
رقم ٣ : في قلعة بينيش
يتساقط الماء من الجدران
بعد هطول الامطار
يغطي الماء اقدامنا في قلعة بينيش
لا توجد نوافذ ، نرقد على الواح خشبية
تحت غطاء عفن
في الليل نسمع صرخات المعذبين
رقم ٤ : لم يحدث قط ان امتلأت بلدنا بالاجانب بهذه الدرجة كما حدث هذا العام .
سماسرة العقارات يتكاثرون ويبحثون عن أصحاب المصانع في جميع اجزاء العالم الحر
(رقم ١ ، يتكلم بصوت خافت معذب) .
يسمونها وقفة التمثال :
ان نقف يوما بطوله ، ليلة بطولها .
النعاس لا يجوز
فعندئذ يلقي فوقك بجردل ماء
ويوم آخر بطوله
وليلة أخرى
ساقاك تتورمان
قلبك يرتعد
السقوط لا يجوز
فعندئذ يلقي فوقك بجردل ماء
لا يمكنك الوقوف اكثر من ذلك
يجب أن تظل واقفا يوما اخر
وليلة اخرى
(فترة صمت)
رقم ١ : في اليوم الرابع
تبدأ الهلوسة
اسمع أصوات الآلاف في قلعة بينيش
لم اعد أشعر بساقي
لا انام ، لا أصحو
اسمع أصوات مئات الآلاف في السجون ،
اقف بلا حراك
(ينهض رقم ٧ بصعوبة بالغة) .
رقم ٧ : على اساس التكاليف المريحة
تتزايد مساهمة رأس المال الاجنبي
على حساب مشروعاتنا الخاصة للتصدير
يتساءلون في لشبونة :
لماذا يضاعف رجال الصناعة الكبار
في أوروبا وامريكا من استثماراتهم
في مقاطعاتنا الافريقية
ان لم يكونوا مقتنعين بمستقبلنا في هذه المناطق .
(يرفع رقم ٦ الفتحة التي على وجه الغول محدثا صوتا . وبينما يتحدث الغول ، يقف الممثلون جميعا ببطء . تظهر من خلال وقفتهم بشكل تدريجي علامات السخط والتمرد . يحاول رقم ٦ في حديثه ان يعبر عن الجهد الذي يبذله قبلما يصمت نهائيا) .
الغول : واذا احتللنا هذه المناطق
عشر سنوات اخرى
اذن لكسبنا الصراع بشكل نهائي
في خلال عشر او خمس عشرة سنة
سوف تنهار
أفريقيا المستقلة المرتمية
في خواء وظلام
لانها غير قادرة على حكم نفسها .
(يصيح رقم ٥) :
رقم ٥ : شاهدوا هذا الرجل العجوز
شاهدوا هذا الرجل البارد
انه يعتقد انه ما زال قادرا على الصمود
(يصيح رقم ٧) .
رقم ٧ : انظروا الى هذا الجلد الرمادي
انظروا الى هذا الوجه الذي من تراب
انه يعتقد اننا ما زلنا نثق به
(الجميع يأخذون موقف التهديد بشكل تدريجي ، يتجهون ناحية الغول . يختفي رقم ٦ خلف الغول . الفتحة مفتوحة تماما) .
رقم ٤ : شاهدوا هذا الرجل الشاحب
شاهدوا هذا الرجل الخشبي
الذي لا يمكن ان يكون الا ظله
(يصاحب الغناء بنداءات وصرخات وقفزات . يقتربون من الغول) .
رقم ٢ : انظروا فقط كيف ينوح
اعطوه جزاءه مقابل خمسة قرون طويلة خدمناه فيها
رقم ٥ : اضربوا هذا الرجل الشاحب
اضربوا هذا الرجل الميت
حتى لا يعود للظهور بيننا مرة اخرى .
(الجميع ينقضون على الغول . ينتزعون شريط النياشين ، والسيف والعصا . يكونون حلقة ويشدون الهيكل الضخم . من الخلف يفك رقم ٦ . نظام تركيب الغول . يقع الهيكل الضخم ناحية الامام . محدثا ضجيجا مدويا عند وقوعه على الارض . القوائم الخشبية تقف عارية . يتأرجح بعض القش . يهتز الكيس .
الجميع مبهوتون وصامتون لفترة . ثم يتقدم رقم ١ ناحية الامام . الجميع يعتدل) .
رقم ١ : وان كان ذلك يعني انه قد مات
ذلك الذي هددنا في وطننا مدة طويلة
فان اتباعه ما زالوا دائما بيننا
وسوف يتكرر ما حدث من قبل
رقم ٥ : (بصوت هادىء) نحن المسجونين نلعن الليل
الذي ادى بوطننا الى هذا الاغماء الطويل
رقم ١ : الجنرالات ما زالوا هناك ورجال التجارة والصناعة
بشيكاتهم وفرق بوليسهم وجنودهم
وسيأتي كل انصار العالم الغربي
من اجل حماية النقود التي سرقوها
رقم ٥ (بصوت هادىء) : نحن المسجونين نلعن كل يوم
لم يقف فيه وطننا ضد هؤلاء
(يدخل رقم ٦ من ناحية اليسار في يده الستارة الصغيرة . يمسك الستارة مع رقم ١ . يأتي رقم ٢ من خلف الستارة . يتقلص وجهاهما بضحكة مصطنعة . يغنون بتملق) .
رقم ٢ : فلاحونا يشتغلون بصبر لا ينفد
لا يطمعون في ثراء عالمي
راضين يسكنون في أكواخهم النظيفة
مرتبطين في خشوع مع اصحاب الارض الكبار
التي تزين قصورهم الثمينة وجه الطبيعة .
(يقترب رقم ٢ من الاخرين ناحية اليمين . يتكلم بقسوة) .
رقم ٢ : ومع ذلك لا تخطئوا الطريق في الدرب الحجري الذي يقود الى الجحور التي نسكن فيها
لا تدعوا الشوارع اللامعة تغيب عن ابصاركم
لان وسط هذا الزحام والوحل يسمع صوت اخر مليء بالغضب
(يأتي رقم ٣ من الخلف وراء الستارة . يتقلص وجهاهما بضحكة مصطنعة . يغنون بتملق) .
رقم ٣ : صرنم اغنياء من التغلغل في روح الشعب
منتعشين من المسير في الطريق وسط الحدائق المزهرة
ومن الاوقات الخميلة التي قضيتموها على الشاطىء تحت النسيم الرطب
وبفضل مدن لوزيتانيا الكريمة
التي تقدم لكم كنوزها
وصلتم الى الفن النادر
(يظل رقم ٣ واقفا امام الستارة . يتكلم رقم ٥ بقسوة) .
رقم ٥ : لا تأبهوا لما يحدث داخل العمارات الفخمة
حيث يقف امام قضاة مأجورون
يحكمون ضدنا في كل وقت
عمال وطلاب وشمامسة أيضا
لا يرغبون ان تظل هذه البلد
كما هي .
كورس : (الجميع)
سوف يتكاثرون باستمرار ،
سوف ترونهم
لقد تجمع الكثيرون بالفعل في المدن
وفي الغابات والجبال
يجهزون اسلحتهم ويخططون بدقة
من اجل التحرير
القريب .

القاهرة — **ترجمة : يسرى خميس**

قصائد للحب والحرب

١ ـ « معذرة »

معذرة يا سيدة القلب
ما اغرب هذا الحب
أن تجرفنا الاحداق الى حاشية الدرب
ان تحملنا الاحداق مع التيار الرحب
او تسقط في قلبينا لحظة رعب
ما اغرب هذا الحب
ان نجلس ظمأى في محراب الكبت
ويسائل واحدنا الآخر من انت ؟
ان يتفجر في وادينا ينبوع حنان
ونذر عليه الرمل
او نملأه أحزان.
ما اغرب هذا الحب
لا تجرؤ عينانا مره
لا تجرؤ شفتانا مره
ونظل نحدق في الكلمات
نكتبها نقرؤها مرات
ننطلق على اشلاء الاسطر الفاظا عذبه
نقتل فيها الغربه
ونغنيها في ليلة جوع
ونكاد نضيع
وتكاد تمزقنا الالفاظ
معذرة يا سيدة القلب
ما اغرب هذا الحب

٢ ـ « عندما قلت وداعا »

عندما قلت وداعا ومضيت
عندما ضيعت احلامي أنت
لم اقل شيئا ولا حتى أسفت
عندما انت مضيت .
شبحا في ظلمة الدرب يغيب
واماني تذوب
وحروفا تختفي فوق الورق
وحكايا تختنق
رحلة الزيف بدأناها معا
ونسينا مرة ان نرجعا
فاذا النسيان احلام رقيقه
واذا اللهو حقيقه
واذا نحن نغني فرحين
وكأن الله اعطانا الامان
او تخطينا الزمان
وملكنا الكون في غمضة عين
فاتخذنا الشفق الاحمر عشا
وتبنينا الطيور
وفرشنا حبنا فوق الاثير
فاذا انت تطير
عندما قلت وداعا ومضيت
لم اقل شيئا ولا حتى اسفت
أي جدوى في حكايانا الجميله
وخيالات الطفوله
فارسي لا يدعي عرش البطوله
فارسي تعرفه الارض النبيله
فارسي يضرب في الارض عصاه
فاذا الموت حياه
فارسي لولاه ما كنت جميله

٣ ـ « لن اهزم »

لان الشمس ملء سمائنا تشرق
والف جبين في طرقاتنا تعرق
ومدخنة تصب دخانها الازرق
ونبت طيب في ارضنا يورق
اخي يا دامي الكفين لا تندم
وقل لجراحك الحمراء: لن اهزم
وقل للغادرين ترقبوا الموتا
فان مدافعي لا تعرف الصمتا
وان يدي على صدر الزناد شرارة مره
واعرف هذه المره
بأني سوف لا ارحم
ولن يهتز لي جفن
اخي اياك ان ينتابك الحزن
وحاذر ن تفيض عيونك الدمعا
فقد اقسمت ان تسعى
اخي وذراعك المشروع للثأر
يلوح بالمصير لغاصب النهر
اخي وعيونك المفتوحة الخطره
تبث الرعب في دنياهم القذره
اخي لا بد ان تظفر
وسوف يجيء حتما يومك الاكبر.

٤ ـ « معا على الطريق »

على طريق المجد والسنا
مسافر يا اخوتي أنا
مسافر أنا الى الصباح
مسافر يدي على السلاح
وقريتي خلف تلال الصمت والدخان
ترجو لي الامان
والف قبضة على يدي تشد
مسافر على طريق المجد
والحب والوفاء والنضال
فان قضيت في الطريق
فالطريق خصب
والف الف ثائر سيملأون الدرب
وقريتي لا بد ان تعيش
لابد ان يضحك في سمائها القمر
لا بد ان تمتليء الاكف بالثمر
وتطفح الآنية البيضاء
لا بد ان تزغرد النساء
ويرقص الاطفال في الازقة المهده
يستنشقون الحب والحياة والامل
لا بد يا رفيق ان نصل
لاننا معا يدا على يد
نمضي معا الى شواطيء الغد

حلب — **خلدون الصبيحي**

قرأت العدد الماضي من «الآداب»

الأبحاث

بقلم : مجاهد عبد المنعم مجاهد

***

ظاهرتان تنتظمان ابحاث العدد الماضي جميعها هما : وقوف الكاتب واقتصاره على الملاحظات والتعليقات الجزئية ، وعدم تحديد الهدف من كتابة البحث .

والعدد الماضي .. ضم في نطاق الابحاث : (الصراع بين الحقيقة والاسطورة) ، (ماذا نريد من الشعر الجديد ؟) ، (عودة الى الادب العربي غير المقروء) ، (دراسة في أدب يحيى حقي) ، (نقد ابحاث العدد الماضي) ، (نقد قصص العدد الماضي) .

ولنبدأ بالظاهرة الثانية حيث ان الظاهرة الاولى مترتبة عليها : ففي البحث الاول ، لم يحدد الكاتب الهدف منه .. وانما هو كلام عن الصراع بين القومية العربية والصهيونية .. ولهذا تحدث صاحب المقال في كل شيء ولم يتحدث بالتالي عن شيء ، عن شيء له هدفية معينة .. لقد بدأ بالحديث عن تخلف المجتمع العربي ولجوء العدو الى العلم والتكنولوجيا .. ثم تحدث عن تاريخ الحركة الصهيونية .. ثم تحدث عن ماضي اليهود في فلسطين وقدومهم اليها في الازمنة القديمة .. ثم تحدث عن ان سكان اسرائيل هم أوروبيون تهودوا .. ثم تحدث عن التمايز العنصري داخل اسرائيل .. ثم تحدث عن قنابل النابالم .. ثم تحدث عن البورجوازية العربية .. ثم تكلم عن أسباب النكسة وأرجعها الى عدم وجود وحدة عربية والتخلف العلمي والتكنولوجي .. ثم تحدث عن ضرورة القيام بعملية مؤلمة للتخلص من الاخطاء وضرورة تعبئة القوى الجماهيرية وتنظيمها وضرورة تحرك القاعدة الجماهيرية العربية .. وهكذا تحدث الكاتب في « كل » شيء ولم يتحدث « عن » شيء بعينه .. فلم نعرف للمقال هدفية . قد نتفق مع بعض ما جاء في المقال لكن المقال افتقد المنهجية نظرا لان صاحبه لم يضع أمام عينيه نقطة بعينها يريد اثباتها .. فاذا كان الهدف هو الحديث عن أسباب النكسة فان هذه الاسباب قيلت كثيرا ولم يأت الكاتب فيها بجديد .. كما ان بقية المقال في مقدمته ومؤخرته تكون حشوا لا داعي له ولا تستلزمه منهجية المقال .. واذا كان الهدف هو الحديث عن التغلب على النكسة فانه ظل في فلك الحديث العام الذي قيل أيضاً ، وقيل ايضا بالشكل التعميمي نفسه ، ويصبح كل المقال الى ما قبل الجزء الخاص باسباب النكسة حشوا لا داعي له .

ولو كان الكاتب حدد لنفسه موضوعا بعينه مثل : برنامج عمل للقوى الثورية للتخلص من اثار العدوان ، او الاجراءات العملية لتحقيق الوحدة ، كيف يمكن استغلال العلم والتكنولوجيا لصالح القضية الفلسطينية .. لو كان الكاتب حدد شيئا من هذا ، لكان المقال كتب بطريقة أخرى لم يخرج عن حدود الموضوع الذي يطرحه ولم يقع في تكرارية الاسباب كما ذكرها غيره من قبل ولم يقع في العمومية التي هي آفة العديد من بحوثنا ..

فاذا انتقلنا الى البحث الثاني نجده دراسة لديوان الشاعر محمد ابراهيم ابو سنة .. وقد قام صاحب المقال بدراسة تذوقية في معظم قصائد الديوان ليقول لنا ان هذه الكلمة حلوة والاخرى مستهجنة والتفعيلة هنا غير مستقيمة والموسيقى هناك رائعة والشاعر تكثر عنده صور الموت وان هذا البيت يشبه بيتا في الشعر الانكليزي وان الشاعر يحب الحياة .. وعشرات الجزئيات سواء الهامة والثانوية .

ومن ثم نكتشف الظاهرة نفسها ولكن بشكل آخر : نكتشف ان صاحب المقال ليست له نظرية في النقد الا لو كان الشتيت نظرية .. فلم يتضح اذا كان صاحب نظرية اجتماعية او جمالية بحت او سيكولوجية او فلسفية في نقده . وافتقاد النظرة الكلية للنقد أفقده بالتالي أن يتحدث عن قضية جذرية في الديوان .. وجعل دراسته مجرد رحلة تذوقية (ينثر) فيها الشعر .

فاذا انتقلنا الى المقال الثالث لم نجد مقالا بالمعنى الحقيقي ، بل هو رد على رد وجه الى مقال سابق لصاحب المقال الحالي .. (لسبب أدري لم رصدته مجلة الاداب ضمن المقالات ولم تضعه في باب المناقشات ؟) .. والمقال الاصلي يدعو الى قراءة القصيدة العربية غير مجزأة .. ثم جاء رد عليه .. وعقب صاحب المقال بمقاله الحالي وتراوح بين اعتراض على فقرة هنا وقبول لفقرة هناك دون ان يقول لنا شيئا جوهريا عن الموضوع الذي يطرحه العنوان : عودة الى الادب العربي غير المقروء .

ثم نجد المقال الرابع (دراسة في أدب يحيى حقي) .. وهو مقال يجعلنا نتساءل : ما هو الهدف من هذا المقال ؟ انه مجرد تلخيص لبعض قصص يحيى حقي وحديث عن ابطالها وماذا فعلوا مع سرد بعض ملاحظات طفيفة .. فهل المقال كتب بهدف تناول : كيف تبني الشخصية القصصية عند يحيى حقي ؟ أم كتب بهدف تناول : المكونات النفسية للشخصية القصصية ؟ أم كتب بهدف تناول : كيف أثرت البنية الاجتماعية للشخصية في تسلسل الاحداث ؟ لا شيء من هذا وانما هو عرض لمحتوى القصص .

ونقد ابحاث العدد الماضي يكشف ان صاحبه ليس له في مجال النقد شيء .. فقد علق على مقال ثان ما جاء فيه صحيح .. وعلى مقال اخر ثان ما جاء فيه من أمر يصعب تنفيذه .. وعلى مقال ثالث بانه من أجمل الابحاث الادبية .. وعلى مقال رابع بانه دراسة مشوقة.. وهي امور لا تستقيم مع النقد اطلاقا . قد يكون للكاتب باعتباره مختصا بالسياسة هدف وفلسفة ومنهج يعالج به ابحاثه السياسية ، غير انه كان المفروض ان يقوم بالامر نفسه في مجال النقد .. فلم نجد فكرة محورية او منهجا في التناول ..

اما نقد قصص العدد الماضي .. فقد حدد صاحبه في المقدمة نقطة محورية هي الازمة التي تعاني منها القصة المعاصرة وانها تنعكس في القصص التي سينقدها .. ولكن في التطبيق لا نجد هذه القضية ولا نجدها محورية .. واقتصر النقد على الرصد الجزئي لبعض الملاحظات الفنية ، والتعليق التعميمي نجده أيضا منبثا مثل « لم يوفق الكاتب » (ولم يذكر السبب) و « استطاع الكاتب أن يفرق بين الشكل في مسرح اللامعقول او العبث وبين التعبير عن مشكلة الانسان العربي المعاصر » (ولم يذكر لنا السبب ايضا) .

فماذا يمكن أن يترتب على عدم وجود هدف محدد من كتابة المقال ؟ يترتبان صاحب المقال يتارجح بين السرد الانطباعي ورصد الملاحظات العابرة غير المترابطة والوقوع أسرى الالفاظ القائمة

والبراقة .. وأمثلة على هذا :

للتعبير عن الحرب لجأ كاتب المقال الاول الى كلمة (الحقيقة) وللتعبير عن أسرائيل لجأ الى تعبير (الاسطورة) .. ومعنى كلمة حقيقة هو مطابقة معنى ذهني على شيء خارجي أو هي بمعنى تكشف الوجود ، ومعنى كلمة أسطورة هو قصة خيالية من ابداع الشعوب القديمة تستند الى الخيال المحلق .. فهل وفق الكاتب في التعبير عن (صدق) القضية العربية و (زيف) القضية الاسرائيلية بهذين المصطلحين ؟

والبهرجة نفسها نجدها في انكماش ماسوشي .. فالانكماش معناه الابتعاد عن الاخر ، والماسوشية قسوة على الجنس الاخر .. فهنا تعبير تناقض الحدود ..

يقول الكاتب نفسه : البرجوازية في مصر كانت « تجارية وصناعية وزراعية وبيروقراطية » والكلمة الاخيرة صفة تتصف بها أجهزة الادارة سواء كانت في المجال التجاري او الصناعي أو الزراعي. ومن ثم فهي ليست نوعا شأن التجارة والصناعة والزراعة .

وفي مقال (ماذا نريد من الشعر الجديد ؟) نجد عنوانا على غير مسمى : فقد تمخض هذا العنوان الكبير عن مجرد نقد أحد الدواوين .. كما ظهر في المقال الافتقار الى التعاريف الجامعة المانعة.. فقد ذكر ان كل ما نطالب به الشاعر (الجديد) هو استمرار التلمس الشخصي المخلص وعدم التقليد .. فهل استمرار التلمس الشخصي وعدم التقليد مسألة قاصرة على الشاعر الجديد ؟

ويقف المقال عند العموميات : « هذا شاعر صادق التجربة » ، « تأتي الان الى بيتين يبلغ فيهما محمد ابراهيم ابو سنة ذروة الشعر » ، « اختيرت ألفاظها اختيارا غاية في التوفيق » ..

وهناك حشد من الملاحظات الجزئية التي لا ينتظمها شيء محوري مما جعلني في النهاية لا أعرف الشاعر المنقود وهل أحب شعره أم أنفر منه ؟ وما هي اسباب هذا الحب او هذا النفور ؟

وهل هناك اكثر من التعميم في العبارة التالية في مقال (عودة الى الادب العربي غير المقروء) : « ان زمن القصيدة الواحدة ذات الصفحةالواحدة والنفثة الشعوريةالواحدة والعطاء الوجداني الالتزامي قد ولى ، واننا سائرون حتما الى الاداء المسرحي والعمل المتكامل » ؟ وهل هناك أوضح من هذا اطلاق للقول على عواهنه ؟ فهل كون ظهور مسرحية (مأساة الحلاج) ومسرحية (بقايا التجربة) ايذانا باندثار الشعر ؟ فلماذا لم يحدث الامر في الخارج ؟

وفي المقال الذي عن يحيى حقي نجد أحيانا العبارات الغامضة التي لا نفهم منها شيئا : « اذا استعرنا تعبيرات فن التصوير ، فاننا يمكن ان نقول ان الاسلوب الذي استخدمه يحيى حقي هو الخط المتحرر (داود افندي) والخط اللولبي الملتف حول الخط المنحدر (الصديق) ثم العديد من النقط المتناثرة في الارجاء (الجدران - وكلام المحامين - الشهود - القاضي والحجاب - القريب المعدم صاحب الحق المهضوم - زوجة داود افندي .. على أن ثمة نقطتين من هذه النقاط تتحولان الى بقعتين لونيتين متميزتين الاولى بقعة حمراء تتمثل في الشاويش ، والثانية سوداء تتمثل في المحامي المحظوظ » .. فهل هذه مصطلحات تصلح للنقد ؟ وهل هي مصطلحات كشفت لنا شيئا او عمقت لنا شيئا ؟

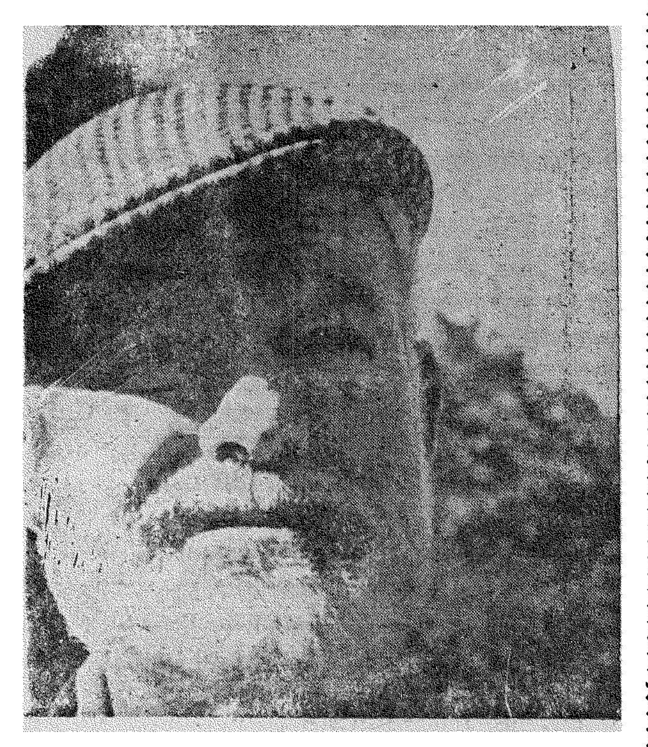
لقد حددت لي منهجا : النقد هو الكشف عن القضايا المحورية سواء المضمونية أو الشكلية على أن يرضع النقد من ضرعي الفلسفة والفلسفة الجمالية .. وعلى هذا لم أتناول كل شيء مما ورد في ابحاث العدد الماضي وانما تناولت قضيتين محوريتين فقط ..

واذا كان لي أن أقول لصديقي الدكتور سهيل ادريس شيئا فهو ان « الاداب » محتاجة الى مزيد من العناية بالتخطيط لما ينشر فيها وخاصة من بحوث ..

القاهرة — مجاهد عبد المنعم مجاهد

صدر حديثا

باباهمنغواي



بقلم ا. هوتشنر

ترجمة ماهر البطوطي

هوتشنر صحفي شاب اقبل على همنغواي يطلب منه حديثا ادبيا وهو يقول له : « اذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة » فاستجاب الروائي الاميركي الكبير للصحفي الذي اصبح صديقا يلازمه كظله طوال اربعة عشر عاما ، حتى موته .

و « بابا همنغواي » هو الكتاب الذي اصدره هوتشنر اخيرا عن حياةهمنغواي وكتبه باسلوب روائي شبيه باسلوب همنغواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن ان الكاتب الاميركي انتحر انتحارا ، ولم يقتل خطأ وهو يقلب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي اقامت الدعوى الان على هوتشنر بسبب الاسرار الكثيرة التي كشف عنها في كتابه والمتعلقة بحياة همنغواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في اسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ ..

كتاب ممتع لا يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم الادبية .

منشورات دار الاداب



بقلم : محيي الدين اسماعيل

* * *

أن تكون كل شيء ، أن تحس بكل شيء ، أن ترفض كل محاولة فاحلة ، أن تحتج على كل صلة عقيمة بينك وبين العالم ، لا بل أن تكون لك القدرة على أن تحتج على ذاتك وعلى العالم ، أن تستشعر أجواء الذروة من شواهق التاريخ ، لا بل أن تكون صنوا لذروة شواهق التاريخ ، أن تتجرأ وبكل صبر أبدي على كل معنى المأساة في حياتك ، أن تكون مسافرا الى الامام ... أن تلتزم ، دون أن تتجزأ ، وأن تغامر كما لو كنت المغامر دون سواك .

لعل هذه ومثيلاتها من الصيغ التي ينبغي أن يحياها المثقف العربي اليوم .

ماذا أقول ؟ « صيغ » ؟!

غفرانك أيها الفكر ! أبوسع أحد منا ، بعد اليوم ، أن يتحدث عن صيغ يمكن أن يحياها ؟

فلقد تحطمت وانسحقت وتناثرت بددا جميع هاتيك الصيغ التي كنا نتيه بها على الاخرين . كنا نكتب لبعضنا البعض ، ونهمس لبعضنا البعض ، ونتحدث لبعضنا البعض دون أن نكون شيئا ، ودون أن نحس شيئا ، ودون أن نرفض المحاولات الفاحلة أو نحتج على كل محاولة عقيم ، وأن نبدأ باستشعار الذروة في ذواتنا .. كنا لا نجرؤ على شيء .. كنا نفقأ عيوننا لنتوارى عن العالم .

لم يكن لنا موقف ! حتى نبذ الواحد منا في العراء وهو كظيم !

لم تعد لنا سوى الدعوة للعراء . فالعراء هو قوام دعوتنا وتجربتنا ... العراء أمام أنفسنا وأمام العالم في تجربة من أشد تجارب العصر ايلاما . فالعراء بهذا المعنى لم يكن حدثا خارجيا صاخبا ، بل كان تجربة الذات من دون ألفاظ .. من دون مصطلحات.. ألا ما أثقل جميع مصطلحات هذا العالم ، وما أسفلها ، وما أقدمها ، وما أقلها جدوى — على حد قول شكسبير —

والعراء — كما يصوره الدكتور سهيل ادريس — في قصته الموسومة بهذا العنوان في العدد الفائت من الاداب ، جزء من ذلك العراء والدعوة الى العراء الاخر .

تبدأ القصة بجو كابوسي ... الجندي يمشي في رأسه . فوق عينيه . يكاد حذاؤه الضخم أن يسحق أنفه وفمه . ولم يكن يرى منه — الان — الا ساقيه وقدميه .

هذه الصورة الكابوسية التي يقدمها الدكتور ادريس ، تذكرنا بصورة كابوسية مماثلة يفتتح بها الكاتب الفرنسي الكبير أندريه مالرو قصته العجيبة « وضع الانسان » أو « مصير الانسان » عن احداث الصين المنسحقة في الثلاثينات من القرن . الرؤيا غير متكاملة ، بل مشوهة ، وتنطوي على قدرة خارقة لتشويه العالم الخارجي ... القدمان الكبيرتان تملآن المدى كله .. وفيها أيضا قدرة خارقة أخرى على التناقض مع العالم ، لا لانها مشحونة بقوى ايحائية كبرى ، ولا لان فيها شيئا من خصب المخيلة الذي بلغ حد الخلق ، بل لان فيها شيئا من عدم المشاركة المباشرة مع العالم ... فهي رؤيا تحتاج الى تمزيق كثير من اللفائف والاغطية .. تحتاج الى كثير من العراء !.. القدمان بطيئتان حتى تكادا تتوقفان ... مسرعتان حتى تكادا تطيران بالجسم الذي تحملان ، خائفتان آمنتان ، متوترتان مطمئنتان .

وتكتمل الصورة الكابوسية من خلال هذه الرؤيا ذات القدرة الخارقة على التشويه وخلق التناقضات ... تكتمل عندما يشير الى ان هذه الصورة كانت من العمق بحيث لا تنمحي ، ولكن مع ذلك فان الظلام قد غشاها .

كابوس صاخب من خلال تلك الرؤيا المشوهة للعالم ... وبعد ذلك تخفت تلك الطرقات وتنكمش الرؤيا بآمادها الشاسعة وتنمحي الصورة أو تكاد ، ويسود صمت .

ثم يتطلع الى الصحيفة الفرنسية ، فيتأمل سحنات أولئك الذين وضعوا أيديهم وراء رؤوسهم ودب الذعر في عيونهم التي تتطلع الى فوهات البنادق والرشاشات تحملها أيدي النساء ، ثم يتوه ! يتوه الان من غير رؤيا .

وتعاوده الرؤيا لا لتشوه العالم في ناظريه ، بل لتقترن به في العالم .. ثم هل هي حالة مرضية أم هل هي رؤيا ؟ سلوى في هذه القضية تزعم انها محض حمى خفيفة وبعد بضعة أيام سيعود الى البيت . ولكن لم تستطع سلوى أن تقنعه هو بأنها محض حمى خفيفة ولا حتى مجرد حروق قنابل النابالم ! انها تجربة من رؤيا جديدة ليست فيها الخصائص الاولى لتلك الرؤيا الكابوسية القديمة المظلمة ... انها تنطوي على قدرات جديدة يمضي بها من خلال تركيب بين النقائض ... هذا هو « السينتيز » الجديد ، بعد أن تطهر من الادران أمام الشمس في الرمال المحرقة .

هكذا نقرأ هذه القصة للدكتور سهيل ادريس فنرى فيها هذا الخط من التساوق بين الفكرة التي انطوت عليها القصة وبين التركيب الفني المعقد الذي استخدم النقائض ليبلغ هذا « السنتيز » الاخير بما يتضمنه من دعوة الى العراء الحقيقي أمام العالم .

أظن أن بالوسع القول ان قصة الدكتور ادريس هذه يمكن أن تكون من طلائع أدب ما بعد ٥ حزيران .

وعلينا أن نسجل على أنفسنا ، وبعمق وبصدق ، وبمواجهة صريحة للذات وللعالم ، أن تاريخنا الادبي (وجماع تاريخنا أيضا) قد انقسم الى ما قبل ٥ حزيران وما بعد ٥ حزيران !

وتلك القصة كانت احدى طلائع المابعد !

* * *

والقصة الثانية — من حيث الاهمية — في العدد هي « لوسي في بغداد » للقاص ليث الواسطي . ورغم الحذر المبرر من الاسراف في الحماس ، فلا مناص من أن أنص على أن الواسطي في قصته هذه يعدنا بأشياء كثيرة وجميلة .

ففي هذه القصة تبدو لنا طاقة الواسطي على متابعة الحدث وتطوراته بأناقة ويقظة نادرتين ، دون أن يلجأ الى ما يلجأ اليه الكثيرون من تمزيق أوصال الحدث تمزيقا بشعا لستر ضعفهم في رصد أطواره .

قصة « لوسي في بغداد » قصة أنيقة ، والحدث الرئيسي الذي تدور حوله القصة بسيط جدا ، والبطل فيها متعب ولكنه قادر على المواجهة ، يتألم دون تمزق وتعليق ولكنه قادر على الملاءمة .

وبالرغم من بساطة الحدث وبساطة البطل ، ونجاح الواسطي في الرصد والمتابعة ، غير أننا نحس أن الطاقة الذاتية التي يمتلكها الواسطي مضافا اليها طبيعة الحدث ذاته ، كانتا جديرتين بأن توسعا من أفق هذه القصة ، لكيلا تبدو — كما بدت — وكأنها تلخيص لقصة طويلة . فالواسطي في تلخيصه لتطور الحدث لم يخرج الى جزء أساسي من تطورات المشكلة ، بل على العكس من ذلك ، أظهر لنا قدرة فائقة على التلخيص والمتابعة لا بل واليقظة — كما قلت — .

وبعد ، فالواسطي يعدنا بكثير .

* * *

القصة الثالثة من قصص العدد هي « الحذاء الضيق » لحسن الشربجي ... مرة أخرى مشكلة الانسحاق ، وقسوة الواقع وتصديه للحياة الروحية لانسان يحاول ... يحاول على الاقل أن يتطلع ...

التل والأسطورة

أرق الاحراش وكومة انفاس الدغل
وبقايا من عرق الظل
وسهام ، تلهث ، مكسوره
فـوق التـل
وخطى بصمات دمويه
فوق الاعشاب البريه
وسحابات قميص أصفر
مزقه الاعصار .
ومئزر
احمـر
أشياء ..
ارث ..
أسطوره

قصة صياد غاص بأعماق الطين
عانق أشواق الغابات
وتحدى الموت بسكين
يفتال تماسيح الليل
ويغذي جوع الغابات
قصة صياد لاتيني
قد مر على هذا التل
ألقى نبض خطاه وسارا
تنتحب على يده الريح
ونداء يصرخ ، مجروح :
يـا جيفارا
يـا جيفارا

البصرة (العراق)

محمد راضي جعفر

وببدو ان المشكلة الرئيسية في هذه المشكلة هي مشكلة التناقض، الذي يبلغ حد الانفصام الكامل بين أن يحيا الانسان وان يعيش ... أن يحيا بكل تجربته وبكل ثقل محاولاته ، وبين أن ينكمش ويرتد الـى اخر زاوية ممكنة ، وان يعيش محض عيش ...

فكرة جميلة حقا ، هذا التناقض بين الكفاح من أجل أن يحيـا الانسان ، والانكماش والارتداد الى مستوى العيش .

ولكن هل استطاع الكاتب الشوربجي ان يحقق في قصته هذه ذروة وحدة هذا التناقض ؟

المحاولة كانت مرهقة ، وكان صخب الارهاق واضحا
ولكن من أخفق في مثل هذا فما أخفق !

* * *

وأمامنا القصة الرابعة والاخيرة في هذا العدد : ((الجسم فـي ما لا نهاية ...)) لرجب سعد السيد .

وهي من حيث البناء والحركة والرسم أجدر بأن تدعى ((صورة)) بدلا من ((قصة)) .

الحدث ؟.. ليس هناك من حدث ، وأكاد أقول على الاطلاق .

والجو ؟.. ليس هناك من جو ... وحتى تمزيق الفعل الخارجي تحت شعار التداعي الشائع مثلا في قصة الشوربجي ، يكاد يكـون منعدما أصلا .

انها ليست اكثر من صورة مسطحة لمرآة تطل مـن ورائها خلفية لدرس الطبيعة دون مسوغات .

* * *

على أية حال ، يهمني جدا ان اسجل هنا ، ان هذا العدد مـن الاداب قد شهد مولد قصة من آدب ما بعـد ٥ حزيران ، تلك هي قصة ((العراء)) .

محيي الدين اسماعيل

رئيف خوري ناقــدا

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

هنا تتلاقى النظرية الجمالية عنده مع منهجه الفكري وفلسفته في الحياة تلاقيا يرينا مرة اخرى وحدة شخصيته بمرآى جديد . ويبدو أن هذا التلاقي قد منح رئيفا الناقد والاديب معا تلك الرؤيا التي تخرج الاديب وقارئه من شبكة المآسي الواقعية ، وتعطيه قدرة النظر الى ما وراء جدار المأساة مهما كان الجدار سميكا ومتشامخا ومقفلا ومظلما ..

***

.. ولقد كان من التزام رئيف الناقد والاديب لخطه النقــدي والفكري ذاك منذ الاعوام الاولى لرحلته المعطاء ، أن هزته انتقالة تطورية انتقلها الكاتب الالماني الكبير « توماس مان » في الثلاثينات ، من صف الادباء المنكمشين على أنفسهم بعيدا عن مشكلات الانسان الواقعية في عصره الى صف الانسانية المعادية للفاشستية .

لقد اهتز رئيف الناقد والاديب معا لهذا التطور الجديد فــي شخصية « مان » فكتب فصلا (٧) يسجل فيه نظرات نقدية جديرة بان تسهم هنا في تعرفنا « هوية » رئيف خوري الناقد .

يقول ، في البدء ، انه لم يكتب هذا الفصل مدفوعا بكون الكاتب الالماني « صرخ عاليا في هذه الايام ضد الفاشستية ، وقرر ان يشترك في المعترك الاجتماعي القائم على أشده ، ويبني له في الجانب المعادي للفاشستية متراسا قويا برغم عبء ثلاث وستين سنة على منكبيه » .. بل كتب هذا الفصل لان لتطور « مان » الجديد « دلالة عظمى علــى اتجاه الادب والتفكير عموما في عالمنا الحاضر ، لان لتطوره الجــديد اشارة واضحة الى كيف يجب أن يتجه الادباء والمفكرون ، العرب وغير العرب ، في المستقبل العاجل خدمــة لمصلحة الادب والتفكير نفسيهما ومصلحة أقوامهم والانسانية كلها » .

ان الجمع ، هنا ، بين مصلحة الادب والتفكير ومصلحة أقــوام الادباء والانسانية كلها ، هو بذاته ملمح عريض من ملامح المنهج النقدي عند رئيف . فهو تعبير جلي عن قوة الارتباط ، في رأيه ، بين الادب والتفكير من جهة وحياة الاقوام والانسانية كلها من جهة ثانية .

ومن هنا يصف موقف « مان » قبل تطوره الجديد بأنه موقــف ينطوي على « فكرة شاذة في الفن والفنان » . ويعني بــــه موقف الانكماش والاكتئاب والتجهم وسد كل منفذ للحبور والمسرة بين نفسه ـ أي الفنان ـ وبين العالم .

ثم من هنا كذلك ينطلق رئيف في اكتشافه الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها رواية « مان » المعروفة باسم « جبل السحر » . فان أبطال هذه الرواية نفر من المسلولين اتخذوا لهم مصحا خاصا على احدى قمم الالب ، وهم يقتلون الوقت في تفلسف سلبي عن الناس المحتشدين في السهول التي يشرفون عليها من فوق قمتهم .

الفكرة هنا ، كما يفهمها رئيف ، هي أن هؤلاء المسلولين هم رمز الفنانين المنكمشين على أنفسهم ، وأن قمة الجبل هي رمــز دنياهم الخاصة التي ينزوون فيها ويفقدون كل صلة بجماهير الناس .

وفي اكتشافه فكرة الرواية على هذا النحو يكتشف موضع التطور في أدب « مان » وسبب هذا التطور ، اذ يلاحظ رئيف ان « مان » يدعو هؤلاء الفنانين المنكمشين مساليل بعد أن كانوا مثله الاعلى . ثم يعلل هذا التحول بتأثير الحرب الهمجيــة التي اكتشف « مان » أخيرا حقيقتها الاستعمارية ، وهو يرمي في روايته هــذه « جبل السحر » الى القول بانه لو تضافر الناس على منعها ، ولو رأى الفنانون مجيئها ونبهوا اليها الناس ، لما وقعت وأغرقت الدنيا بأهوالها .

***

.. لقد هزه تطور توماس مان نحو هذا الموقف الانساني . ومن هذا المنطلق ذاته يبني رئيف فكرته الاخلاقية في الادب والفن . فهو يريد من الاديب والفنان أن يتحملا مسؤولية الوفاء للقيم الانسانيــة والدفاع عنها .. ولذلك يرى ، في مقال له بعنوان « الادب والرسالة القومية » (٨) ، أن الاديب « ليس مسؤولا فقط عـــن تعبير بليغ أو تصوير رائع » ، « و « ليس ملزما فقط بشروط توجبها عليه الحرفة ، بل انه لمطالب بالوفاء لقيم يدين بها » . ولذلك أيضا يرى أن هــذا الامر بالذات هو ما جعل أبا العلاء المعري يتمتع « طوال هذه العصور بذلك الوقع البليغ الذي نحسه لادبه رغم ما يبهظه أحيانا من التكلف والقصد الى الاغراب » . فان جانبا كبيرا من ذلك الوقع البليــغ المؤثر انما يتصل بصدق شخصية المعري وشعورها بالمسؤولية أمــام ما أخذت به ذاتها من قيم ..

وينتهي بنا رئيف في هذا المعرض الى نتيجة جازمة تقول هكذا : « .. واذن ، فنفوذ الادب قضية لا يمكننا أن نفكها من أخلاق الاديب مقيدة بالمسؤولية » .

ولكن ، ما موقفه ـ في هذا الصدد ـ من قضية الشكل فــي الادب ؟ فهل يصح أن نستخلص هنا أن نظرية رئيف النقدية لا تعبأ بالشكل الادبي ؟

ـ أولا ، لقد سبق أن رأينا كيف يجعل قضية الاداء الفني رديفا دائما لقضية « المعنى الانساني » في الادب .

ـ وثانيا ، هوذا رئيف يوضح في مقــال آخر بعنوان « الحب الصحيح للحياة » (٩) انه لا يضع اطلاقا قضية الشكل الادبي جانبا ، ولكنه يذهب الى أن الشعر ، كسائر فنون الادب ، « لا يجوز النظر اليه على انه محض كلام جميل يبرع الناظم والكاتب في توقيعه علــى الوزن أو سبكه في مسابك البلاغة » . ويــذهب ـ بناء على ذلك ـ الى ان الشعر ، والادب اطلاقا ، اذا كان عبارة جيــدة فلا بد له أن يكون عبارة عن فكرة وتصوير العاطفة ، والافضل له أن يعبر عن هذه الفكرة ويصور هذه العاطفة بقصد ووعي وادراك .

معنى هذا أن جودة الفكرة ذاتها ، أو عمق العاطفة ذاتها ، هــو الذي يكسب العبارة جودتها ورونقها وعمق أثرها .. وهذا يعني أخيرا انه لا انفصال بين الفكرة أو العاطفة وبين الصــورة أو العبارة ، أي لا انفصال بين الشكل والمحتوى ، فان كلا منهما يكسب الاخر قيمته ، وان كليهما معا يؤلفان القيمة الفنية للعمل الادبي .

***

لم نبعد كثيرا ـ بعد ـ عن سياق الكلام الذي تحدث به رئيف منذ قليل عن شخصية أبي العلاء المعري في شعره . لذلك أحسب العودة الى هذا السياق كيلا يفلت منا ، ونحن نستجمع ملامح رئيف خوري الناقد ، ملمح ذو شأن هام في رأيي .

ذلك بأن رئيفا أدخل عنصرا جديدا وجــرينا الى نظرية الادب النقدي بما أثاره ، منذ عامين تماما ، أثناء حــديث له عن أمين الريحاني (١٠) . فقد دعانا هناك أن نقف وقفة تأمل وتعمق أمــام شخصية الريحاني قبل أدبه وأفكاره . وقد بنى هذه الدعوة على رأي يرى به ان أدب الريحاني وأفكاره تستمد من شخصيته وزنا فوق الوزن الذي لهذا الادب نفسه ولتلك الافكار نفسها لو انها انبثقت من أديب اخر أو أدباء اخرين .

هذا الرأي يتجاوز الرأي المعروف ، أو المقولة الواقعية المسلم بها من ان شخصية الاديب تدخل في نسيج أدبه وأفكاره . انه هنا يفترض للادب وزنا ينتفي فيه الــوزن الموضوعي ، ويكاد ينحصر في الوزن

(٧) مجلة « المكشوف » ـ العدد ١٢٠ ـ تشرين الثاني ١٩٣٧

(٨) مجلة « الاداب » ـ أيار (مايو) ١٩٥٧ .

(٩) مجلة « الثقافة الوطنية » ـ شباط ١٩٥٩ .

(١٠) مجلة « الاداب » ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٥ .

الشخصي .. ومكان الجرأة في هذا الرأي ان رئيفا نقله من التخصيص الى التعميم حين قال ان هذه الظاهرة ملحـــوظة بوضوح في دنيا الادب ، ثم حين أراد أن ينقض القاعدة : « أنظر الى ما قيل لا الى من قال » بقوله ان هذه القاعدة لا تصمد في الادب .. ثم حين ذهب الى أبعد من هذا قائلا بأنه يرجح ان الادب العظيم لا يكون بلا شخصية عظيمة تبدعه ، وان هذا الادب العظيم قلما يعظم الى حجم الشخصية العظيمة التي تبدعه .

ينطلق رئيف بهذه الافكار من التجربة الخاصة التي كان يجابهها وهو يدرس شخصية الريحاني وأدبه ويقارن شخصيته بأدبه ، ويلحظ طفيان شخصيته على أدبه .

ليس من اليسير أن يدخل هذا العنصر الجديد في نظرية الادب النقدي بصفتها العامة ، لانه لا يزال يحتاج الى دراسة جادة معمقة ومقارنة ، ولكن هذا العنصر قد دخل بالفعل في نظرية الناقد رئيف خوري ذاته . وينبغي النظر اليها باحترام لجدتها وجراءتها من جهة ، ولعمق الاجتهاد الذي تدل عليه عند رئيف خوري من جهة ثانية .

***

لقد عرفنا الكثير ، في ما سبق ، من عناصر هذه الفكرة التـي يتمسك بها رئيف الناقد في تكوين القيم الجمالية للادب . ولكـن ، بقي عنصران يبدو لنا ، من بعض أعماله النقدية ، انه يضعهما فـي المكان المرموق من مقومات الفكرة والصورة معا :

أولهمـا : حب الحياة واحترامها .

وثانيهما : المعرفة .

أما الاول ، فهو متصل أوثق اتصال بموقفه من الجانب الاخلاقي للادب والفن . انه يرى أن الشعر ، والادب اطلاقا ، لا بد ان يفعل فعله في مفاهيم قرائه وأخلاقهم ، وفي رأس هذه المفاهيم والاخلاق : الموقف تلقاء الحياة ، ولا سيما موقف الناشئة .. « وليس ثمـة مـن شيء يبلغ خطره وقيمته في الامم ما يبلغه موقف ناشئتها من الحياة . وليس ثمة من موقف خليق بأن تقفه الناشئة من الحياة كموقف الحب لها واحترامها والنفع والانتفاع بها والحرص على أن تكون أوفر حظـا من العدل والجمال » .

ومن هنا يرى رئيف انه اذا استعمل حفظ الشعر ، أو درس الادب اطلاقا ، في « مناهج التعليم وسيلة الـى اتقان اللغة وفتق اللسان ، فينبغي أن يكون في الوقت نفسه وسيلة الـى تشريب الناشئة ذلك الحب الصحيح للحياة » .

بناء على هذه النظرة ينتقل الى دراسة نقدية مقارنة يبسط بها مواقف شعرية لكل من أبي نواس والمتنبي وأبي العلاء ويوازن بينهما على أساس ما يحتويه كل موقف من « غذاء معنوي صالح للناشئة » من حيث تعليمهم حب الحياة الصحيح .. وكلمة « الصحيح » هنـا لا يوصف بها حب الحياة ، في رأي رئيف ، الا حين يقترن هذا الحب باحترام الحياة . فحب أبي نواس للحياة ، مثلا ، ليس حبا صحيحا لانه « ضرب مـن ضروب الاستخفاف بالحيـاة وتمريغها في أوحال الغرائز » ..

وليس معنى ذلك ان موقف أبي العتاهية ، مثلا ، أفضل مـن موقف أبي نواس تلقاء الحياة ، بالرغم من ان أبا العتاهية أشاح بوجهه عن أبي نواس من حيث موقفه من الحياة . ذلك لان أبا العتاهية ـ كما يقرر رئيف ـ قد لاقى أبا نواس من حيث أراد أن يفارقه وينقطع عنه . فاذا كان ـ أي أبو العتاهية ـ مظهر رد فعل لتلك الروحية النواسية المبتذلة التي طفت على الارستقراطيتين العباسية والفارسية في الدور العباسي الاول ، فانه رد فعل في الشكل لا في الجوهر . لان هـذا التناقض الشكلي على خط مستقيم انما تتصل جذوره وتستقي مـن أصل واحد هو : اعتبار هذه الحياة شيئا لا يستحق التقدير ، فاما أن تقضى في حانة على كأس ونغمة مغن وارتجاج راقصة ، واما أن تقضى في صومعة على مشهد من وحشة المقابر وعظامها النخرة (11) .

***

.. وأما العنصر الثاني ، وهو المعرفة ، في مقـومات الفكـرة بالادب ، فقد حرص رئيف خوري حرصا واضحا على توكيد الاهتمـام به في كثير من نصوصه النقدية .

وينبغي أن نتذكر هنا عبارة سبقت منذ قليـل حين كان رئيف ينص على القول بأنه اذا كان الشعر عبارة جيدة فلا بد أن يكـون عبارة عن فكرة وتصويرا لعاطفـة ، ثم حرص أن يقول بأن الافضل للشعر ، أو للادب اطلاقا ، أن يعبر عن هذه الفكرة ويصور هذه العاطفة بقصد ووعي وادراك ..

القصد والوعي والادراك ، اذن ، شرط لافضلية التعبير الجيـد عن الفكرة ، أو التصوير الجيد للعاطفة .. وهل يكون القصد والوعي والادراك الا بالمعرفة ؟

ولكن ، أية معرفة يطلب رئيف ؟

في مقاله « الادب والرسالة القوميـة » الذي سبقت الاشارة اليه ، حين يتحدث عن القيم التي يجدر بالادب أن يسأل عنها وبالاديب أن يلتزمها ، يقول ان هذه القيم بالنسبة للاديب العربي هي النابعة من الرسالة القومية العربية التحرريـة ، القيم المشتقة من الطموح الشعبي الاصيل الى العدل والحرية ، الى الخير والجمال ، الى الحق والسعادة .. ولكنه يؤكد هنا ان التزام هذه القيم يقتضي مـن الاديب العربي ، قبل كل شيء ، معرفة المعنى العملي لهذه القيم في عصره بالذات ، ويقتضي أن تكون هذه المعرفة معرفة دقيقة معمقة .

رئيف خوري ناقد وأديب تقدمي أولا ، وهو مثقف ثقافة مكتنزة غنية ثانيا . من هنا يطلب من الكاتب أو الشاعر ، حين يلتزم قيمـا معينة ، أن يتعرف هذه القيم بدقة العالم والمفكر والفيلسوف في وقت واحد ، لكي يلتزم بفقه واقتناع عقليين يتحولان وينصهران في ذاتـه الى اقتناع وايمان وجدانيين .

ان « مجرد التعلق بالقيم الفضلى ، والفنية في التعبيـر ، وقوة الخيال والشعور لا تعصم الاديب من الشطط فـي ممارسة مسؤوليته الكبرى ، ولا تدله بوجه عملي كيف يجعل أدبه وثيق الصلة حميم التفاعل بالطموح الشعبي الى العدل والحرية الخ » .. ان المعرفة التي يلح رئيف بطلبها للاديب هي تلك التي تعصمه كذلك من الانخداع بالمظاهر ، ومن التفاؤل الاحمق ، ومن اليأس الاشد حمقا ، وهي تلك يستطيع بها الاديب أن يميز ، « بادراك واقعي وروح نضالية ، قـوى البناء الناشئة وقوى الهدم المتقهقرة وان بدت غالية » .

هذه المعرفة ـ أخيرا ـ هي التي تمنح الاديب تلك الرؤيا التـي افتقدها رئيف في قصص توفيق عواد مـن « قميص الصوف » .. الرؤيا التي تفتح للاديب آفاق المستقبل الجميل المجيد الذي تضمحل منه المآسي كما قال رئيف بوحي من المعرفة نفسها التي كان يهتدي بها لاستشراف ذلك المستقبل الوضاء ، رغم جدار المأساة المحدق بنـا الان ، بل رغم « شبكة المآسي » التي نضطرب فيها هذه الآونة ..

***

هذه جملة من الملامح المتكاملة لرئيف خوري الناقد ، ولست أزعم انها ملامحه الكاملة ، ولكن أستطيع أن أزعم انها توحي بصورته النقية البهيـة .

وما صورة رئيف خوري الناقد ، في واقع أمره ، سوى صـورة رئيف خوري المفكر نفسه ، أي ذلك الاديب الكبير المبدع الذي جهـز عقله ومواهبه ووجدانه بسلاح المعرفة العلمية والفلسفية ذات النظرة الشمولية المتطورة ، فاستخدم هذا السلاح بدراية واصالة وعمـق تفكير ، وجراءة قلب ، وطاقة على الخلق والنفاذ والاستشراف .

حسين مروه

---

(11) المصدر السابق .

رئيف خوري والتراث العربي

– تتمة المنشور على الصفحة ٧ –

وهما العاهتان الفكريتان اللتان نجدهما غالبا ، أن لم يكن دائما ، في أساس الاحكام الاعتباطية والاستنتاجات الخاطئة .

بهذه البوصلة الهادية كان رئيف خوري يقبل على التاريخ والتراث ينظر في مضامينهما بما تعرضه من مآثر وأحداث ومشكلات ، وغالبا ما كان حليفه الصواب والحق حيث كان الآخرون يخبطون خبط عشواء .

هكذا ، مثلا ، لم يكن الاجلال الصادق للامـــام صاحب « نهـج البلاغة » ولمثله الانسانية العليا ، ليحمل العقل الموضوعي المحب للحقيقة في دماغ رئيف خوري ، على تشويه وجه الخليفة الاموي معاوية . كلاهما كان ، في نظره ، من المؤسسين الاوائل الكبار للحضارة العربية ، على الرغم مما كان بينهما من خصومة بلغت حد المجابهة بالرجال والسيوف .

كذلك ، مثلا آخر ، لم يكن رئيف خوري ليسمح قط لنفسه – على غرار ما فعل الريحاني سامحه الله – بأن يلطخ وجه الحمدانـي الكبير سيف الدولة ، لمجرد ما انه قد اتفق له مرة ان يقطع المتنبـي قرية بفلاحيها وأراضيها والغلال لقاء قصيدة من شاعره العظيم . كان رئيف يدرك أن نظام الاقطاع – وما كان منه بد يومئذ لتقدم المسيـرة الحضارية – هو المسؤول الحقيقي عن مثل هذه الجريرة التي يستنكرها عصرنا اليوم وما كانت موضع استنكار في العرف العام تلـك العهود . وانما كان من طبع أديبنا ، وهو المفكر البصير ، أن يركز النظر عـلى السيف الشجاع الشهم الذي جابه به الامير الحمداني جحافل القرون الوسطى الظلامية مدافعا طيلة عشرين عاما عن موسم حضاري باهر كان آخذا في النمو والتفتح ذاك الحين . كذلك لم يكن من طبع رئيف خوري أن يفوته من أمر الحمداني (كيس الغبار) الشهير الذي جمعه الامير البطل حفنة بعد حفنة من ثيابه غب كل معركة من معاركه الكثيرة .

لكم كنت أود لو يسمح المجال هنا بايراد المزيد من الامثلة التـي تظهر ، على نحو ملموس ، طبيعة الرؤية الواعية وأسلوب المعـالجة لمشكلات التاريخ والتراث عند رئيف خوري . ليكن حسبي هنا ، على سبيل الاختصار ، أن أنوه بروح المسؤولية الصارمة التي كان يأخـذ بها نفسه ، وكانت تحمله دائما على ابراز الجوانب الايجابية تلبيـة للحاجات التربوية الملحة في عصرنا الحاضر . من هنا كان حرصه بل ولعه الدائم أن يمسح غبار الزمن عن الوجوه الكريمة في تاريخنا القديم ، مستخلصا (أنسانية العروبة) ، على حد تعبيره ، من وجه الزنجي الشاعر أبي الفوارس عنترة ، فنكران الذات أو الغيرية من وجه أبي الصعاليك الفارس الشهم عروة بن الورد « مقسم جسمه في الجسوم الكثيرة » ، فالنزوع الحق الى وحدة العرب من وجه الامير البطل سيف بن ذي يزن ووجوه المغاوير الذين سحقوا عنجهية كسرى في يوم (ذي قار) الى آخر ما هنالك من وجوه تتوهج بالشهامات وقيم الانسان .

أجل .. كان ضمير رئيف خوري مشحونا بروح المسؤولية حيال الشعب ، والى الحد الذي حمله على تكريس حياته كلها وصرف أيـام عمره ساعة بعد ساعة في المهنة الاكثر عقوقا في مجتمعنا الجائر الشرس ، وهي التعليم . يقينا أنها لم تكن مجرد مهنة بالنسبة اليه . كانت مهمة اجتماعية كبرى فرضها ، هو ، على نفسه طواعية منه والتزاما متوهجا بالاخلاص والحب للشعب ، ذلك في الوقت الذي كان له من مواهبه الفائقة ما يستطيع به ، لو شاء ، أن يعيش في أرفع مستوى من الوفرة والرغد حتى الترف .

ولكنه كان يعشق الكلمة .. الكلمة الجميلة الصادقة المشحونة بالضوء والحياة والقيم والفكر الصحيح . من عشاقها الاوفياء الكبار كان . وكان ، الي ذلك ، يحب أن يزرعها في كل عقل . بل تلك كانت مهمته الكبرى ووظيفته في الحياة . وكأني به كان يحس دائما أن حاجزا كثيفا من صمت الحبر والورق ، من صعوبات النشر وعراقيل تجـار الكتب ، فمن الفقر الذي يسحق الشعب المتطلع الى المعرفة ... حاجزا هائلا رهيبا يحول بينه وتحقيق مهمته . لهذا كان يؤثر أن يعلم ... ان يحدث بكلمته الحبيبة تحديثا في المعاهد والمجالس وبصوت حـار مؤمن وأمين على النبرة والنكهة والنكتة ، يوصلها مباشرة الى الاسماع والعقول والقلوب ، حرة كالشمس والهواء ، دون وسيط ولا بريد .

مع ذلك لم يبخل رئيف بالكلمة المكتوبة ، وان كان قد مل الكتابة في السنين الاخيرة . فقد ترك لنا مؤلفات ومخطوطات هي من كنوزنا الجديدة ، دون جدال . ولكم يوجعني اليوم ويحرق قلبي حرفا أنه لم يتم تلك الرائعة التي كتب منها فصولا نشرتها مجلة الجندي اللبناني ، أعني سيرة عنترة أبي الفوارس وقد شاء لها أن ترتفع على قلمه الفنان الماهر السبك ، من مستواها الفولكلوري البدائي الى مستوى الذروة التي تتربع عندها الآثار الكلاسيكية الخالدة في العالم .

خسارة فادحة كبرى أن يكون هذا العمل الادبي النفيس قد بقي دون انجاز ولا من ينجزه .

●

ولكن .. أصحيح حقا أن رئيف خوري قد مات ؟

أشهد أن السؤال يطفر من قاع بقلبي ، من عمق ذهول وصدق . وفي داخلي حس غامض مبهم ، كبعض أسرار الحياة ، لا يستطيـع التصديق ، بل يرفضه رفضا وباصرار عجيب ، تماما كما اتفق له من قبل أن يرفض وما انفك حتى الآن يرفض بكل اصرار أن يصدق مثلا أن مارون عبود وعمر فاخوري والريحاني والياس أبي شبكة وجبـران والمعري والجاحظ والمتنبي حتى امرىء القيس الذي قد هضم الوعر لحمه وعظمه ، قد ماتوا حقا . يقينا أنهم ما انفكوا أحياء يعيشون رغم أنف الموت . تلك هي المعجزة ... معجزة الكلمة التي عشقوها وأعطوها عصارة حياتهم والعار كله . فاذا هي ، مـن فرط وفـاء بطبعها عجيب خارق ، ما انفكت تصونهم كما تصان الكنوز .

يذهب الرجال دائما ويبقى أثمن ما في الرجال . يبقى الانسان الكبير الذي يبدع الفكر والشعر والادب والفن والعلم ومنجزات العلم ، يخلق بها جميعا مستقبلا جديدا لانسان وانسانا جديدا لمستقبل . تلك هي الحكاية التي بدأت يوما علـى كوكبنا في قديم الزمان ، ولن يكـون لها قط من خاتمة .

رضوان الشهال

صدر حديثا

ثائر وحب

ديوان شعر

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب

الفهرس العام للسنة الخامسة عشرة من « الآداب » ١٩٦٧

١ ـ فهرست الموضوعات

راجع بريد الآداب تحت مادة « بريد » . والقصائد تحت مادة « شعر » . والقصص تحت مادة « قصة » . والنتاج الجديد تحت مادة « كتاب » . والمناقشات تحت مادة « مناقشة » . والنشاط الثقافي تحت مادة « نشاط » .

٢ ـ فهرس الكتاب

فهرست

العدد الثاني عشر ـ كانون الاول (ديسمبر) ـ السنة ١٥

ـ ⁂ ـ

ندوة ((الآداب)) :

قرأت في العدد الماضي من ((الآداب))